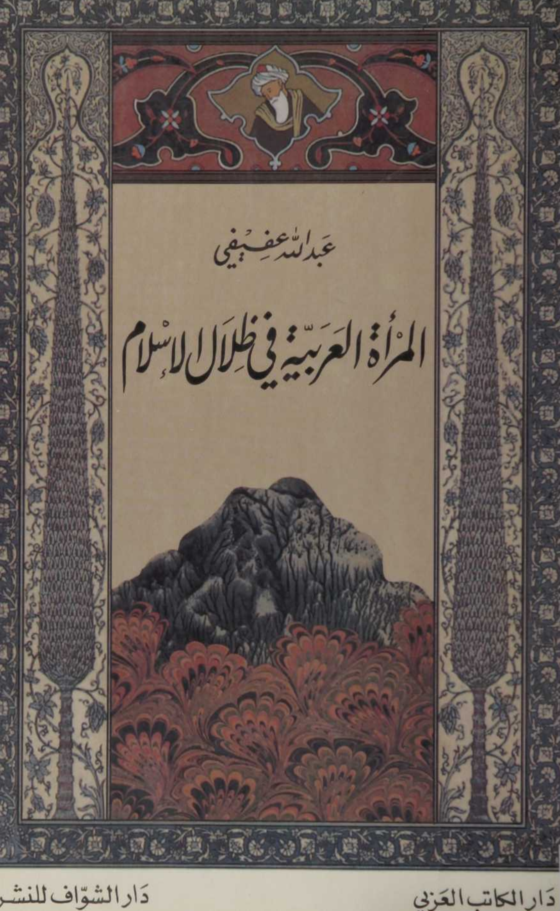
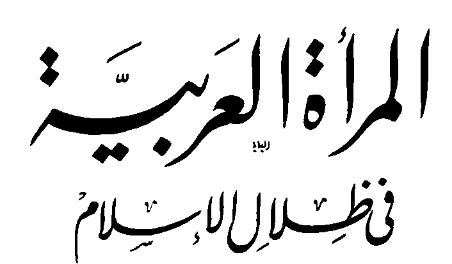


دار الكاتب العربي

دار الشوّاف للنشر

المرأة العربية
في ظلال الإسلام

عبد الله عفيفي



دار الكتاب العربي

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار الكاتب العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِين . سُبْحانكَ يا مُبْدِعَ الكون بلا عون ، ومفيضَ البيان على اللسان ، تبارَكْتَ وتَعاليْت ، لكَ الحمد ولكَ المُلْك ، أنْتَ وليُّنا ، فارْوِنا من فَيْضِ حِكْمَتِكَ ، واهدِنا بنُور هِدَايتِك ، واجْنُبْنا بفضلك زَيْغَ القلم ، ولَغْو الكلِم ، وفتنة الهوَى ، وضلال السَّبيل ، إنَّكَ نِعْمَ المَوْلى ونِعْمَ النَّصِير .

تمهيد
المرأة والدين

للمرأة من دقة الحس ، وقوة العاطفة ، وبعد الخيال فوق ما للرجل . فهى لا تبرح الدهر بين خاطر مُتَوثّب، ووجدان متأثر . لا تكاد تستمع خبرا ، أو تلمح منظرا ، أو تُطيف بها ذكرى ، حتى ينال ذلك من أعماق نفسها ، واسرار وجهها ، وشئون عينيها . وربما ألمّت بالحديث وهى تعلمه ضرباً من الخيال ، فلا تزال رغم ذلك بين دم يَتَصعّد ثم يَتحدّر ، وقلب يَثبُ ثم يطمئن ، ووجه يَرْبَدُّ ثم يُشْرِقُ ، وعَبرة تطفو ثم تحسر ، حتى تنتهى منه وقد استبقى بنفسها أثراً لا تملك أن تمحوه .

ذلك خَلْقُ المرأة وتلك شيمتها . فطرةٌ طيبة ، وسريرة صافية ، وقلب دائم الخفقان . مِثل تلك الطبائع المستكنة فى نفس المرأة إن وُفِقت إلى من يتعاهدها ، ويصلح نهجها ، ويزيل العوائق من دونها ، كانت سبيل الكمال المطلق ، والخير الصريح فى الأمم . وان مُنيت بمن يُموّه لها الباطل ، ويُزين لها صفحة الشر ، ويَجْنُبُها طريق السداد ، قضاء لنهمة فاسدة ، ومَجْلَبةً لعَرَض زائل ، انعكست آيتها ، وانتكست حالتها ، وهاجت الداء الدوىّ ، والشر العقَام . وان هى تركت وأمْرَها وخُلِّيت وسبيلها ، كان شأنها كشأن دفائن الكنوز فى قفر من الأرض ، تحول الأزمنة ، وتتبدل الأمم ، وهى على حالها ، لا خير فيها ، ولا أثر لها .

حقيقة لا مِراء فيها . . . فأى طرق التربية آثر فى حياة المرأة ، وأحق باستكمال فضائلها ، وإذاعة مزاياها ؟

الدّين وحده هو الكفيل بذلك . فهى بما لها من انفساح مدى التصور ، وقوة سلطان العاطفة ، تتمثل عظمة الله بأكثر مما يتمثل الرجل، وتستشعر حبه والخوف منه بأشد مما يستشعر .

أن إيمان المرأة إيمان لا مثار فيه الرّيب ، ولا مجال للشبهات . فهى لا تعتصم بالتأويل ، ولا تفزع إلى الحيلة ، شأن الرجل اذا أثقله الواجب وأعياه الاحتمال . فاذا أشربت ذلك الايمان منذ أول عهدها ، ولدُونة عُودها ، وجدت الله ملء سمعها، وبصرها ، وقلبها ، وسريرتها ، فلا تشعر إلا به ، ولا تعمل إلا له ، ولا تُقدِم على ما عساه يغضبه ، ويستنزل سخطه .

أن تصديق المرأة تصديق وثيق عميق، فهى لا تحاول — كما يحاول الرجل — تطبيق أمور الدين جليلها ودقيقها على عقلها . وفى الدين أشياء لا تنالها العقول إلا إذا رسخت حكمتها ، ورجحت كفتها ، واتسعت رُقعتها ، وأين للناس أن يكونوا جميعاً كذلك ؟

ولستُ بناسٍ أبد الدهر مشهداً لا يزال على طول العهد به يهتاج عواطفى ، ويُحيل جوانحى وجوارحى إلى وجدان فياض ، ومشاعر ثائرة . وهو على ما نقول أدلّ ، وبه أمثل . وذلك الذى أقصه عليك : —

فى أصيل يوم من صيف سنة ١٩١٤ كنت واقفاً فى جمهور الواقفين فى محطة طنطا ، أترقب القطار القادم من الاسكندرية ، لأتخذه إلى القاهرة .

لقد كان كلٌّ فى شغُل بتلك الدقائق المعدودات يقضيها فى توديع واشفاق ، وترقب وانتظار ، وحمل متاع وتنسيق آخر ، وكنت فى شُغُل بصديق يجاذبنى

حديثاً شيقاً ممتعاً . فى تلك اللحظات الفانية ، و بين ذلك الجمع المحتشد ، راع الناسَ صياح واعوال ، وتهدج واضطراب ، ومشادّة ومدافعة ، ثم ابصروا فاذا فتاة فى السابعة عشرة من سنيها ، يقودها إلى موقف القطار شرطى عات شديد ، وساع من سعاة معتمدى الدول قوى عتيد ، ومن خلفها شيخ أوربى جاوز الستين مكتئب مهزول ، وهى تدافع الرجلين حولها بيدين لا حول لهما .

أقبل القطار ثم وقف ! فكاد كل ينسى بذلك الموقف موقفه وما قصد له ، ثم أصعدت الفتاة وصعد معها من حولها ، وعجلت أنا وصاحبي فأخذنا مقاعدنا حيث أخذوا مقاعدهم . كل ذلك والفتاة على حال من الحزن والكرب لا يَحْمِلُ معها الصبر ، ولا يُحمَد دونها الصمت . سألت الشيخ ما خطبه ، وما أمر الفتاة ؟ فقال وقد أشرقه الدمع ، وقطع صوته الأسى :

انى رجل اسبانى ، وتلك ابنتى ، عرض لها منذ حين ما لم أعامه ، فصحوت ذات صباح على صوتها تصلى صلاة المرأة المسلمة ! ومنذ ذلك اليوم احتجزت ثيابها لتتولى أمر غسلها ، وأرسلت خمارها الأبيض على صفحتى وجهها ، ومكشوف صدرها . ثم أخذت تُنفِدُ وقتها فى صلاة وصيام ، وسجود وهجود . وكانت تدعى « روز » فأبت إلا أن تسمى « فاطمة » . وما لبثت أن تبعتها أختها الصغرى ، فصارت أشبه بها من القطرة بالقطرة ، والزهرة بالزهرة .

فزعت لهول ذلك الأمر ، وقصدتُ أحد أساقفتنا ، فأخذ يعالى رياضتها فلم يجد إلا شِمَاسا وامتناعا . وعَزّت على الرجل خيبته فكتب إلى معتمد الدولة الاسبانية بأمر الأسرة الخارجة على دينها . وهنالك آمر المعتمد حكومة مصر فساقت إليه الفتاة كما ترى برغمها و رغم ذويها ليقذف بها بين جوانب دير تسترد فيه دينها القديم ! . . .

قلت : أو أرضاك أن تساق ابنتك سوق الآثمات المجرمات على غير أثم

ولا جريمة ؟ ! فزفر الرجل زفرة كاد يتصدّع لها قلبه واحناء ضلوعه ثم قال : أما لقد خُدِعت ودُهمت ، وغلب أمر الحكومتين أمرى فما عسانى أفعل ؟

على أثر ذلك انثنيت الى الفتاة وهى تعالج من أهوال الحزن وأثقاله ما تخشع الراسيات دون احتماله فقلت : ما بالك يا فاطمة ؟ — وكأنها أنست منى ما لم تأنسه ممن حولها — فأجابتنى بصوت يتعثر من الضنى : لنا جيرة مسلمون ، أغدو اليهم فأستمع أمر دينهم . حتى اذا أخذنى النوم ذات ليلة رأيت النبى محمداً صلى الله عليه وسلم فى هالة من النور يخطف سناها الأبصار ، يقول وهو يلوّح إلىّ بيده : « اقتربى يا فاطمة » . ولو أنك أبصرتها وهى تنطق باسم النبى محمد لرأيت رِعْدَة تتمشى بين أعطافها وأطرافها حتى تنتهى إلى أسنانها فتخالف بينها ، وإلى لسانها فتعقله ، وإلى وجهها فتحيل لونه . فلم تكد تستتمْ جملتها حتى أخذتها رجفة فهوت على مقعدها كأنها بناء منتقض ! إلى ذلك الحدّ غشى الناس ما غشيهم من الحزن . وأبصرت بشيخ يتمشى فى ردهة القطار فطلبت إليه أن يؤذن فى أذنها ، فلما انتهى إلى قوله « أشهد أن محمداً رسول الله » تنفست الصُّعَدَاء ، وأمعنت فى البكاء ، وعاودتها سيرتها الأولى . فلما أفاقت قلت لها : ومِمّ تخافين وتفزعين ؟ قالت : أنه سيؤمر بى إلى دير . . . حيث ينهلون السياط من دمى . ولست من ذلك أخاف ألا أن أخوف ما أخاف يومئذ أن يحال بينى وبين صلاتى ونسكى ! قلت لها : يا فاطمة أوَلا أدلك على خير من ذلك ؟ قالت : أجل . قلت إن حكم الاسلام على القلوب . فما عليك لو أقررت بين يدى المعتمد بدينك القديم ، وأودعت الاسلام بين شغاف قلبك ، حتى لا يفوتك أن تقيمى شعائره حيث تشائين ؟ . هنالك نظرت إلىّ نظرة تضاءلتُ دونها حتى خفيتُ على نفسى ثم قالت : « دون ذلك حزّ الأعناق وتفصيل المفاصل ! دعنى ! فانى أن أطمت نفسى عصانى لسانى » .

وكان ضلالاً ما توسلت به أنا وأبوها ومَن حولها .

كان ذلك حتى أوفينا على القاهرة فخيل دونها .

لم أعلم بعد ذلك شيئاً من أمر فاطمة لأنى لم أستطع أن أعلم . . .

رحمة الله وبركاته عليك يا فاطمة ، فما أنت أولى شهيدات الرأى الحر ، والايمان الوثيق .

ذلك ما رأيته ، ولا والله ما غيّرت منه شيئاً إلا أن يكون اللفظَ بمرادفه . فان يكن الوقوف دون الحقيقة تغييراً فذلك مالىَ العذر فيه .

مِثْلُ ذلك التصديق العميق من شأن المرأة وطبيعتها ، وسبيله ما أسلفنا من خلالها وسجاياها . وإذا كان جمهور النساء يقدسن أجداث الموتى ، ويؤمنَّ بنوافر العادات فلا يتحولن عن ذلك الايمان المقدس مهما خانتهن التجارب وأخلفت منهن الظنون ، فكيف بهن لو وجهت وجوههن إلى الله العزيز القهار ، وعلمن حق العلم أنه وحده بارىء النسم ، ومبيد الأمم ، وأنه وحده العليم بخفيات السرائر ، ونزعات الضمائر ؟

لذلك كان دين المرأة — اذا طُبعت عليه — أكثرَ وضحاً ، وأوضح سناً ، وأرسخ أصولاً ، وأبعد عن عثرات الحيرة ونزغات الشيطان — من دين الرجل . ولذلك كانت — إذا أُخذت به ، ونشأت على حبه — أشد الناس عصمة فى السر والعلانية ، وأطهرهم صحيفة فى المشهد والمغيب ، وأبعدهم عن اقتراف المآثم ، واجتراح المحارم ، إذا سكنت ألسنة الزواجر ، وهدأت عيون الرقباء .

ان ضلالاً أن تعمد إلى الصَّبِيَّة فتَعصِبهَا بالشدة ، وتُقنّعَها بالهوان . فانك ان فعلت هوَّنت نفسها ، وثامت حسها ، فلا تشعر بعدئذ بأوزار العار ، ولا تبتئس بانثلام الشرف . ولَلْخيرُ للعالَم يومئذ أن تَطوىَ صفحتها ، وتودىَ بحياتها من أن تقذفه بها داء دويا ، وجرثومة وبيئة .

وإن محالاً أن تعمد إلى الأخلاق النظرية فتسوقها إليها قواعدَ يزحم بعضها بعضاً ، وعظاتٍ ينهال بعضها على بعض . فان ذلك مما يَكِدُّ ذهنها ، ويثقل خاطرها . وربما شق عليها استظهارها ، فأبغضتها وأبغضت ما حوتها .

ليس إلا الدين . فهو وحده الذى يملك زمام نفسها ، وقوام أمرها ، بما فيه من ذكر الله ، ووصف جلاله وعظمته ، وملكوته وجبروته ، وعجيب صنعه وبديع آياته ، وقدرته ورحمته ، وناره وجنته ، وأشباه ذلك مما يوافق سجيتها ويثير عاطفتها ، ويزيد غرسها زكاء ، ونفسها صفاء .

وليس بفائتنا أن نقص عليك قَصَصاً مما يسوقه بعض كتب التربية الفرنسية دعماً لذلك الرأى واعزازاً له :

قالوا : أن صبيَّة فى التاسعة من عمرها مَرِنت على الإساءة إلى أُمها ، ولم تزدها الأيام إلا جفوة وعناداً ، حتى لقد رمتها ذات عشية بقطعة من الخبز كانت فى يدها ! ذُهلت الأم لذلك واضطربت . وخرجت لساعتها إلى مربية ابنتها بالمدرسة تشكو إليها بثها ، وسوء صنيع ابنتها بها . فهدأت ثائرتها ، وقالت لها : دعينى وإياها .

استهل الصباح ، فدرجت الصبية إلى مدرستها . ودق ناقوس الكنيسة فغدا إليها التلميذات وهى معهن ، ثم أخذت كل واحدة مكانها . وأقبلت المربية فجلست مطرقة صامتة ، لا تقول شيئاً ، ولا تفعل شيئاً . تطاول الوقت حتى أوشك أن ينتهى . ونشرت السكينة رواقها على البنات جميعاً ، وأبى عليهن جلال المكان وهيبة المربية أن يكلمنها . ثم اعتزمت الكلام فكن جميعاً عيوناً شواخص إليها وقلوباً حوائم إليها . فانطلقت تقول :

بينكن صبية أغضبت الله ! . . . وأخشى أن يشملنا جميعاً غضبه لوجودها فينا ، أو تعلمن أىّ أثم اقترفت ، وإلى أىّ هاوية من الخطيئة سقطت ؟ أنها أهانت أمها ! !

فأما حديثها ووصف اهانتها فأنتن فى غنى عنه ، لأنه موجع مؤلم ، وليس لمثلى أن يفوه به . فأنا أخجل أن أُقرَن بين يدى الله إلى صبية آثمة

هنالك أخذت كل واحدة تفتش فى ثوبها هل تجد بين حواشيه تلك الفتاة الآثمة ؟ فأما من ذكرت لأمها قبلة ، أو اعتناقة ، أو دعوة بخير ، فتلك الظافرة المبتهجة

أما صبيتنا فقد ودَّت لو انفرجت الأرض فوارتها بين أحشائها . ولو وفِّقت إلى ذلك لتامست المهرب من غضب الله ، وايلام الضمير فلا تجده .

أقامت الصبية نهارها ، ولو أقامته على أنياب الأفاعى لكان أهون عليها وأروح لها مما لقيت . حتى إذا آذنت المدرسة بالانصراف ، خرجت وهى تتلفت فى كل ناحية . فما كادت تنتهى إلى أمها حتى ارتمت مُكِبَّةً عليها ، تقبلها وتبللها بدموعها . ومنذ ذلك الحين أصبحت أسمى البنات أدباً . وأسمحهن خلقاً

فيأيها الماضون فى تعليم البنت : وَطِّنوا أنفسكم قبل أن تبدأوا أعمالكم ، أن تجعلوا الدين علمها الخفاق على رأسها ، وأكليلها المشرق فوق جبينها ، وكوكبها المتألق فى ظلمات الدهر ، ومدلهمات الخطوب . وإلا فَقَدْتُم خلقها ، وهو أعزّ ما ملكت يمينها . وهنالك لا تجدون العلم إلا مدرجة الشر ، وسبيل الفساد ؟

المرأة العربيّة في ظلّ الإسلام

دور العظمـــة

أسفر نور الإسلام فافترّ ثغر الدهر لنساء العرب عن جوّ مُشرق، وأمل بعيد، وأسلوب من الحياة جديد .

لقد كان للمرأة العربيـة فى عهد جاهليتها فضائلها المكسوبة، ومواهبها الموروثة، وحقوقها التى تمَّ لها بعضها، وسلب الجهل وسوء نظام الاجتماع بقيَّتها فأما وقد رسخت أصول الإسلام، ووَرفت ظلاله، وخفقت على الخافقين أعلامه، ونَعِمَتْ هى تحت ظله بوثوق الإيمان، وتقلبت بين أعطاف الملك، ونهلت من معين العلم، وضربت بسهم فى التشريع، وشُرِع لهـا من الحقوق ما لم يُشرَع لأمة من الأُمم فى عصر من العصور — فقد أمعنت فى سبيل الكمال طَلْقة العنان، حتى أخملت من بين يديها، وأعجزت من خلفها، فلم تشبهها امرأة من نساء العالمين فى جلال حياتها، وسناء منزلتها .

ذلك حكم للحقيقة وللتاريخ، لا لعاطفة الدين، ولا لآصِرَة الرحم، ولا لحسن نسق اللفظ . له عِلَله وحِكَمه، وأسبابه ودواعيه، ومقدماته ونتائجه . وإنا لماضون بعون الله فى الوفاء بذلك كله . بادئين بما منع الإسلام عنها من حيف، وما شرع لها من حق . معتمدين فيما نقول على كتاب الله، وسنة رسوله وسيرة البررة الأخيار من آله وصحابته . فذلك كله مرجع أمرنا، ومنار بصائرنا .

المرأة العربية في ظل الإسلام

دور العظمـــة

أسفر نور الإسلام فافترّ ثغر الدهر لنساء العرب عن جوّ مُشرق ، وأمل بعيد ، وأسلوب من الحياة جديد .

لقد كان للمرأة العربيــة فى عهد جاهليتها فضائلها المكسوبة ، ومواهبها الموروثة ، وحقوقها التى تمّ لها بعضها ، وسلب الجهل وسوء نظام الاجتماع بقيّتها فأما وقد رسخت أصول الإسلام ، ووَرِفت ظلاله ، وخفقت على الخافقين أعلامه ، ونَعِمَتْ هى تحت ظله بوثوق الإيمان ، وتقلبت بين أعطاف الملك ، ونهلت من معين العلم ، وضربت بسهم فى التشريع ، وشُرِع لهــا من الحقوق ما لم يُشرَع لأمة من الأمم فى عصر من العصور — فقد أمعنت فى سبيل الكمال طَلْقة العنان ، حتى أخملت من بين يديها ، وأعجزت من خلفها ، فلم تشبهها امرأة من نساء العالمين فى جلال حياتها ، وسناء منزلتها .

ذلك حكم للحقيقة وللتاريخ ، لا لعاطفة الدين ، ولا لآصِرَة الرحم ، ولا لحسن نسق اللفظ . له عِلَله وحِكَمه ، وأسبابه ودواعيه ، ومقدماته ونتائجه . وإنا لماضون بعون الله فى الوفاء بذلك كله . بادئين بما منع الإسلام عنها من حيف ، وما شرع لها من حق . معتمدين فيما نقول على كتاب الله ، وسنة رسوله وسيرة البررة الأخيار من آله وصحابته . فذلك كله مرجع أمرنا ، ومنار بصائرنا .

بين العهـــدين

على الرغم مما لقيت المرأة العربية فى عهد جاهليتها من كرامة لا تمَارَى ، ومكانة لا تُسَامَى ، ومجالات درجت فيها إلى موطن الملك ، ملك الجوارح والقلوب — على الرغم من ذلك كله تعثر بها الدهر عثرات ، وَقَرَتْ فى بعض المواطن عظمها ، وانتظمت قلبها ، وتَغَشّتها بظُلَل من الفزع ، وظلمات من الأهوال .

كذلك لبثت المرأة العربية تتعثر حتى استبان وضح الإسلام فأقالتها يد الله وهأنذا أبسط القول فيما رفع الإسلام عنها من غواشى الظلم فى عامة أحوالها ، ومختلف أطوارها .

١ — الوليدة المسلمة

من العرب مَنْ كان يرى البنت حملاً فادحاً يضعف دونه احتماله ، وتتخاذل قواه لفرط ما يُشفق من وصمة الذل ، ووسم العار ، إذا وهنت نفسها ، أو ذهب السباء بها ، فكان بين أن يستبقيها على كره لها ، ومضض منها ، وترقب لموتها ، أو يفزع إلى الحُفَر فيقذفها فى جوفها ، ويُهيل التراب على غَضَارة عُودها ، ونضارة وجهها . فما أشدَّ ما عابَ الله أمر ذلك عليهم ، ونقَمه منهم ، ودلَّ على سفه رأيهم وسوء صنيعهم فى مواطن كثيرة من كتابه الكريم . فقال جل ذكره :

« وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ[1] يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » .

(١) الكظيم الممتلىء غيظاً وأصل الكظم مخرج النفس يقال أخذ بكظامه اذا أخذ بمخرج نفسه ومنه كظم الغيظ لاخفائه وحبسه عن الوصول إلى مخرجه

وقال تباركت آيته : « وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ[١] »

وقال تعالت حكمته : « قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَاءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » .

وفى القرآن الكريم كثير من مثل ذلك أليم شديد .

وكان قيس بن عاصم المِنقَرى يُحَدِّث بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم عن ضحاياه الموءودات وانه ذهب باثنتى عشرة منهن . فقال عليه الصلاة والسلام « مَنْ لا يَرحم لا يُرحم » وأمره أن يعتق بكل واحدة جاريةً مؤمنة[٢] .

وكان العرب يأنفون أن يداعب الرجل وليدته ، أو يسمح لها أن تمرّح بين

---

(١) انما صرف الله سبحانه السؤال الى الموءودة ولم يوجهه الى الوائد اظهارا لفرط السخط عليه والاحتقار له كأنه لهوان شأنه وشناعة جرمه لايستحق أن يوجه السؤال اليه (٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٥٧ وتفسير الطبرى ج ٣٠ ص ٤٠ : وكان قيس من سادات تميم وممن عقدت عليهم الخناصر فى البسالة والفصاحة والكرم والحلم . وكان الأحنف بن قيس يقول انما تعلمت الحلم من قيس بن عاصم . حضرته يوما وهو محتب « أى ضام ساقيه الى صدره » يحدث اذ جاءوا بابن له قتيل وابن عم له مؤثق فقالوا ان هذا قد قتل ابنك هذا فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته حتى اذا فرغ من الحديث التفت اليهم فقال رعبتم الفتى وأقبل عليه وقال يابنى نقصت عددك وأوهنت ركنك وفتت عضدك واشمت عدوك وأسأت بقومك ثم قال أين ابنى فلان فجاءه فقال يا بنى قم الى ابن عمك فأطلقه والى أخيك فادفنه والى أم القتيل فاعطها مائة ناقة فانها غريبة لعلها تسلو ثم اتكأ على شقه الأيسر وأنشأ يقول

انى امرؤ لا يعترى خلقى ... دنس يفنده ولا أفن
من منقر من بيت مكرمة ... والغصن ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقول قائلهم ... بيض الوجوه مصاقع لسن
لا يفطنون لعيب جارهم ... وهم لحسن جواره فطن

وقد وفد قيس على رسول الله فى وفد بنى تميم ودعاه صلى الله عليه وسلم سيد أهل الوبر — أى سيد أهل البادية — وفيه يقول عبدة بن الطبيب — وقد وقف على قبره —

عليك سلام الله قيس بن عاصم ... ورحمته ما شاء أن يترحما
سلام امرئ جللته منك نعمة ... اذا زار عن شحط بلادك سلما
فما كان قيس هلكه هلك واحد ... ولكنه بنيان قوم تهدما

ومما قالوا فى حديث هذا الوأد ان النعمان بن المنذر أوقع ببنى تميم لمنعهم الاتاوة عنه فاستاق نعمهم وسبى نساءهم — وفيهن بنت لقيس — فوفدت وفودهم على النعمان ضارعين اليه أن يرد عليه ساءهم فحكم النعمان أن يجعل الخيار الى النساء فأية امرأة آثرت زوجها ردت اليه فكلهن اخترن أزواجهن الا ابنة قيس فأنها اختارت سابيها فنذر قيس أن يئد كل ابنة تولد له

يديه . فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد نقض تلك السنة السيئة ، فلم يكن يضنُ بوقته الأعزّ أن يداعب فيه الولائد من بناته أو بنات صحابته .

فقد حدَّث البخارى عن أبى قتادة قال : خرج علينا النبى صلى الله عليه وسلم وأمامة بنت أبى العاص على عاتقه ، فصلى ، فاذا ركع وضعها ، واذا رفع رفعها[١]

وحدثت أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى وعلىَّ قميص أصفر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سَنَهْ سنه » — وهى بالحبشية حَسَنة — قالت : فذهبت ألعب بخاتم النبوة فانتهرنى أبى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعها ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبْلى وأخْلِق ثم أبلى وأخلق ، فعُمِّرَت بعد ذلك ما شاء الله أن تعمر[٢] .

---

(١) صحيح البخارى ج ٨ ص ٧ — طبع بولاق — وفى رواية ابن سعد عن أبى قتادة [بينا نحن على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس اذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل أمامة بنت أبى العاص بن الربيع — وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهى صبية قال فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى على عاتقه يضعها اذا ركع ويعيدها على عاتقه اذا قام حتى قضى صلاته يفعل ذلك بها] . وكانت أمامة من أحب الناس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى حديث ابن سعد انه صلى الله عليه وسلم دخل على أهله ومعه قلادة جزع فقال لأعطينها أحبكن الى فقلن يدفعها الى ابنة أبى بكر فدعا بابنة أبى العاص فعقدها بيده .

وقد/زوجت أمامة من على بن أبى طالب عليه السلام بعد موت خالتها فاطمة صلوات الله عليها

(٢) أم خالد : هى أَمَة — بفتح الهمزة والميم — بنت خالد بن سعيد بن العاص ابن عبد شمس . وكان خالد بن سعيد قد هاجر الى الحبشة ومعه امرأته هيمنة بنت خلف فولدت له هناك أمة وهنالك قضت شطرا من عهد طفولتها وآبت الى المدينة وقد بدأت تدرك ما يحيط بها . ومما قالت : سمعت النجاشى يوم خرجنا يقول لاصحاب السفينتين اقرئوا جميعاً رسول الله منى السلام فكنت أنا فيمن بلغ رسول الله

وهى من اللواتى روين كثيراً عن رسول الله

وفى روايةٌ ابن سعد عن اسحاق بن سعيد عن أبيه عن أم خالد قالت أتى رسول الله بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة — الخميصة كساء أسود مربع له علمان — فقال من ترون أكسو هذه الخميصة ؟ قالت فأسكت القوم فقال ائتونى بأم خالد قالت فأتى بى رسول الله أحمل فألبسنيها بيده وقال أبلى وأخلق — يقولها مرتين أو ثلاثا — وجعل ينظر الى علم فى الخميصة أصفر أو أحمر فقال هذا سنا يا أم خالد هذا سنا يا أم خالد — ويشير بأصبعه الى العلم — والسنا بلسان الحبش الحسن

وتزوجت أمة بالزبير بن العوام فولدت له عمرا وخالدا . وعمرت من بعده أمداً طويلا وخاتم النبوة سمة مستديرة من الشعر بين كتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم

ومن حديث عنايته صلى الله عليه وسلم بهن ، وأمره ببذل الرحمة ، واسداء المعونة لهن ، ما حدثت عائشة أم المؤمنين قالت : جاءتنى امرأة معها ابنتان تسألنى، فلم تجد عندى غير تمرة واحدة . فأعطيتها . فقسمتْها بين ابنتيها . ثم قامت فخرجت . فدخل النبى صلى الله عليه وسلم فحدثته . فقال : « من ابتلىِ من هذه البنات بشىء كنَّ له سِتْراً من النار[1] » .

* * *

أما حبه عليه الصلاة والسلام لابنته فاطمة ، وشغفه بها ، وحنانه عليها ، فما لا يحيط به وصف ولا يناله بيان . وهى التى يقول فيها : فاطمة بضعة منى يسوءنى ما يسوءها ، ويسرنى ما يسرها .

أبصر المسلمون كل ذلك ، ورأوا أن الله لم يختص فاطمة بنت محمد بذرية رسوله الا ليُشيد بالمرأة ، وينهض بأمرها ، ويرفع من شأنها ، ويأخذ العرب بحبها ، والابتهاج بها . فغدوا من بعده يحبون بناتهم ويُكرِمونهن ، ويرون الخير كله معقوداً بنواصيهن . وقد استخلص وهب بن مُنَبِّه من تقديمه سبحانه الإناث فى قوله : « يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ » ان من يُمن المرأة أن تلد الأنثى قبل الذكر .

وكان لمعن بن أوس[2] ثمان بنات ، ويقول : ما أُحب أن يكون لى بهن

---

(١) ج ارشاد السارى ٣ ص ٢٢ طبع بولاق

(٢) كان معن سيدا من سادات مزينة وعلماً من أعلام التابعين ورأساً من رؤوس الشعراء حدث أبو على القالى عن أبى عبيدة قال كان عبد الملك بن مروان ذات ليلة فى سمره مع ولده وأهل بيته وخاصته فقال لهم : ليقل كل واحد منكم أحسن ما قيل فى الشعر وليفضل من رأى تفضيله فأنشدوا وفضلوا فقال بعضهم امرؤ القيس وقال بعضهم النابغة وقال بعضهم الأعشى فلما فرغوا قال أشعر والله من هؤلاء جميعاً عندى الذى يقول

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه ... بحلمى عنه وليس له حلم
يحاول رغمى لا يحاول غيره ... وكالموت عندى أن يحل به الرغم

الى آخر القصيدة — أمالى القالى ج ٢ ص ١٠٣ — ١٠٥ فقيل له يا أمير المؤمنين من قائل هذه الأبيات قال معن بن أوس المزنى

رجال . وفيهن قال :

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم وفيهن لا نُكذَبْ نساء صوالح
وفيهن والأيام يعثرن بالفتى عوائد لا يمللنــــه ونوائح

وحدَّثوا أن عمرو بن العاص دخل على معاوية بن أبي سفيان وعنده بنت له يلاعبها. فقال له : انبذها عنك يا أمير المؤمنين ! فوالله انهن يلدن الأعداء ، ويقرّبن البعداء، ويؤدّين الضغائن . فقال معاوية : لا تقل ، فما ندب الموتى ، ولا تفقّدَ المرضى ، ولا أعان على الحزن مثلهن .

وقال الزهرى : كانوا — يريد أصحاب رسول الله — لا يرون على صاحب ثلاث بنات صدقة ، ولا جهاداً ، لحاجتهن اليه ، وشُغُلِهِ بهن ، والعناية بتربيتهن[1]

وكأن أبا خالد القَنانى[2] — وكان من غُلاة الخوارج — يشير الى ذلك ، وكان قد طُلب اليه العُدُوُّ الى القتال فقال :

لقد زاد الحياة الىَّ حبًّا بناتى انهن من الضعاف
أحاذر أن يرين الفقر بعدى وأن يشربن رنقاً بعد صاف
وأن يعْرَين ان كسى الجوارى فتنبو العين عن كرم عجاف
ولولا ذاك قد سَوَّمت مُهرى وفى الرحمن للضعفاء كاف
أبانا من لنا ان غبت عنا وجَدّ الحى بعدك فى اختلاف

(١) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٠٠ (٢) كان أبو خالد من زعماء الخوارج وعلمائهم وكان من القعدة — الذين لا يرون خوض الحروب — وسبيله فى ذلك ما أوضحه فى أبياته . وكان قطرى بن الفجاءة كبير الخوارج قد كتب اليه .

أبا خالد أنفر فلست بخالد وما جعل الرحمن عذراً لقاعد
أتزعم أن الخارجى على الهدى وأنت مقيم بين لص وجاحد

فأجابه بما أسلفنا من شعره — الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٢١ مطبعة التقدم

٢ — فوارق النساء

مَزَّق الاسلام حجب الفوارق بين النساء ، كما مَزَّقها بين الرجال . فتطامنت الرؤوس ، وتساوت النفوس ، فلم يكن بين المرأة والمرأة الا الخير تتقدَّم به ، أو العمل الصالح تسبق اليه . فامّا أن تُدِلَّ بعَرَض طارف ، أو تعتزّ بحسب قديم فذلك ما لا يَقدِّمها أنملة ، ولا يُغنى عنها من الله شيئا .

لقد شرع الله للمؤمنين شِرعة الإخاء بقوله جلَّ شأنه : « انما المؤمنون إخوة » فلم يكن يَفْرِق بين المسلمة والمسلم ، ولا بين المسلم والمسلمة ، إلا شريف الخلق وخسيسه . فذلك حيث يقول الله تبارکت حکمته فی کتابه الکریم : « اَلْخبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَاَلْخبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ » . وكذلك استنَّ رسوله صلى الله عليه وسلم سنة المساواة بقوله : « ألا وإن المسلم أخو المسلم فلا يحلُّ لمسلم من أخيه إلا ما أحلَّ من نفسه » . وهو الذى يقول صلى الله عليه وسلم : كل نسب وسبب يوم القيامة مقطوع الا نسبى وسببى » . ولا أدلَّ على ما تقول من حديث فاطمة بنت الأسود المخزومية — وهى امرأة من ذوات الشرف والحَسَب من قريش — وَهَنت نفسها فسرقت ، فقامت عليها البينة ، فوجب عليها الحد . فأهمَّ ذلك قريشاً . فقالوا : من يُكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ومن يجترىء عليه إلا أسامة حِبُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أتشفع فى حدّ من حدود الله ؟ ثم قام نخطب فقال : يأيها الناس إنما ضلَّ مَنْ قبلكم أنهم إذا سرق الشريف تركوه

وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها [١] .

أرأيت لو ذهبت صبيّة جارية بقطيع من الغنم ، فعدا الذئب على واحدة فأكلها ، فنهض مولى الصبية إليها يضربها ، أكان ذلك غريباً على الناس ، بعيداً عن مواقع أسماعهم وأبصارهم ؟ لقد حَدَث ذلك فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم وغدا الرجل على رسول الله يخبره بما أصاب به جاريته . فاشتدَّ بالنبي الغضب حتى احمرَّ وجهه ، وهاب أصحابه أن يكلموه . ووقف الرجل واجماً لا حراك به . وقال عليه الصلاة والسلام عند ذلك : وما عسى الصبية أن تفعل بالذئب ! وما عسى الصبية أن تفعل بالذئب ! . وما زال يكررها . ثم قال : أن خدمكم إخوانكم جعل الله لكم الولاية عليهم . فلم يجد الرجل مساغاً من موقفه إلا بعتق جاريته [٢] .

---

(١) ارشاد السارى ج ٩ ص ٥٠٤ — ٥٠٥ طبع بولاق

فاطمة بنت الاسود : هى فاطمة بنت الاسود بن عبد الاسود المخزومية . وعمها أبو سلمة ابن عبد الأسد الزوج الأول لأم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنهما . وكانت قد سرقت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حلياً فى قطيفة . وقيل كانت تستعير المتاع وتجحده . وقد ذهب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من قريش فعرضوا عليه أن يفتدوا فاطمة بأربعين أوقية من الذهب . فقال : تطهر — أى يقام عليها الحد — خير لها . فغرهم ذلك الأسلوب من نبي الله . فكلموا أسامة . فكان ما أسلفنا فى الحديث الشريف • وقد تولى بلال قطع يدها • أقول : وقد أحسنت فاطمة الانابة الى الله بعد ذلك

أما أسامه فهو حب رسول الله ، وابن مولاه زيد بن حارثة رضى الله عنهما . وكان رسول الله يقرنه فى الحب بالحسن بن علىّ عليهما السلام . ومن حديث البخارى عن أسامة أن رسول الله كان يضعه على فخذه والحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ويقول : اللهم ارحمهما فانى أرحمهما . وقد قتل أبوه فى غزوة مؤتة وكان قائد القوم • وأسامة يومئذ صبي . وقد جهز رسول الله أسامة فى جيش عظيم الى أبنى — بالشام — وهو على رأس الثامنة عشرة • ومات رسول الله قبل مسيره . فلما استخلف أبو بكر كان بدء عمله انفاذ الجيش وسار هو وعمر فى ركاب أسامة • وكان ظفر الجيش بالروم عظيما . ومات أسامة سنة ثلاث وخمسين . رضى الله عنه

(٢) وفى رواية أبى حنيفة : أن عبد الله بن رواحة كانت له راعية تتعاهد غنمه وأنه آمرها أن تتعاهد شاة . فتعاهدتها حتى سمنت الشاة . واشتغلت الراعية ببعض الغنم . فجاء الذئب فاختلس الشاة وقتلها . فجاء عبد الله وفقد الشاة ، فأخبرته الراعية بأمرها . فلطمها ثم ندم على ذلك . فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وقال ضربت وجه مؤمنة ! فقال انها سوداء لا علم لها فأرسل اليها النبي صلى الله عليه وسلم فسألها أين الله فقالت فى السماء قال فمن أنا قالت رسول الله قال : انها مؤمنة فأعتقها . فأعتقها مسند الامام أبى حنيفه ص ٣

ولقد ورث عليه الصلاة والسلام فيما ورث عن أبيه جارية عَسْراء اللسان لا تكاد تبين : هى أم أيمن . فكان صلى الله عليه وسلم يدعوها أُمّه . وكان إذا نظر إليها قال : هذه بقية أهل بيتى[١]

وكان من أشد ما يؤلم نفسه الكريمة ، أن يسمع الرجل يعيِّر الرجل بأمه . وآية ذلك ما حَدَّث المعرور بن سويد قال : رأيت أبا ذَرّ الغِفَارى وعليه حُلة وعلى غلامه حُلة . فسألناه عن ذلك فقال : إنى سابيت رجلاً فشكانى الى النبى صلى الله عليه وسلم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أعَيَّرته بأمه ! إنك امرؤ فيك جاهلية . ثم قال : إن خدمكم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يَغْلِبهُم فان كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم[٢] .

---

(١) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ج ٧ ص ١٦٢ طبع ليدن

أم أيمن : هى حاضنة رسول الله ومربيته ، ورثها رسول الله فيما ورث عن أبيه وقد أعتقها حين تزوج خديجة عليها السلام فتزوجها عبيد بن زيد الانصارى فولدت له أيمن . وكان أيمن موفور الدين . قتل شهيداً يوم حنين رضى الله عنه . ولما مات عبيد خلفه عليها زيد بن حارثة فولدت له أسامة . وكان مما عظمها فى عين زيد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن

وهى من اللواتى أكرمهن الله وأحسن مثوبتهن فى الدنيا والآخرة : حدث ابن سعد عن عثمان بن القاسم قال : لما هاجرت أم أيمن أمست بالمنصرف دون الروحاء فعطشت وليس معها ماء وهى صائمة فجهدها العطش فدلى عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض فأخذته فشربت منه حتى رويت فكانت تقول ما أصابنى بعد ذلك عطش ولقد تعرضت للعطش بالصوم فى الهواجر فما عطشت بعد تلك الشربة وان كنت لأصوم فى اليوم الحار فما أعطش

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأنس بها ويمازحها . وكانت عسراء اللسان ومن عسر لسانها أنها كانت تقول اذا دخلت على رسول الله : سلام لا عليكم — تريد سلام الله عليكم — فرخص لها عليه الصلاة والسلام أن تقول : السلام . ومن حديثها أنها قالت لرسول الله وهو خارج فى جيشه الى حنين « سبت الله أقدامكم » — بالسين — تريد ثبت — بالثاء — ومعنى سبت قطع — فقال صلى الله عليه وسلم اسكتى يا أم أيمن فانك عسراء اللسان وقد حضرت أم أيمن أحداً مع رسول الله فكانت تسقى الماء وتداوى الجرحى

(٢) ارشاد السارى ج ٣ ص ٣٦١

أبو ذر هو جندب بن جنادة بن سكن الغفارى — وغفار بطن من كنانة — أحد السابقين الأولين من المؤمنين . أسلم والاسلام فى مستهل أمره والنبى غريب فى قومه فكان قوة صادعة وعضدا قويا . وحديث اسلامه حديث بديع وهو فيما رواه البخارى قال : لما بلغ أبا ذر مبعث النبى صلى الله عليه وآله وسلم

ذلك الإخاء الشامل هو الذى حمل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يزوّج ابنه عاصما — وهو أحب أبنائه اليه — من ابنة امرأة تبيع اللبن فى الطريق ، وهو لو شاء زَفَّ اليه أكرم وأعزَّ امرأة فى العالم . ولكنه آثر الخلق العظيم على البيت الكريم ، والمجد القديم . وتفصيل ذلك فيما رواه الميدانى أن عمر رضى الله عنه مرَّ بسوق الليل — وهى من أسواق المدينة — فرأى امرأة معها لبن تبيعه ، ومعها بنت لها شابة . وقد همت العجوز أن تَمْذِق لبنها — تخلطه بالماء — فجعلت الشابة تقول : يا أُمَّة لا تمذقيه ولا تغُشّيه . فوقف عليها عمر فقال : مَن هذه منك ؟ قالت : ابنتى . فأمر عاصما فتزوجها .

أقول : وقد أنجبت هذه المرأة — فيمن أنجبت — أورع الملوك وأعدلهم وأجلّهم عمر بن عبد العزيز ، فهى جدّته لأمه . رضى الله عنهم أجمعين (١) .

قال لأخيه : اركب الى هذا الوادى — يريد وادى مكة — فاعلم لى علم هذا الرجل الذى يزعم انه نبي يأتيه الخبر من السماء واسمع من قوله ثم ائتنى فانطلق الاخ حتى قدمه وسمع من قوله ثم رجع الى أبي ذر فقال رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ويقول كلاما ماهو بالشعر فقال ماشفيتنى مما أردت فتزود وحمل شنة له فيها ماء — والشنة القربة الخلقة — حتى قدم مكة فأتى المسجد فالتمس النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه وكره أن يسأل عنه فأدركه بعض الليل فرآه على بن أبى طالب فعرف انه غريب فلما رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شىء حتى أصبح ثم احتمل قربته وزاده الى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أمسى فعاد الى مضجعه فمر به على فقال أما آن للرجل أن يعلم منزله — وذلك أسلوب بديع للدعوة الى الضيافة — فأقامه فذهب معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شىء حتى كان يوم الثالث فعاد على على مثل ذلك ثم قال ألا تحدثني ما الذى أقدمك . قال ان أعطيتنى عهدا وميثاقا لترشدننى فعلت ففعل فأخبره فقال فانه حق وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا أصبحت فاتبعنى فانى ان رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأنى أريق الماء فان مضيت فاتبعنى حتى تدخل مدخلى فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ودخل معه فسمع من قوله وأسلم مكانه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ارجع الى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمرى قال والذى نفسي بيده لأصرخن بها — يريد كلمة التوحيد — بين ظهرانيهم — يريد قريشاً — فخرج حتى أتى المسجد — يريد الكعبة — فنادى بأعلى صوته أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول ثم قام القوم — من قريش — فضربوه حتى أضجعوه وأتى العباس فأكب عليه ثم قال : ويلكم ألستم تعلمون انه من غفار ؟ وان طريق تجاركم الى الشام عليهم ؟ فأنقذه منهم ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا اليه فأكب العباس عليه فأنقذه منهم ورجع الى قومه فأسلم أخوه وأسلمت أمه وتابعتهم غفار بعد ذلك . وكان رضى الله عنه من أحب الناس الى الله ورسوله وفيه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر . ومات رضى الله عنه بالربذة سنة احدى وثلاثين . الاصابة ج ٧ ص ٦٢ المطبعة الشرفية

(١) الميدانى ج ٢ ص ١٠٢ — ١٠٣ المطبعة الخيرية

٣ — بوائق الغيرة

الغيرة ضرب من ضروب الأَثَرة ، لا بد منه لحياطة الشرف ، وصيانة العرض وهى مثار الحمية والحفيظة فيمن لاحمية ولاحفيظة له . وانما تقبل — بل تجب — اذا خاف الرجل على شرفه أن ينثلم ، وعرضه أن يهان . فاما أن تقتاد الرجل فى كل آنة ، وتفزعه فى كل موطن ، فهى خَبْل ووسواس ، وأولى بها أن تدنى اليه الشر من حيث يتقيه .

ولقد مُنِىَ العرب فى جاهليتهم باتقاد الغيرة حتى جاوزوا بها طورها ، وحتى قادت فريقاً منهم الى قذف زوجته فى عرضها ، لهاجس اعتاده ، أوخلجة من الشك نقذت اليه . فرفعوا خصومتهم ، واحتكموا فى أعراضهم الى فريق الـكهان والـكواهن ، وهم بَشَر يقذفون الغيب برجم الظنون ، فيخطئون ويصيبون

وان من أشـد ضروب الوهم ، وأفدح أثقال الظلم ، أن ترى العربى يريد السفر ، فيعمد الى شجرة فيعقد بين غصنين منها ، فان عاد وكان الغصنان على حالهما ، زعم أنها لم تخنه ، وإلا فقد خانته . وذلك ما يسمونه بالرتيمة[١] . كأن عرض المرأة ، بل عرض الأسرة ، بل عرض الحى الذى نشأت المرأة بين ربوعه ، ودرجت بين مدارجـه مُرْتَهن بغصنين ، تعصف بهما الريح ، أو تعبث بهما الأيدى ، فتفرق بينهما .

أما أسباب تلك الغيرة الموبقة ، فقد قطعها الإسلام ، إلا أن تكون عن علم وبينة . فأما حكم الرِّيب ، واحتكام الشبهات فذلك ما ليس من الدين فى شىء

وقد فرض الله جل ذكره على من رمى امرأته فى عرضها أن يشهد أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين ، فيما قال وادعى . والخامسة أن لعنـة الله عليه

---

(١) لسان العرب ج ١٥ ص ١١٦ طبع بولاق

ان كان من الكاذبين . فان لم يصدع بتلك الشهادات الخمس ، فعقوبته عقوبة قاذف المحصنات يجلد ثمانين جلدة ، ولا تقبل له شهادة أبداً ، وهو عند الله من الفاسقين.

***

وهنالك حديثان حدّث بهما البخارى عن نبى الله صلى الله عليه وسلم يكشفان عن مواطن الغيرة حقها وباطلها ، وما ورد من حكم الله ورسوله فيها .

فالأول حديث المغيرة قال :

قال سعد بن عبادة : لو رأيت رجلاً مع امرأتى لضربته بالسيف غير مُصْفَح — أى غير مائل عرضاً — فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتعجبون من غيرة سعد ، والله لأنا أغير منه ، والله أغيرُ منى ، ومن أجل غَيْرَة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن[1] .

وأما الثانى فحديثه عن أبى هريره قال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه أعرابى فقال : يارسول الله ان امرأتى ولدت غلاماً أسود . فقال هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال : ما ألوانها ؟ قال : حُمْر . قال : أفيها أوْرَق ؟ قال : نعم . قال : فأنّى كان ذلك ؟ قال : أراه عِرْقٌ نزعه . قال : فلعل ابنك هذا نزعه العرق[2] .

---

(١) ارشاد السارى ج ٨ ص ١٢٢ — ١٢٣!
سعد بن عبادة : هو السيد البطل الكريم سعد بن عبادة بن دليم الانصارى سيد الخزرج وأحد النقباء الذين قال لهم رسول الله فى بيعة العقبة أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومى . فقالوا : نعم . وكان سعد من أندى الرجال يداً وأعرفهم بالرمى والسباحة ولذلك كانوا يسمونه الكامل . وكان مناديه ينادى كل يوم : من أراد شحماً ولحماً فليأت سعداً . وكانت مائدته تدور مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بيوت أزواجه . وكان يضيف كل ليلة ثمانين من أهل الصفة — المنقطعين للعبادة — ومن دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة . ومات رضى الله عنه بحوران سنة خمس عشرة

(٢) ارشاد السارى ج ١٠ ص ٣٨ طبع بولاق
واسم ذلك الاعرابى ضمضم بن قتادة . والبعير الاورق الذى جمع بين السواد والبياض وقول الاعرابى « أراه عرق نزعه » أى أن أصلا من أصول نسبه جذبه اليه . قال صاحب الاصابه — ج ٣ ص ٢٧٤ — وقد قدم بعد ذلك عجائز من عجل — قبيلة المرأة — فشهدن بأن كان للمرأة جدة سوداء

فانظر كيف شرع النبي صلى الله عليه وسلم شرعة الغيرة وَضّاحة صافية لا مجال فيها لنزعات الوهم، وعثرات الوساوس، وكيف اتّقاها ، ووَقَى الناس شرها من التباس الشك ، واحتكام الظنون .

أن فى دفع النبي صلى الله عليه وسلم شر التهمة عن امرأة الأعرابي لدليلاً لا يقبل الشك على براءتها ، وطهارة عرضها . فما كان الرجل فاعلاً لو كان فى عهد جاهليته ولم يهتد بِقَبَس من نور النبوة ؟ ليس بين يديه إلا أن يفتك بها ويروى غليل نفسه بنقيع دمها ، أو أن يتامس العرّافين والمنَجّمين ليُلقوا إليه بالكلمة الحمقاء فيكون لها ما بعدها . وليس وراء الحالتين إلا عار الدهر، وذلّ الأبد .

لذلك تحامى المسلمون مواطن الظُّنَن ، ومداحض التهم ، حتى عدُّوا الاعتساف فى الغيرة سِمَة من الحمق ، لا يستحقُّ صاحبها أن يُسَوَّد أو يطاع . ومن ذلك ما قال معاوية بن أبي سفيان : ثلاث من السؤدد ، الصلع ، واندحاق البطن ، وترك الافراط فى الغيرة[1] .

وقد ظهر فى المسلمين كثيرون ذمُّوا التورُّط فى الغيرة ، وتوكيل الريب والظنون بالمرأة . ومما سار من القول فى ذلك، وحفل بوضح الرأى فيه، قول مسكين الدارِمي[2] :

وانى امرؤ لا آلَفُ البيت قاعداً إلى جنب عِرسى لا أفرطها شبرا
ولا مقسم لا أبرح الدهر بيتها لأجعله قبل الممات لها قبرا

---

(١) عيون الاخبار ج ١ ص ٣٦١ طبع كوتنكن واندحاق البطن اتساعها

(٢) أمالى المرتضى ج ٢ ص ١٢٣ — ١٢٥

مسكين الدارمى : هو ربيعة بن عامر. ومسكين لقب غلب عليه كان يصف نفسه به فى مواطن وفى سبيله يقول

ان أدع مسكينا فلست بمنكر وهل ينكرن الشمس ذر شعاعها
لعمرك ما الاسماء الا علامة منار ومن خير المنار ارتفاعها

ومسكين فى الشرف الصميم من تميم . وكان صبيح الوجه فصيح اللسان ندى الكف عف السريرة . لذلك لم يأخذ فيما أخذ فيه شعراء عصره كجرير والفرزدق والاخطل من الهجاء وهو فى شعره فخور حكيم وهو الذى يقول

أخاك أخاك ان من لا أخا له كساع الى الهيجا بغير سلاح
وان ابن عم المرء فاعلم جناحه وهل ينهض البازى بغير جناح

اذا هى لم تُحْصِن أمام قِبابها ... فليس بمنجيها بنائى لها قصرا
ولا حاملى ظنى ولا قيلُ قائل ... على حائط حتى أحيط بها خبرا
فهبنى امرؤ راعيت ما دمت شاهداً ... فكيف اذا ما سرت من بيتها شهرا

وقوله :

ألا أيها الغائر المستشيط ... علام تغار اذا لم تُغَر
فما خير عرس اذا خفتها ... وما خير بيت اذا لم يُزَر
تغار على الناس أن ينظروا ... وهل يفتن الصالحات النظر
فانى سأخلى لها بيتها ... فتحفظ لى نفسها أو تذر
اذا الله لم يعطه ودها ... فلن يعطى الود سوط مُمَرّ
ومن ذا يراعى له عرسه ... اذا ضمه والمطى السفر

وقوله :

ما أحسن الغيرة فى حينها ... وأقبح الغيرة فى غير حين
من لم يزل متهماً عرسه ... مناصباً فيها بوهم الظنون
يوشك أن يغريها بالذى ... يخاف أو ينصبها للعيون
حسبك من تحصينها ضمها ... منك الى خلق كريم ودين
لا تظهرَن منك على عورة ... فيتبع المقرون حبل القرين

ولعمرك ما كان مسكين فى شىء من سُقُوط الهمة ، وفتور العزيمة ، ولؤم الحسب ، حتى يقال ضعف أن يملك امرأته فقال ما قال ، فاللهم لا . فانه هو السيد البطل ، الحكيم الكريم . وحسبك منه قوله :

اذا قصرت أيدى الرجال عن العلا ... مددت لها باعاً عليا فنلتها
ومكرمة كانت رعاية والدى ... فعلمنيهـــا والدى فنقلتها
وانى سألقى الله لم أرم حرة ... ولم تأتمنى يوم سر نخنتها
ولا قاذف نفسى ونفسى بريئة ... وكيف اعتذارى بعد ما قد قذفتها

بل حسبك منه قوله :

نارى ونار الجار واحدة ... واليه قبلى تنزل القـــدر
ما ضر جارى إذ أجاوره ... ألا يكون لبيته ستر
أعمى اذا ما جارتى خرجت ... حتى يوارى جارتى الخدر
ويصم عما كان بينهما ... سمعى وما بى غـيره وقر

٤ — السباء

كانت الحرب تعصف بالعرب ما شاءت أن تعصف ، ثم تنكشف عنهم وهم بين قاهر محتكم ، ومقهور ذليل . ثم لا تسكن نأمتها ، ولا يخفت هديرها حتى يستبيح القاهر حمى المقهور ، ويستاق نساءه حواسر الرؤوس ، بين ذل الغربة ، وعار السباء ، وهو بعد ذلك إما مجمل يعتقهن فيتزوجهن ، وإما بغيض منتقم يتخذ منهن رعاة الإبل ، وجوارى الخسف ، ما شاءت له ثائرة نفسه ، وسموم حقده ، و بين هذا وذاك يحال بينهن و بين ذويهن فلا يلقون بعدهن إلا الهوان .

وأى نكبة تمرُّ بالمرأة أشد عليها من أن تكون ناعمة فى دارها ، آمنة فى سربها ، مبتهجة بين لداتها وعشيرتها ثم تمسى وقد سلَّها القاهر المستبيح من ذلك كله ، وقادها إلى امرأته سَبية أسيرة ، تطلب رحمتها ، وتسأل انصافها .

كان ذلك أشد مواطن الرّوع والفزع فى حياة المرأة العر بية . فلما دخل العرب

فى دين الله أفواجا ، وأصبحوا بنعمته اخوانا ، حرم عليهم السباء . فلا يحل للمسلم أن يسبى المسلمة ، مهما عصفت بالقوم عواصف الفتن ، وفرّقتهم شُعَب الأهواء .

ولما سار خالد بن الوليد إلى حرب المرتدين فى عهد أبى بكر رضى الله عنه غدا على مالك بن نويرة وكان قد منع الزكاة وجحدها بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم — وكان أبو بكر قد أمره اذا سمع صوت المؤذن فى قوم أن يكف عن قتالهم — فأذن مؤذن مالك ، وخشى خالد خدعة الحرب ، فقاتل مالكا وقتله ، وانتزع زوجه ، واتخذها زوجاً له ، فأثار ذلك حفيظة عمر بن الخطاب ، وهاج غضبه ، وقال لأبى بكر : اقتل خالداً ، فقد قتل مسلماً ، وزنى بمسلمة ، فقال أبو بكر : أن خالداً تأول فأخطأ ولا أشيم سيفاً سله الله على الكافرين فلولا ثقة أبى بكر بايمان خالد ، وايمانه بصفاء دينه ، وقوة يقينه ، وان رسول الله قال فيه : أنه سيف من سيوف الله . لولا ذلك كله لما حمل عمله على خطأ الاجتهاد ولما جاوز فيه رأى صاحبه[1] .

*
* *

ولقد ذاع الاسلام وبين أيدى العرب جوار من سباء الجاهلية ، فأولئك أقرهم الله سبحانه وتعالى عليهن بمثل قوله : « وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ[2] » .

على أنه جل ذكره حبب إليهم تحرير الرقاب ، ورغبهم ترغيباً شديداً فى افتكاكها ، ورفع رقها ، بطرق ثلاث :

الأولى — أنه جعل ذلك أسمى ما يتقرب به الانسان إليه ، شكراً له على جليل

---

(١) كان مالك بن نويرة من أشرف تميم حسبا وأصدقهم لقاء ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولاه هو وأربعة من هامات القوم امرة تميم . فلما قبض عليه الصلاة والسلام ، ارتدت تميم فيمن ارتد من العرب ، فرماهم أبو بكر بخالد بن الوليد وأوصاه ألا يقاتل قوماً حتى يدعوهم الى الاسلام ، فان أجابوه فلا سبيل له عليهم ، وآية طاعتهم أن يؤذن مؤذنهم ، فلما قصد خالد مالكا وجده قد انبث هو وجنده فى شعاب الصحراء ومسايل الماء ، فأحاط بهم وأتى بمالك فأمر ضرار بن الأزور فقتله صبرا بين يديه . وشهد قوم عند ابى بكر انهم سمعوا أذان مالك وانه أقر بالاسلام بين يدى خالد

(٢) سورة النساء

نعمه، وجزيل احسانه، فذلك حيث يقول جل ذكره: « أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ[١] ».

الثانية — أنه تباركت آلاؤه، اختص تحرير الرقاب بسهم من ثمانية أسهم من الزكاة. أعنى أن الإمام اذا اجتمعت له أموال الزكاة أفرد منها جزءًا لفكّ الرقّ عن الأرقاء، فذلك حيث يقول سبحانه: « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ».

الثالثة — أنه جعل تحرير الرقاب فى مقدمة كفارات كثيرة، عن جرائم تجترم. فقال فى كفارة الظِّهار[٢]: « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا

---

(١) سورة البلد. والمراد بالنجدين طريق الخير والشر، أو الثديان. والأصل فى النجد المرتفع من الارض. والمسغبة الجوع. والمقربة القرابة. والمتربة الفقر

(٢) كان من سنن العرب اذا غضب الرجل على امرأته أو مل عشرتها قال لها: أنت على كظهر أمى. فتحرم عليه، ثم ربما عاودها بعد ذلك. وذلك ما يدعونه « الظهار ». فهو عند العرب ضرب من الفرقة دون الطلاق، وربما استمر فكان طلاقا. فأما الاسلام فقد كشف القرآن الحكيم عن حكمه فيه فى مستهل سورة المجادلة وذلك قوله جلت آيته « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ان امهاتهم الا اللائى ولدنهم وانهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وان الله لعفو غفور والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » ... الى آخر الآيات البينات، وقد نزلت فى خويلة بنت ثعلبة، وهى التى جادلت رسول الله. وحديث ذلك: أن أوس بن الصامت الانصارى غاضب امرأته خويلد — وكان رجلا ملولا ضيق الصدر — فقال لها: أنت على كظهر أمى. ثم أخذه الندم وقال: ما أظنك الا قد حرمت على! فقالت: لا تقل ذلك فوالله ما أحب الله طلاقا، ثم قالت: ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسله. فقال: انى أجدنى أستحى منه أن أسأله عن هذا. فقالت: فدعنى أن أسأله. فقال لها: سليه. فجاءت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا نبي الله، أن أوس بن الصامت أبو ولدى، وأحب الناس الى، قد قال كلمة والذى أنزل عليك الكتاب ما ذكر طلاقا، قال أنت على كظهر أمى. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: ما أراك الا قد حرمت عليه. قالت: لا تقل ذلك يا نبى الله، والله ما ذكر طلاقا. فرادت النبى صلى الله عليه وسلم مراراً. ثم قالت: اللهم انى أشكو اليك شدة حالى، ووحدتى، وما يشق على من فراقه. فلم ترم — تبرح — مكانها حتى أنزل الله « قد سمع » ...

قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِن قَبلِ أَن يَتَمَاسَّا » .

وقال فى كفارة اليمين : لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُم وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِن أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ[١] » .

كذلك أوسع رسول الله صلى الله عليه وسلم القول فى فضل تحرير الرقاب وانه خير ما يقرب العبد إلى الله ويفيض نعمته عليه . ومن قوله صلى الله عليه وسلم فى ذلك : أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها فله أجران[٢] . وقال عليه الصلاة والسلام : أيما رجل أعتق امرأ مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار[٣] .

على ذلك تتابع المسلمون وهم يتخلعون عما ملكت أيديهم بعضه أو جميعه تقرباً إلى الله ، وشكراً له ، ومجلبة لرحمته ، واستدفاعاً لسخطه . ومنهم من كان يطوف على غلاظ الأكباد من السراة يشترى منهم عبيدهم وإماءهم ليحررهم ويرفع رقهم فى سبيل الله . ومن هؤلاء أبو بكر الصديق رضى الله عنه . ومنهم من خرج عن عبيده وإمائه جميعاً ، مؤثراً إطاعة الله ورضاه ، على نعيم دنياه .

وائن سارع رجال المسلمين إلى تحرير الرقاب ، لقد كان نساؤهم أطول بذلك يداً ، وأسخى نفساً ، وأروح قلباً . فما جَدَّت نعمة ، أو تكشفت حادثة أو عارضهن ريب الأمر ، أو نزعن إلى رحمة من الله ، إلا وعتق الرقاب بادرة خواطرهن ، وسابقة إيمانهن . فقد تحللت عائشة أم المؤمنين من يمين أقسمتها بعشر من الجوارى أعتقتهن .

---

(١) سورة المائدة . ولغو اليمين ما يبدر من المرء بلا قصد ، كقول الرجل لا والله ، أو بلى والله . وتعقيد اليمين توثيقه بالقصد والنية

(٢) القسطلانى ج ١ ص ٢٢٦ و ج ٤ ص ٣٦٢ طبع بولاق

(٣) القسطلانى ج ٤ ص ٢٣٨

وكانت أسماء بنت أبي بكر اذا أحست بدبيب المرض خرجت عن إمائها جميعاً[١]

وان من ابتغاء الشطط أن يأتى القلم على اجمال ما أطلق المسلمات من إمائهن تأنقاً فى الشكر، وتفريجاً للضر، وزلفى إلى الله.

كذلك كان تحرير الرقاب أسمى مظاهر البر، وأوضح مواطن الخير عند الموسرين من المسلمين. وكذلك أخذ الدين جماعة المؤمنين بالنزول عما ملكت أيديهم راضين مطمئنين. فان لم يكن عتق، فرحمة، وإخاء، ورعاية حق، وبذل معونة.

وما رأينا النبي الكريم تعاهد برحمته ووصاته جماعة من المسلمين بمثل ما تعاهد جماعة الغلمان والجوارى، حتى كان آخر ما أوصى به: «السلاة وما ملكت أيمانكم»[٢]

ولقد كان عليه الصلاة والسلام يجعل عتق الجارية فداء لها من لطمة تصيبها[٣] وهل تجد فى قديم الأمم وحديثها من منع عسف الرق، ورفع شأن الأرقاء مثل رسول الله محمد بن عبد الله فى قوله صلى الله عليه وسلم: اتقوا الله فى خولكم، فانهم أشقاؤكم، لم ينحتوا من جبل، ولم ينشروا من خشب. أطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، واستعينوا بهم فى أعمالكم، فان عجزوا فأعينوهم، فان كرهتموهم فبيعوهم، ولا تعذبوا خلق الله[٤]». وقوله عليه الصلاة والسلام: «اذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فان لم يجلسه معه فليطعمه اكلة أو أكلتين فانه ولى علاجه» وقوله صلى الله عليه وسلم: لا يقلْ أحدكم عبدى، أمتى، وليقل فتاى وفتاتى[٥].

وأى مولاة قوم أو مولى لهم يسمع قوله صلى الله عليه وسلم: للمملوك الصالح

---

(١) كتاب الطبقات الكبير لابن سعد ج ٧ ص ١٢٣ طبع ليدن

(٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٣٤ مطبعة المويلحى (٣) تيسير الوصول ج ٣ ص ١٢

(٤) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٣٣ (٥) صحيح البخارى ج ٣ ص ١٥٠ المطبعة الخيرية

— اذا نصح سيده وأخلص عبادة ربه — أجران[١] ثم لا يخفق قلبه غِبطة وابتهاجاً بما سيضاعف له الله من أجر السراة الأحرار فى الآخرة[٢] ؟

٥ — توريث البنات

سُنَّة من سنن العرب أن النساء لا يؤول اليهن من ميراث الرجال شيء . وكانوا يقولون فى ذلك : لا يرثنا إلا من يحمل السيف ويحمى البيضة . فاذا مات الرجل ورثه ابنه ، فان لم يكن فأقرب من وجد من أوليائه ، أباً كان أو أخاً أو عمًّا . على حين يضم بناته ونساءه الى بنات الوارث ونسائه . فيكون لهن ما لهن ، وعليهن ما عليهن . حتى جاء الاسلام فصَدَع ذلك الضرب من الظلم ، واختص النساء بنصيب مما ترك الرجال . فذلك قوله جل ذكره : « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً » .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبَرّ وأرحم بالبنت من أبيها . وأن فيما حَدَّث البخارى عن سعد بن أبي وقّاص لبلاغاً لقوم يعقلون[٣] .

(١) صحيح البخارى ج ٣ ص ١٥٠ — (٢) ومن أجل ذلك قال أبو هريره رضى الله عنه — وهو راوى الحديث السالف — أما والله لولا الحج والجهاد وبر أمى لتمنيت أن أموت وأنا عبد مملوك — وقد روى هذا القول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) سعد بن أبي وقاص : هو البطل الكريم والفاتح العظيم سعد بن مالك بن أهيب خال رسول الله وأحد العشرة المبشرين بالجنة من أصحابه

صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزواته جميعاً ووقف ينزع بالسهم من دونه فى أحد . وهو أول رجل رمى بسهم فى سبيل الله

وبعد موت رسول الله سيره عمر الى القادسية فثل عرش الفرس فى أعظم وقائع الاسلام وافتتح على أثرها المدائن واختط بعد ذلك مدينة الكوفة

وكانت وفاته رضى الله عنه فى خلافة معاوية سنة ٥٥

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشير اليه ويقول هذا خالى فليرنى امرؤ خاله

قال سعد : مرضت بمكة مرضاً أشفيت منه على الموت ، فأتانى النبى صلى الله عليه وسلم يعودنى . فقلت : يا رسول الله ، ان لى مالاً كثيراً ، وليس يرثنى إلا ابنتى أفأتصدَّق بثلثى مالى ؟ قال : لا . قلت : فالشطر ؟ قال : لا . قلت : الثلث ؟ قال : الثلث كبير . إنك ان تركت ولدك أغنياء ، خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس . وانك لن تنفق نفقة إلا أُجرت عليها ، حتى اللقمة ترفعها إلى فِى امرأَتك(١)

فأية امرأة تلك التى كانت إذا مات أبوها تنتقل إلى بيت عمها ، وقد صفرت يدها مما كانت تتمتع به من عز ومال ، ثم تصبح فتجد من صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم تلك الرعاية العالية ، وتستظل من قوله بتلك الظُّلة السابغة ؟

ذلك مجمل ما اهتضمته العرب فى عهد جاهليتهم من حقوق المرأة ، على وفر نُبلها ، وسماحة فضلها يومذاك . أسبغه الإسلام عليها ، فأزال شكاتها ، وأنصف مظامتها .

وإلى هذه الحقوق حقوق كانت لها ، فزادها الإسلام تأييداً وتعزيزاً ، ونفث فيها من روحه فأصبحت ديناً راسخاً ، وحكماً نافذاً ، ويقيناً مكيناً . وتلك التى نبدأ فنلم بها .

(١) القسطلانى ج ٤ ص ٤٧٢

حقوق المرأة في الإسلام

١ — هي والرجل

المرأة بين يدى الإسلام قسيمة الرجل ، لها من الحق ما له ، وعليها ما عليه ولا فضل إلا أن يقوم الرجل بما له من قوة الجَلَد ، وبسطة اليد ، واتساع الحيلة ، فيلي رياستها . فهو بذلك وليها ، يحوطها بقوته ، ويذود عنها بدمه ، وينفق عليها من كسب يده . فأما فيما سوى ذلك ، فهما فى السراء والبأساء على سواء .

ذلك ما أجمله الله ، وضم أطرافه ، وجمع حواشيه ، بقوله تباركت آيته : « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » .

تلك هى درجة الرعاية والحياطة لا يتجاوزها إلى قهر النفس ، وجحود الحق .

وفى سبيل تلك التسوية الشاملة ، جعل الله الخبيثات أكفاء الخبيثين ، والطيبات أكفاء الطيبين . فإذا تم للناس أن يكونوا كذلك فلا نزاع بين زوجين . لأن شر الخبيثين يدفع بعضه بعضاً ، ويطمس بعضه آثار بعض ، فيكون كل على حَذَر من صاحبه .

فإنى رأيت الشر للشر ماحيـــا ۞ كما خطّ فى القرطاس سطر على سطر

أما الطيبان فأين للشر أن يدب بينهما ، أو يجد السبيل اليهما ؟

وكما قرن الله سبحانه بينهما فى شؤون الحياة ، كذلك قرن بينهما فى حسن المثوبة ، وادّخار الأجر ، وارتقاء الدرجات العلى فى الآخرة .

فاذا احتمل الرجل نار الهجير ، واصطلى جمرة الحرب ، وتناثرت أوصاله تحت

ظلال السيوف ، فليس ذلك بزائده مثقال حبة عن المرأة اذا وفت لبيتها وأخلصت لزوجها ، وأحسنت القيام على بنيها . وفى حديث مسلم عن أسماء بنت يزيد الأنصارية ما ينبئك أن بعض ما قلنا يعدل عمل الرجل كله . قال[١] :

ان أسماء أتت النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقالت : بأبي وأمي أنت يارسول الله . أنا وافدة النساء اليك . ان الله عز وجل بعثك الى الرجال والنساء كافة ، فآمنّا بك وبالٰهك . إنا معشر النساء محصورات مقصورات ، قواعد بيوتكم ، وحاملات أولادكم ، وانكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجُمَع والجماعات ، وعيادة المرضى ، وشهود الجنائز ، والحج بعد الحج . وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله عز وجل . وان أحدكم اذا خرج حاجا ، أو معتمراً ، أو مجاهداً ، حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم ، أفَنُشَارككم فى هذا الأجر والخير ؟ فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم الى أصحابه بوجهه كله ثم قال : هل سمعتم مسئلة امرأة قط أحسن من مسئلتها فى أمر دينها من هذه ؟ فقالوا : يارسول الله ما ظننا أن امرأة تهتدى الى مثل هذا ! . فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم اليهافقال : افهمى أيتها المرأة وأعْلِمِى مَنْ خلفَك من النساء ، ان حسن تبعل المرأة لزوجها ، وطلبها مرضاته ، واتباعها موافقته ، يعدل ذلك كله .

فانصرفت المرأة وهى تُهَلِّل ، حتى وصلت الى نساء قومها من العرب ، وعرضت عليهن ما قاله لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرحن وآمنّ جميعهن[٢]

---

(١) أسماء بنت يزيد : هى أم سلمة أسماء بنت يزيد بن السكن الانصارية خطيبة نساء العرب ورسولهن الى رسول الله . بايعت النبي عليه الصلاة والسلام عند مقدمه الى المدينة وتلقت عنه كثيراً من العلم وتخرج عليها كثير من التابعين . وكانت رضى الله عنها من أبين الناس بيانا وأجرئهم فى موطن الحق حتى دعيت خطيبة النساء . عمرت بعد رسول الله دهراً طويلا . وحضرت موقعة اليرموك تسق الظماء وتداوى الجرحى فلما جد جد المسلمين أخذت عمود خيمتها وانغمرت فى الصفوف فصرعت به تسعة من الروم

النووى والاصابة وابن سعد

(٢) صحيح مسلم

وقد عزَّ على النساء أن يكون وقت النبى صلى الله عليه وسلم للرجال دونهن فسألنه أن يختصهن بيوم من كل أسبوع . فأجابهن صلى الله عليه وسلم الى ما طلبن . فاذا كان يومهن غدون على رسول الله ، فجلسن اليه ، فأقبل عليهن ، يجيب السائلة ، ويهدى الحائرة ، ويأخذ بأيديهن جميعاً الى النهج القويم ، والصراط المستقيم[١] .

وكان صلى الله عليه وسلم فى مجلسه هذا على أتمّ ما يكون من الرحمة والرفق فلا يشق عليهن ، ولا يكلفهن فوق ما تحتمل نفوسهن .

أخذ عليهن عند مبايعته لهن ذات مرة ألا يَنُحْنَ على الموتى . فقالت عجوز ممن حضرن : يارسول الله إن ناساً أسعدونى على مصيبة أصابتنى ، وانهم أصابتهم مصيبة ، فأنا أريد أسعدهم . قال : انطلقى فاسعديهم . فذهبت ثم عادت فبايعته[٢] .

واستأذن عليه عمر بن الخطاب وهن بين يديه . فابتدرن الحجاب . فلما دخل عمر تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : بأبى وأُمى أنت يا رسول الله ما يضحكك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رآك النساء فتبادرن الحجاب . فالتفت عمر إليهن فقال : يا عدوات أنفسهن تَهَبْنَنِى ولا تهبن رسول الله ؟ قلن : أنت أفظ وأغلظ من رسول الله[٣] .

ومن أبدع مظاهر رفق الله ورسوله بالنساء ، أنه صلى الله عليه وسلم وقف بينهن وقد جئن يبايعنه على أن يأتمرن بأوامر الله ويجتنبن نواهيه . فقال عليه الصلاة والسلام : فيما استطعتن وأطقتن . فقلن : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا[٤] .

أما حياته صلى الله عليه وسلم فى بيته بين نسائه فقد كانت المثل الأعلى فى الموادة ، والموادعة ، والمواتاة ، وترك الكلفة ، وبذل المعونة ، واجتناب هُجر الكلام ومره . وهو الذى يقول : خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى .

---

(١) القسطلانى ج ١ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ (٢) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ٢ — ٧
(٣) القسطلانى ج ٥ - ٥ (٤) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ٤ — ٦

وسئلت عائشة ما كان عمل النبي على الله عليه وسلم فى بيته ؟ فقالت : كان فى مهنة أهله حتى يخرج الى الصلاة . تريد بذلك أنه يعاونهن ويعمل معهن .

وكان من التبسط ورفع الكلفة الى حد أن يستبق هو وامرأته . كما حدثوا عن عائشة رضى الله عنها .

وكانت فاطمة بنت رسول الله تتولى الطحين والعجين بينما علىٌّ رضى الله عنه ينزع الماء ويحتمله ويهيئه .

وكما كان الرجل يجاذب المرأة أمرَ العمل ، وتدبير المنزل ، كذلك كانت تجاذبه شؤون العالم ، وجد الحياة .

ففى ساحات الوغى ، وبين مشتجر القنا ، وتحت ظلال السيوف ، كانت المرأة تسير مع الرجل جنباً لجنب ، تروى ظمأه ، وتأسو جرحه ، وتجبر كسره وترقأ دمه وتثير حميته ، وتهيج حفيظته . وربما غشيت حَر القتال ، واصطلت جمرة الحرب ، وصالت بين الصفوف ، وعرضت نحرها للحتوف ، وصدرها للسيوف . فكانت لها مواطن صادقات ، ومواقع صالحات ، سنخصها بشىء من القول فى موطن آخر ان شاء الله .

وقد طويت صحف السِّيَر والسُّنَن والتاريخ على كثير من فضليات النساء خرجن فى رفقة رسول الله إلى غزواته ليداوين المرضى ، ويأسون الجرحى ، ويسقين الماء ، ورحن بأجر المجاهدين فى سبيل الله . وإليك طائفة من أسمائهن وأعمالهن :

(١) فمنهنَّ أُمَيَّة بنت قيس[1] الغِفَارية قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسوة من بنى غفار ، فقلنا : يا رسول الله قد أردنا أن نخرج معك الى وجهك

(١) أميه بنت قيس : فتاه خامر الاسلام قلبها وهى لم تعد بعد طور الحداثة . قدمت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تبايعه — على بعد الشقة — ولها أربعة عشر عاما ، وخرجت على زعامة الآسيات — الطبيبات — من قومها الى خيبر ولم تبلغ السابعة عشرة . وأردفها رسول الله خلفه فى مسيره . وقد أحسنت أمية القيام بما تقدمت به . وقلدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الموقعة قلادة لم تغادر صدرها حتى ماتت . وأوصت حين موتها أن تدفن معها

هذا — وهو يسير الى خيبر — فنداوى الجرحى ، ونعينُ المسلمين بما استطعنا . فقال : على بركة الله .

(٢) أم سنان الأسلمية : جاءت الى رسول الله وهو خارج الى خيبر فقالت : يارسول الله أخرج معك فى وجهك هذا ، أخرز السِّقاء ، وأداوى المريض والجريح ان كانت جراح — ولا تكون — وأبصر الرَّحْل . فقال رسول الله : اخرجى على بركة الله ، فان لك صواحب قد كلمننى وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم ، فان شئت فمع قومك ، وان شئت فمعنا . قلت : معك . قال : فكونى مع أم سلمة زوجتى . قالت : فكنت معها [1] .

(٣) حَمْنَة بنت جحش : أخت أمّ المؤمنين زينب . حضرت أُحُداً . وكانت تروى الظِّماء ، وتأسو الجراح [2] .

(٤) أم أيمن : مولاة رسول الله وحاضنته . حضرت أُحُداً . وكانت تسقى العطشى ، وتداوى الجرحى .

(٥) كُعَيْبَة بنت سعد الأسلمية : كانت تقام لها خيمة فى المسجد ، تداوى فيها المرضى ، وتأسو الجرحى . وكان سعد بن معاذ حين رُمى يوم الخندق عندها تداوى جراحه ، حتى مات رضى الله عنه [3]

---

(١) أم سنان الاسلمية : امرأة من غمار أسلم — وأسلم بطن من خزاعة — قدمت من باديتها الى المدينة حين مقدم رسول الله اليها فبايعته . ورافقت رسول الله الى خيبر وهى التى مشطت صفية بنت حيي أم المؤمنين وأعدتها لتزف على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهى من اللواتى روين عن رسول الله كثيراً من العلم وابنتها بثينة احدى الثقات الفضليات من راويات الحديث

(٢) حمنة بنت جحش : هى ابنة عمة رسول الله وأخت زوجه أم المؤمنين زينب رضى الله عنهما . وأمهما أميمة بنت عبد المطلب . حضرت مع رسول الله أحدا فكان موقفها مما تزل دونه أقدام الرجال فقد كانت تغشى الموقعة فتحمل الجريح وتعود به حيث تأسو جراحه . وأصيبت فى هذه الموقعة بزوجها مصعب ابن عمير ومن بعده تزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت له السيد التقى العالم المظيم محمد بن طلحة المعروف بالسجاد

(٣) كعيبة بنت سعد : هى احدى النجيبات المعدودات من طبيبات العرب . لم يكن عملها الشريف وقفا على مواقف الحروب بل كانت تداوى من ألم به المرض فى كل آن . وقد أعطاها رسول الله فى خيبر سهم الرجل المجاهد رضوان الله عليها

(٦) الرُّبَيِّع بنت معوذ . قالت : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونسق القوم ونخدمهم ، ونداوى الجرحى ، ونرد القتلى والجرحى الى المدينة [١] .

وأشباه أولئك ونظائرهن كثير .

كذلك كان أمرها فيما سوى الحرب من العظائم . فقلما رأينا عظيما من عظماء المسلمين لم يصدر فى كثير من المواطن عن رأى امرأة .

فكثيراً ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدر عن رأى زوجه خديجة رضى الله عنها . وكثل ذلك صدور عبد الله ابن الزبير عن رأى أمه أسماء ، وصدور الوليد بن عبد الملك عن رأى زوجه أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، وصدور السفاح عن رأى زوجه أمّ سَلَمة ، وصدور الرشيد عن رأى زوجه زبيدة ، وأمثال هؤلاء فى الاسلام جمّ كثير .

*
* *

وإنا لذاكرون فى هذا الموطن موقف الحجاج من أم البنين حين أشار على الوليد ابن عبد الملك بالامتناع عن مجاذبة النساء سياسة الملك وتدبير الحروب .

قال ابن عبد ربه :

قدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك وعليه درع وعمامة سوداء ، وقوس عربية ، وكنانة . فبعثت اليه أم البنين : من هذا الأعرابى المستلئم فى السلاح عندك وأنت فى غِلالة ؟ فبعث اليها : هذا الحجاج بن يوسف . فأعادت الرسول اليه تقول : والله لَأن يخلو بك ملك الموت أحب إلىَّ من أن يخلو بك الحجاج . فأخبره

---

(١) القسطلانى ح ٥ ص ٩٠ والاصابة ج ٨ ص ٨

الربيع بنت معوذ : هى احدى السابقات الى الاسلام . بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الشجرة — شجرة الرضوان — فوجبت لها كلمة الله جلت كلمته « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » وقد صحبت النبى صلى الله عليه وسلم فى غزواته . وكان عليه الصلاة والسلام كثيراً ما يغشى بيتها فيتوضأ ويصلى ويطعم عندها . ولما تزوجت حضر رسول الله زواجها وجلس على مقربة منها وسمع الغناء فى بيتها . وعاشت رضى الله عنها حتى عهد معاوية

الوليد بذلك وهو يمازحه . فقال : يا أمير المؤمنين دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فانما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة [١] . فلا تطلعها على سرك ، ومكايدة عدوك . فلما دخل الوليد عليها أخبرها بمقالة الحجاج . فقالت : حاجتى أن تأمره غداً يأتيني مسلّماً . ففعل ذلك . فأتاها الحجاج ، فحجبته ، فلم يزل قائماً . ثم قالت له : إيه يا حجاج ! أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتلك عبد الله بن الزبير وابن الأشعث [٢] ؟ أما والله لولا أن الله علم أنك من شرار خلقه ، ما ابتلاك برمى الكعبة ، وقتل بن ذات النطاقين ، أول مولود فى الأسلام ، وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء ، وبلوغ أوطاره منهن ، فان كنّ ينفرجن عن مثلك ، فما أحقه بالأخذ عنك وان كنّ ينفرجن عن مثله ، فغير قابل لقولك . أماَ والله لقد نَفَضَ كساء أمير المؤمنين الطيب عن غدائرهن . بعثك فى أعطية أهل الشام حتى كنت فى أضيق من القَرْق ، قد أظلّتك رماحهم ، وأثخنتك صفاحهم ، وحتى كان أمير المؤمنين أحب اليهم من آبائهم وأبنائهم . فما نجاك الله من عدو أمير المؤمنين إلا بحبهم إياه .

ولله درّ القائل إذا نظر اليك ، وسنان غزالة بين كتفيك :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر

---

(١) القهرمان المسيطر الحفيظ على من تحت يديه

(٢) سنفرد لابن الزبير فصلاً خاصاً نسوقه فيما بعد . أما ابن الأشعث فهو عبد الرحمن ابن محمد بن الاشعث . وكان قائداً معدوداً من قواد عبد الملك بن مروان وكان تحت امرة الحجاج بالعراق . انفذه الحجاج الى قتال رتبيل ملك الترك فلم يمعن فى الغزو كثيراً فأرسل اليه الحجاج يستحثه ويعنفه فأثار ابن الاشعث الجند على الحجاج وخرج عليه وانحدر اليه وأمعن فى قتاله وانضم اليه أشراف العراق وقراؤه ثم خرج على عبد الملك ابن مروان وهزم جند الحجاج فى مواطن كثيرة حتى كانت موقعة (دير الجماجم) وكان نجمه صاعدا فى أولها ثم غلب على أمره ففر الى ملك الترك وفزع اليه فأقطعه بلدا من بلاده وهنالك أنفذ الحجاج عمارة بن تميم اللخمى فما زال برتبيل بالوعود تارة وبالوعيد أخرى حتى رضى بتسليم عبد الرحمن ويقولون ان عبد الرحمن رمى بنفسه من قمة الحصن فسقط قتيلاً ويقولون ان رتبيل هو الذى قتله وبعث برأسه الى الحجاج فأرسل به الى عبد الملك

هلّا برزت الى غزالة فى الوغى | بل كان قلبك فى جناحَىْ طائر
صدعت غزالة جمعه بعساكر | تركت كتائبه كأمس الدابر

ثم قالت : اخرج . فخرج مذموماً مدحورا ! . . .

على أن للمرأة حالتين أَبَرّتْ فيهما — بحكم الاسلام وشهادته — على الرجل وهاتان هما حالتا الأمومة والزوجية ، وهما أمثل حالات المرأة ، وأظهرها لكرم خلالها ، وجلال سجاياها ، وأنهضها ببناء الكون ، وأتمها لنعمة الله على الانسان .

فأما أولى الحالتين ، فشاهدها ما حدث البخارى عن أبى هريرة قال :

جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله من أحق بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك [1] .

فانظر كيف أن صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم آثرها بتقديم القول ، ثم لم يكفه ذلك فى بيان مالها من فضل السبق ، وشرف المنزلة ، فاختصها من قلب ولدها بثلاثة أضعاف نصيب أبيه منه .

وأما الثانية فشاهدها ما ذكره ابن سعد فى حديث حَمْنة بنت جحش قال :

قام النساء حين رجع رسول الله من أُحُد يسألن الناس عن أهلهن فلم يُخْبَرْنَ حتى أتين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا تسأله واحدة إلا أخبرها . فجاءته حَمْنة بنت جحش . فقال : ياحمنة ، احتسبى أخاك عبد الله بن جحش . قالت : إنا لله وإنا اليه راجعون ، رحمه الله وغفرله . ثم قال : ياحمنة احتسبى خالك حمزة بن عبد المطلب . قالت : إنا لله وإنا اليه راجعون ، رحمه الله وغفر له . ثم قال ياحمنة احتسبى زوجك مُصعب بن عمير . فقالت : ياحَرَباه فقال النبى صلى الله عليه

(١) صحيح البخارى ج ٨ ص ٢ طبع بولاق

وسلم : إن للمرأة لَشُعبة من الرجل ما هى له فى شىء[1] .

ولعمرك إن فى قول رسول الله لبلاغا لما أوثرت المرأة به وأبرّت فيه من فرط الحنو على زوجها ، وفضل الوفاء له بعد موته .

ذلك موقف الرجل والمرأة من الشريعة الاسلامية . وهو شهيد بأنهما قسيمان فى تدبير المنزل وشئون الحياة وعند الله و بين يدى رسول الله .

٢ — كرامتها

لئن قرن الاسلام بين الرجل والمرأة فى عامة المواطن لقد عرف لها نصيبها من رقة القلب ، ودقة الوجدان . وأنها مناط شرف الرجل ، وموطن عرضه ، فاختصها بنصيب من الحرمة والكرامة لم يظفر بمثله نظراؤها من الرجال

أن كرامة المرأة فى الاسـلام تتناول شخصها وسيرتها ، وتشمل مشهدها ومغيبها . فمن حقها أن تكون هى فى موطن الرعاية والعناية ، وأن يكون اسمها بمنجاة من لغو القول ، ومَنَال اللسان .

لقد كانت المرأة فى عهد الاسلام — كما كانت فى الجاهلية — تجير الخائف وتفك العانى ، وذلك كله الى تجلّة واحترام ، بلغت منهما غايتهما .

فقد أجارت أم هانىء بنت أبى طالب رجلين من أحمائها كتب عليهما القتل ، وذلك مجمل حديثها فى سبيل ذلك . قالت :

لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة فرّ الىّ رجلان من أحمائى من بنى مخزوم . فدخل علىّ علىُّ بن أبى طالب أخى فقال : والله لأقتلنهما . فأغلقت عليهما باب بيتى . ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : مرحباً وأهلاً

(١) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١٧٥

يا أم هانئ ، ما جاء بك ؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر عليّ . فقال : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ ، وأمّنّا مَن أمّنت فلا يقتلهما [١] .

وافتكّت زينب بنت رسول الله إسار زوجها في الجاهلية أبي العاص بن الربيع — وكان من أسرى بدر — فأطلق بغير فداء ورُدَّ عليه ماله . على أن صِلَتها به ، وزواجها منه ، قد فصلهما الاسلام قبل ذلك [٢].

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٨٢٠ والبخارى ج ٨ ص ٣٧

أم هانئ : هي ابنة عم رسول الله فاختة بنت أبي طالب بن عبد المطلب . وأمها فاطمة بنت أسد بن هاشم وهي احدى ذوات الرأى الجزل والأدب الجم من قريش . خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية وكان أبوها قد وعد بها هبيرة بن أبي وهب فظفر بها . وفي مستهل الاسلام أسلمت أم هانئ ففرق بينها وبين زوجها بحكم الاسلام — وكانت قد انكشفت منه عن أربعة بنين — فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله لأنت أحب الىّ من سمعي ومن بصرى وحق الزوج عظيم فأخشى ان أقبلت على زوجى أن أضيع بعض شأني وولدى وان أقبلت على ولدى أن أضيع حق زوجى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان خير نساء ركبن الابل نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه على بعل في ذات يده

وقد روى أصحاب الصحاح الستة جميعاً عن أم هانئ . وعاشت حتى جاوزت عهد أخيها عليّ عليه السلام

(٢) الاصابة ج ٨ ص ٩١ — ٩٢ المطبعة الشرفية

زينب بنت رسول الله هي كبرى بناته صلى الله عليه وسلم وأولى من تزوج منهن . ولدت قبل البعثة بعشر سنين وزوجت من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع فولدت له عليا — وقد مات في حياة جده صلوات الله عليه — وأمامة — وقد أسلفنا سيرتها — وكان أبو العاص يؤثر زينب بحبه وكرامته على ان الاسلام فرق بينهما فأسلمت هي وهاجرت وبقي هو بمكة كافراً وقال فيها :

ذكرت زينب لما ورّكت ارما ... فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما

بنت الامين جزاها الله صالحة ... وكل بعل سيثني بالذى علما

— ورّكت أى ثنت رجلها على ناقتها لتستريح وارم اسم ناقتها —

وبعد هجرة زينب خرج أبو العاص الى الشام في تجارة لقريش فعرض للقافلة زيد بن حارثة في سبعين ومائة راكب أرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم فشدوا على المال والرجال فلم يدعوا شيئاً الا غنموه ولا رجلاً الا أسروه واستاقوا ذلك كله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأما أبو العاص فاستجار بزينب فوعدته خيرا وانتظرت حتى صلى رسول الله الفجر بالمسلمين ثم وقفت على بابها — في المسجد — فنادت بأعلى صوتها انى قد أجرت أبا العاص بن الربيع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيها الناس هل سمعتم ما سمعت قالوا نعم قال فوالذى نفسي بيده ماعلمت بشيء مما كان حتى سمعت الذى سمعتم . المؤمنون يد على من سواهم يجير عليهم أدناهم وقد أجرنا من أجارت فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم الى منزله دخلت عليه زينب فسألته أن يرد على أبي العاص ما أخذ منه ففعل .

عاود أبو العاص بعد ذلك مكة فأدى الحقوق الى أهلها ثم آب الى المدينة مسلماً فرد عليه رسول الله زوجه . وتوفيت زينب سنة ثمان من الهجرة رضى الله عنها

وكانت فاطمة بنت رسول الله إذا أهلّت مُقبلة على أبيها قام لها عن مجلسه وأخذ يدها فقبّلها .

أما كرامة سيرتها ، وصيانة اسمها ، فذلك ما لا نحسب شريعة من الشرائع حاطتهما بمثل حياطة الإسلام لهما . وحسبك أن الله سبحانه وتعالى اشتدّ فى كتابه الكريم على قاذفى النساء فى أعراضهن بأشد مما اشتدّ على القَتَلة وقُطّاع الطريق . فقد قال الله سبحانه فى سورة النور : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » .

فجعل سبحانه للقاذف عقوبة ثمانين جلدة ، ثم دعم هذه العقوبة بأخرى أشد وأخزى، وهى اتهامه أبد الدهر فى ذمته ، واطّراح شهادته ، فلا تقبل له شهادة أبداً. ثم وَسَمه بعد ذلك بسِمَةٍ هى شر الثلاثة جميعاً ، وهى سِمَة الفسق ، ووصمة الفجور .

لم يكن كل ذلك عقاب أولئك الآثمة الجناة ، فقد عاود الله أمرهم بعد ذلك بما هو أشد وأهول من تمزيق ألسنتهم فقال :

« إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ » .

وان فى حديث الإفك ، وما أفاض الله فى شأنه ، لموعظة وذكرى لقوم يعقلون .

فان ناساً لم يبرأوا بعد من وضر الجاهلية نالوا من اسم عائشة أم المؤمنين بألسنتهم ، وأعقبهم جماعة المنافقين فذهبوا بالقول كل مذهب ، واحتجز بقية

المؤمنين أنفسهم عن الخوض حيث يخوض الناس . فأنزل الله فى سبيل ذلك تلك الآيات الكريمة ، تبرئة للمرأة الطاهرة . وفيها أهال سخطه ولعنته على المرجفين وأرسل لومه وتأنيبه لمن سواهم ممن سمعوا قولهم فلم يردوهم ، ولا برأوا الى الله منهم . قال جلت آياته :

« إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاؤُا بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ لَوْلَا جَاؤُا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِٱلشُّهَدَاءِ فَأُولٰئِكَ عِنْدَ ٱللهِ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ ٱللهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذَا سُبْحَانَكَ هٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ ٱللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ ٱللهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَٱللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ ٱللهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ » .

ذلك قول الله وحكمه فى طَغَمَة الأفاكين المرجفين ، الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بين الناس ، فلا يزالون يلهثون ، يتغنون بألسنتهم ما أكنته البيوت من أعراض الحرائر . فهل يسمع حفدتهم وورثتهم وهم قوم شَجِى بهم حلق هذا البلد ،

وضاق صدره ، وأظلم المُشرق من جوّه ؟ ! يَنْفُسُ الرجل منهم على الرجل علمَهُ ، أو ينقم منه رأيه ، أو يحقد عليه ظهور أمره ونباهة شأنه ، فلا يجد وسيلة للنيل منه ، إلا أن يَلغ فى عرضه ، ويعيث فى كرامة أهله . وربما أبصر الرجل منهم عرضه مصدوعا ، وشرفه مشدوها ، فلا سبيل له إلا أن يتخذ لسانه كشباة العقرب ، يصيب به يميناً وشمالاً ، عساه يدرأ عنه العيون المحدقة ويكف دونه غرب الألسنة المتوثبة . وسواء أحقت تلك الأراجيف أم أفـكَت ، فان ذيوعها فى أمة من الأمم مما يؤول الى سوء القدوة ، وضعف النخوة وإغضاء العين على القذى ، وتوطين النفس على المهانة ، أسوة بمن قيل فيهم ، وتَعِلة بمن سمع عنهم .

*
* *

﴿ وبعد ﴾ فقد درج المسلمونَ بعد أن سمعوا من آيات الله ما سمعوا على تنزيه المرأة ، وتكرمة اسمها ، وصيانة سيرتها ، واتهام أنفسهم دون اتهامها ، فقد مَرّ عمر بن الخطاب فى هدأة من الليـل ، بدار إحدى نساء المدينة ، فسمعها تتغنى بقولها :

هل من سبيل الى خمر فأشربها أم من سبيل الى نصر بن حجاج

فلم يعد — وهو أمضى المسلمين فى ذات الله — إلا الى نصر بن حجاج — وكان كأجمل الناس وجهاً — فنفاه الى البصرة حتى لا تتمناه امرأة غير هذه .

وكانت فى رجال قريش صرامة على نسائهم . ومنهم من كان يعمد اليهن بالأذى فأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فما ضرب فى حياته امرأة ولا خادماً . وهو الذى يقول : « اتقوا الله فى النساء » و « استوصوا بالنساء خيراً » . وكان كأغضب ما يكون إذا سمع بامرأة يضربها زوجها .

وقد حَدَّث ابن سعد فى طبقاته قال : جاءت امرأة الى النبى صلى الله عليه وسلم قد ضربها زوجها ضرباً شديداً . فقام رسول الله فأنكر ذلك وقال : يظل أحدكم يضرب امرأته ضرب العبد ، ثم يظل يعانقها ولا يستحى . وحَدَّث هو أيضاً فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن ضرب النساء . فقيل : يا رسول الله انهن قد فسدن فقال : اضربوهن ولا يَضْرِبْ إلا شرارُكم [1] . وتلك لعمرى أشد وأوكد من المنع . ومن ذا الذى يرضى أن يحتسب عند الله ورسوله من الأشرار؟

على أثر ذلك انقطعت تلك السنة الموبقة من قريش ، فلم يقترفها إلا رجل لا يأبه بشرع ، ولا يركن الى دين . أما أهل المدينة من الأوس والخزرج فكأنهم قد خلقوا من طبع رسول الله ومودته ورحمته . فكانوا من أشد الناس تكرمة لنسائهم ورفقاً بهن . بل لقد كانت لهن بينهم صولة لا تقهر، وسلطان لا يرام . وقد تأثرت طباع المسلمين جميعاً بطباع أنصار رسول الله ، لمنزلتهم من الدين ، ومكانهم من عاصمة الاسلام . كما ريضت نفوسهم بقول نبيهم الكريم ، صلى الله عليه وسلم . فتجملوا بمواتاة زوجاتهن ، وموادعتهن ، وكف الأذى عنهن . وفى ذلك يقول شُرَيح صاحب قضاء المسلمين فى عهد عمر بن الخطاب ومن أعقبه من الخلفاء :

رأيت رجالاً يضرِبون نساءهم فشُلّت يمينى حين أضرب زينبا

ولم يقف الاسلام من كرامة المرأة ورعايتها موقف المكتفى بكف الأذى عنها فحسب ، بل كان مما سنه لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترفيهها ، والحرص على سرورها ، واجتلاب ما يفرحها ، ويشرح صدرها . فقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتيان الحبشة فلعبوا بحرابهم بين يديه فى المسجد ، ودعا عائشة رضى

(١) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١٤٨

الله عنها فوطأ لها عاتقه، وحاط وجهها بيده[١]، وأشهدها ذلك المنظر البهيج فلا تزال ترقبه حتى تسأم، فتتركه، ثم تعود اليه.

وحدثت عائشة أن أبا بكر دخل عليها و بين يديها قينتان تغنيان وتلعبان بالدف يوم العيد، وعلى مقربة منها رسول الله صلى الله عليه وسلم. فانتهرها أبو بكر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعها يا أبا بكر، فان لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا[٢].

وروى بن عبد ربه عن عائشة: أن رسول صلى الله عليه وسلم دخل عليها فقال: أهديتم الفتاة الى بعلها؟ قالت: نعم. قال: فبعثتم معها من يغنى؟ قالت: لا. قال: أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم الغزَل؟ ألا بعثتم معها من يقول:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحبة السمراء لم نحلل بواديكم[٣]

وحدث البخارى عن الرُبيِّع بنت معوّذ بن عفراء قالت: جاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل حين بُنِيَ عليَّ. فجلس على فراش. فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف، حتى قالت احداهن: وفينا نبي يعلم ما فى غد. فقال: دعى هذا وقولى بالذى تقولين[٤].

وحدث هو أيضاً عن أنس بن مالك قال: أبصر النبي صلى الله عليه وسلم نساء وصبياناً مقبلين من عُرس. فقام ممتناً فقال: اللهم أنتم من أحبّ الناس إلىّ[٥].

---

(١) تيسير الوصول ج ٣ ص ٢٧٠ — ٢٨٠ (٢) تيسير الوصول ج ٣ ص ٢٨٠

(٣) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٣١ (٤) القسطلانى ج ٨ ص ٦٦ ويريد صلى الله عليه وسلم بقوله « دعى هذا وقولى بالذى تقولين » ألا تتغنى بمدحه بل تسير فى غنائها على نحو ما كانت فيه

(٥) القسطلانى ج ٨ ص ٨٥ والامتنان المبادرة الى الأمر بارتياح

٣ — حريتها وحرمة رأيها

لا تجد قوماً أبعد مدى فى الضلال ، ولا أقصر يداً عن الحقيقة ، من أناس أجازوا لأنفسهم الحكم على الاسلام وليسوا منه فى قليل ولا كثير . أولئك قوم من عامة كتاب الفرنج . اذا كتبوا عن النساء فى الاسلام زعموهن قعائد بيوت ، لا رأى يُبدينه ، ولا نصيب من الحرية يعتززن به . وتلك إحدى سخائم أنفسهم ، ونزعات أهوائهم ، تتكشف كل يوم عن ذلك الإيقاع المبتذل ، والأسلوب المرذول . فأما الدليل فلا دليل ! .

ما شرع الإسلام للمرأة أن تكون رهينة البيت ، أو سجينته . بل هى رَبَّتُهُ ، والقائمة بأمره ، والمسؤولة عنه . يعاونها الرجل فيه ، وتعاونه هى فيما سواه . وقد أسلفنا القول فى ذلك ، ولعلنا عائدون اليه فى تفاريق هذا الكتاب إن شاء الله .

أما حريتها ، وحرمة رأيها ، فلها فى الاسلام مظهران ، لا تطمع المرأة الى أعزّ وأسمى منهما : هما حرية الزواج ، وحرية المجالس والمحافل تغشاها ، وتظهر رأيها فيها .

أما أمر الزواج فذلك شأنها وحقها ، وليس لأحد أن يغصبها فيه رأيها أو يعدُوَ اذنها . وحريتها فيه أبعد مدى ، وأتم شأنا من الرجل . فهو اذا عقد عليها ، ثم لم يَرْضَها ، فتركها قبل أن يبنى بها ، نزل عن نصف مهرها لها . وان تركها بعد ذلك فلها المهر كاملاً . وليس له أن يقول هى دونى نسباً أو منزلة ، فكل النساء أكفاء للرجل ، وليس كل الرجال أكفاء للمرأة .

أما هى فلها أن تفصم عقدة الزواج اذا خُدِعت فيه ، أو أُكرهت عليه ، مهما أُنفق فى سبيلها . وليس لامرئ أن يقودها قسراً الى من لا تريد . فلقد فصم

رسول الله صلى الله عليه وسلم زواج خنساء بنت خُذَام الأنصارية، لأن أباها زوَّجها وهى كارهة[١] .

وهل هناك ما هو أدل على احترام رأى المرأة فى هذا الموطن وهو أدق مواقفها، وأمسها بحياتها ، من حديث أُم هانئ بنت أَبى طالب ، وقد خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت يا رسول الله لأنت أَحب إلىَّ من سمعى ومن بصرى ، وانى امرأة مُؤْتِمَة، وبَنِىَّ صغار، وحق الزوج عظيم . فأخشى ان أقبلت على زوجى أن أُضيع بعض شأنى وولدى، وان أَقبلت على ولدى أن أُضيع حق زوجى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ، أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على بعل فى ذات يده ، ولو علمت أن مريم ابنة عمران ركبت الإبل ما فضلت عليها أحداً[٢] .

تلك امرأة أبدت صفحة العذر عن بلوغ أقدس منزلة تبلغها المرأة المسلمة وهى منزلة أُمومة المؤمنين ، فأكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم رأيها اكباراً قلدَ قريشاً بأسرها تلك الشهادة العالية الكريمة .

وقد عَبَرَ النساء بعد ذلك وهن مستمسكات بهـذا الحق ، معتصمات به ، لا يستجزن لآبائهن ولا أوليائهن أن يغصبوه أو ينقصوه .

---

(١) صحيح البخارى ج ٧ ص ١٨ والاصابة ج ٨ ص ٦٥

خنساء بنت خذام : هى من بنى عمرو بن عوف بن الأوس . لقيت النبى صلى الله عليه وسلم عند مقدمه إلى المدينة وهى صبية حدثة وسمعت عنـه . وكان قد خطبها اثنان أحدهما أبو لبابة بن المنذر احد الأبطال النابهين من أصحاب رسول الله والثانى رجل من بنى عمرو بن عوف عشيرتها فآثرت أبا لبابة وآثر أبوها ابن عمها ثم أمضى منه زواجها غير آبه برضاها فأما هى نفذت على رسول الله فقالت ان أبى قد تعدى على فزوجنى ولم يشعر بى فقال لها لا نكاح له أنكحى من شئت فتزوجت أبا لبابة .

واختلف المحدثون فى أمرها حين زواجها فى رواية الموطأ والثورى انها كانت بكرا وفى رواية البخارى وابن سعد انها كانت أيما وانها قالت يا رسول الله ان عم ولدى أحب إلى فجعل أمرها بيدها

(٢) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ٣٢ والاصابة ج ٨ ص ٢٨٧

وكيف بالرجل يسوم المرأة نفسها ، أو ينازعها فضل رأيها ، وتلك فتاة تقوم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلقى كلمة لا تدع للرجل من بعـدها الى قهرها من سبيل .

ونحن لـكيما نورد تلك الـكلمة الرائعة الصادعة ، نعود الى حديث خنساء بنت خذام ، فنرويه بما رواه صاحب المبسوط[1] فى كتابه . قال :

قالت الخنساء : أن أبى زوجنى من ابن أخيه وأنا لذلك كارهة . فقال صلى الله عليه وسلم : أجيزى ما صنع أبوك . فقلت : ما لى رغبـة فيما صنع أبى . فقال صلى الله عليه وسلم : اذهبى فلا نكاح له ، انكحى من شئت . فقالت : أجزت ما صنع أبى ، ولـكنى أردت أن يعلم الناس أن ليس للآباء من أمور بناتهم شىء . قال صاحب المبسوط : ولم ينكر عليه الصلاة والسلام مقالتها[2] .

وبريرة ! ومَن بريرة ؟ هى جارية من جوارى الحبشة ، ملكها عتبة بن أبى لهب وزوجها عبداً من عبيد المغيرة ما كانت لترضاه لو كان لها أمرها . فأشفقت عليها عائشة أم المؤمنين فاشترتها وأعتقتها. فقال لها رسول الله : ملكت نفسك فاختارى.

وكان زوجها يمشى خلفها ويبكى ، وهى تأباه . فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ألا تعجبون من شدة حبه لها ، وبغضها له ؟ ثم قال لها : اتقى الله فانه زوجك وأبو ولدك . فقالت : أتأمرنى ؟ فقال : لا ، إنما أنا شافع . فقالت : إذاً فلا حاجة لى إليه[3] .

---

(١) صاحب المبسوط : هو شمس الأئمة محمد بن أحمد بن سهل السرخسى أحد أئمة الحنفية وأعلام القضاة. وكتابه المبسوط من أشمل كتب التشريع الاسلامى وأحفلها . يقع فى عشرين مجلدا . ومن عجيب أمره أنه أملاه املاء وهو رهين السجن بأوزجند وأوزجند بلد من بلاد فرغانة فى أقصى حدود الدولة الاسلامية الى الشرق والشمال . وكانت وفاته سنة ٤٨٣ رحمه الله (٢) المبسوط ج ٥ ص ٢

(٣) المبسوط ج ٥ ص ٩٩

فهل يعجب الناس بعد ذلك أن يقف فتيات العرب دون عسف آبائهن وأوليائهم ؟ فان انتهزوا منهن غِرَّة الصبى ، وخجل الحداثة ، وزوجوهن ممن لا يدانيهن فى طبع ، ولا يواتيهن فى خلق ، رجعن عليهم باللوم والخصومة بعد ذلك . ومثل ذلك ما كتبت امرأة من هؤلاء الى أبيها ، وكان زوَّجها وهى حَدَثة بغير إذنها .

أيا أبتَـا عنَّيتـنى وابتليتنى ... وصَيَّرت نفسى فى يدى مَن يُهينها

أيا أبتَـا لولا التحرُّج قد دعا ... عليك مجابا دعوة يستدينها

وقالت امرأة أخرى أُوثر بها ابن عمها :

أيا عجبا للخَود يجرى وشاحها ... تزف الى شيخ من القوم تنبال

دعاها اليـه أنه ذو قرابة ... فويل الغوانى من بنى العم والخال

وكان عبد الله بن جعفر قد زوَّج ابنته من الحجاج بن يوسف على كره منها لأنه ليس فى شىء من سناء نسبها ، ولا كرم سجاياها ، وما حمله على ذلك إلا ضيق ذات يده ، وألف ألف درهم حُملت مهراً إليه . فلما زُفّت نظر الحجاج الى عبرتها تجول فى عينيها . فقال : بأبى أنت وأمى مم تبكين ؟ فقالت : أبكى من شرف اتضع ، ومن ضَعة شُرفت . حتى اذا علم عبد الملك بن مروان بأمرها كتب الى الحجاج بطلاقها . فقال لها : ان أمير المؤمنين كتب إلىّ بطلاقك . فقالت : هو والله أبرّ بى ممن زوَّجَنيك[١] .

---

(١) بلاغات النساء ص ١٨٦ نسخة خطية بدار الكتب السلطانية

عبد الله بن جعفر : هو قطب السخاء أبو محمد عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . وأمه اسماء بنت عميس أخت أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث لأمها . هاجر أبواه الى الحبشة وهنالك كان مولده قبل هجرة رسول الله بثلاث سنين . ووافى به أبواه المدينة وله سبع سنين وفى هذه السن بايع عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتوفى أبوه فى غزوة مؤتة وكان أمير القوم فيها فكفله عليه الصلاة والسلام ودعا له بقوله اللهم اخلف جعفرا فى ولده ثم انتقل الى كفالة أبى بكر ثم الى كفالة عمه على عليه السلام وكان أحد امراء جنده يوم صفين

وقد ذهب امام العراق ابن شُـبْرُمة الى أن زواج البنت باطل ما لم تبلغ وتصارح برأيها فيمن يريدها[1] .

وكان من سنن فريق من العرب فى جاهليتهم أن الرجل اذا مات عمد أخص أوليائه وأقرب ورثته فوضع ثوبه على امرأته وقال أنا أحق بها ! ثم ان شاء تزوجها ، وان شاء زوجها غيره ، وأخذ صداقها ، وان شاء عضلها لتفتدى نفسها بما ورثت عن زوجها . فذلك ما حرمه الله جل ذكره إنصافاً للمرأة ، واطلاقاً لحريتها فقال : « يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَـكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا » .

كذلك عمد الله سبحانه الى عقدة أخرى من عُقَد الاسر والاكراه فحلها عن المرأة وذلك حيث يقول للأزواج :

« وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ[2] » . فأصبح حراماً على الرجل أن يستبقيها على كره منها ، وإعنات منه ،

وزوجه عليه السلام بابنته زينب رضى الله عنها فولدت له عليا وعونا وعباسا ومحمدا وأم كلثوم . وكان عبد الله علماً من أعلام الجود حتى لقب بقطب السخاء . ومما قالوا ان امرأة سألته فأعطاها مالاً عظيما فقيل له أنها لا تعرفك وكان يرضيها اليسير فقال ان كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى الا بالكثير وان كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى . وسأله سائل بينا يهم بركوب ناقته فنزل له عنها وعما فوقها وكان عليها أربعة آلاف درهم وسيف من سيوف على بن أبى طالب عليه السلام . وفيه يقو القائل .

وما كنت الا كالأغر بن حاتم — رأى المال لا يبق فأبق له ذكراً

وفى سبيل جوده احتمل الدين والمتربة حتى رضى أن يزوج ابنته من الحجاج بن يوسف لأنه وفى عنه دينه وأعطاه ألف ألف درهم . أما ابنته هـذه فاسمها أم أبيها وكانت كأوضأ النساء وجها وأبينهن بيانا وأسمحهن يدا . وهى صغرى بناته . ولم تنكشف عن عقب . رضى الله عنها .

وكانت وفاة عبد الله سنة سبع وثمانين وله من العمر تسعون سنة . رضى الله عنه

(١) المبسوط ج ٤ ص ٢١٢

وقد أورد صاحب المبسوط لابن شبرمة وشيعته أدلتهم ومنها النافذ الذى يتطامن اليه العقل ويطمئن .

فمن ذلك ما أوردوه من قول الله جلت حكمته : « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النـكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم » فالتعبير عن بلوغ الرشد ببلوغ النـكاح دليل لا يقبل النقض على أن زواج القاصر لا نفـاذ له .

ومن أدلتهم أن الله ما شرع الزواج الا للنسل والصغر ينافيه .

ومما قالوا : ان الزواج وثاق الحياة ، وليس لأحد أن يقيدهما به حتى يبلغا ويكشفا عن صريح رأيهما

(٢) سورة النساء

حتى تفتدى نفسها بما بقى من صداقها . إلا اذا أتت بفاحشة مبينة . فتلك لا حق لها تطلبه ، أو تنزل عنه .

أما توارد القول الكريم من الله ورسوله فى محاسنة الزوجات وموادعتهن وأبْسِهن على بعض ما فيهن ، فما يفيض رفقاً ورحمة ، ورعاية وعناية . وحسبك أن الله جعل المرأة من آيات الله ومنته على الرجل . وجعل المودة والرحمة والألفة عقدة الصلة بينهما . فذلك حيث يقول جلّت آيته : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ[١] » .

ومن ذا الذى يستمع قوله تعالى : « وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا[٢] » ثم يجفو امرأته ، أو يتسخطها بعد ذلك ؟

قلّب بين أعطاف هذه الآية بصرك ، واملأ منها يدك ، وروّ من مَعِين بيانها قلبك ، ثم انظر هل تقيم على وِجْدانك ، أو تقر على عاطفتك ، فيما تكره من أمر امرأتك ؟ وما ظنك بأمر تكرهه ثم تظل على لجاجك فيه بعد أن مناك الله بالخير الكثير من ورائه ؟ وأين ذلك من حسن الثقة وتمام الايمان بالله ؟

ومما يرمى الى ذلك الغرض الجليل ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يَفْرُكْ مؤمن مؤمنة ان سخط منها خلقاً رضى عن خُلُق[٣] .

ومما يرد هذا المورد ما حدثوا ان عمر رضى الله عنه قال لرجل طلّق امرأته : لِمَ طلقتها ؟ قال : لا أحبها . فقال : أكل البيوت بنيت على الحب ؟ أين الرعاية والذمم ؟ ؟ .

(١) سورة الروم (٢) سورة النساء (٣) محاضرات الأدباء ج ٢ ص ١٣٠

ولنأخذ بالقول فى مسألتين مما لعلهما يرهقان سعادة المرأة ، ويكدران صفوها ويشعرانها بالحزن والموجدة . وهاتان هما : —

« تعدد الزوجات » و « الطلاق »

١ — تعدد الزوجات

ما كان تعدد الزوجات فى شىء من مظاهر الاسلام ولا شعائره . بل لقد ضرب الله حوله نطاقاً محكماً ، وقيده بقيود ثقال ، ففرض فيه العدل الشامل ، واجتناب الانسياق مع النفس فى ميلها وهواها ، واتقاء ما من شأنه أن يثير الحقد والضغينة بين زوجاته . وكم فى الناس من يقوى على ذلك ، وأى امرئ يغلب نفسه ، ويمحو فضل عاطفته ، ويبدل نظام طبيعته ؟

يقول الله جل ذكره : « فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً[1] » فجعل البقاء على واحدة فرضاً محتوماً عند توقع الجور، والاشفاق من الانحراف ، والخوف من إيثار واحدة على واحدة . وأى الناس لا يخاف ذلك ، ولا يشفق منه ، والله سبحانه يقول : « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ » .

وكان تعدد الزوجات معروفاً عند العرب ، ولم يكن هناك حدٌّ يقف دونه الرجل . فقد يجمع بين عشر نساء — وإن غَنِىَ أكثرهم بواحدة — فلما جاء الاسلام قصرهم على أربع .

ومن بين هؤلاء غَيْلان بن سلمة ، كان بين يديه عشرٌ . فقال له رسول الله أمسك عليك أربعاً[2] .

(١) سورة النساء (٢) القسطلانى ج ٨ ص ٣١

وانما نظر الاسلام فى تلك الإباحة الى أحد أمرين . —

الأول — الاحتفاظ بكيان الأمة ، لأن الرجال مدفوعون فى كثير من المواطن الى اغتمار القتال ، واقتحام الأخطار ، مما عساه يُنْضِب عددهم ، ويذهب بالكثير منهم . فان لم يُبَح لرجال أن يتجاوزوا الواحدة قصر كثير من النساء عن منازل الأمومة ، فتَضْؤل الأمة ، وتلين قناتها ، ويقل عددها ، وربما أسرع الفساد اليها .

واليوم وقد تخطى الاسلام نيّفاً وثلاثة عشر قرناً ، يقوم جمع من فلاسفة الفرنج ومشرعيهم ، فيقولون بتعداد الزوجات استكثاراً للنسل ، حتى يسدوا بذلك ما أصاب أممهم من الفراغ العظيم ، بفقد بضعة عشر ألف ألف رجل فى حربهم العظمى .

الثانى — هنالك أناس لا تمكنهم طبائعهم ، ولا تكوين جسومهم ، من البقاء على واحدة . فأولئك روعى أمرهم حتى لا يفزعوا الى ما هو أدهى وأمر من تعدد الزوجات.

على أن الاسلام — رغم ذلك كله — أحاط تلك الإباحة بما رأيت من القيود حتى لا يصاب تكوين الأسر بما لا يجبر صدعه ، ولا يدرك فائته .

وعلى ذكر الفرنج وآرائهم نسوق اليك رأى الكاتب الفيلسوف المؤرخ العظيم جوستاف لوبون ، فى تعدد الزوجات ، وهو ما أودعه كتابه الكريم : حضارة العرب (La civilisation des Arabes) قال :

ليس بالهيّن اليسير أن تدرك أسلوباً من الحياة لأمة من الأمم حتى تفترض كونك فى هذه الأمة ، يحيط بك ما يحيط بها ، ويحتكم بذات نفسك ما يحتكم بذوات نفوسها . فأما أن تحكم — وأنت متأثر بطبائع قومك وعاداتهم ، وما يحيط بهم من وسط وجوّ وبيئة — على نظام قوم لا يشاكلونك فى شىء مما أنت فيه ، فذلك ليس من الرأى فى شىء .

ذلك ما يراد بالناقد أن يأخذ به وينهجه اذا شاء أن يتولى بنقده نظاماً كنظام

تعدد الزوجات ، قبل أن تصل الأمم غير المسلمة الى أعماقه . وكثيراً ما تُذيع الزراية به ، والسخط عليه . بل لا تجد نظاماً أجمع الناس فى أوربا على النيل منه، وتوكيل الظنون والأوهام به ، كاجماعهم بذلك على ذلك النظام .

فالمؤرخون الأوربيون — وفيهم من عُرف بالدقة والنفاذ فى استقصاء الحقائق وتمحيص الحوادث — يرون ذلك نظام دعامة الاسلام ، ومدعاة انتشار القرآن ، والهاوية البعيدة القرار ، فى سبيل نهوض المسلمين .

يقولون ذلك ، ثم يُتْبعون ما يقولون بنوافر الكلم عن حجاب المسلمات البائسات فى كسور دورهن ، يقوم بحراستهن ، ويتولى رتاج أبوابهن جماعة من الحرس والخصيان غلاظ شداد ، وقد يقتلن على غير اسم ولا جريرة ، بغير هوادة ولا مرحمة ، إذا صُرفَ عنهن أزواجهن إلى مَنْ سِواهن .

أن تصوير المرأة المسلمة بهذه الألوان القاتمة برىء من الحق . وسيعلم القارىء — إذا شاء أن يطرح عنها ظنونه وأوهامه قبل تلاوة ذلك البحث — أن تعدد الزوجات على مثال ما شرعه الإسلام من أفضل الأنظمة ، وأنهضها بأدب الأمة التى تذهب اليه ، وتعتصم به ، وأوثقها للأسرة عقداً ، وأشدها لآصرتها أزراً . وسبيله أن تكون المرأة المسلمة أسعد حالاً ، وأوجه شأناً ، وأحق باحترام الرجل من اختها الغربية .

وقبل سياق الدليل على تلك الحقيقة الناطقة الناصمة أذكر للقارىء أن تعدد الزوجات لم يكن من مُحْدَثات الاسلام . بل لقد كان ذائعاً بين أمم الشرق من فرس وعرب ويهود ومَن سواهم فاذا كانت الشعوب التى رضيت الاسلام ديناً قد أخذت به فلم يك ذلك بربح جديد مالته من ذلك الدين الجديد . وانما هو أثر من تأثير البيئة وضرورة من ضرورات الجنس ونتيجة من نتائج احتكام الأحوال والأوساط عند الشرقيين .

وتأثير البيئة والجنس من الوضح والبيان بحيث لا نَجهَد فى افاضة القول فيه فان النظام العضوى للمرأة ، وما يصيبها من الحمل والولادة ، وما ينالها فى سبيل ذلك من أوجاع وآلام ، كل أولئك يضطرها الى اعتزال فراش الزوج أمداً غير محدود . ولما كان سبيل ذلك الاعتزال أن يعيش الرجل على قدره عيشة الأعزب — وهى عيشة لا يسيغها الشرقيون لما يحيط بهم من تأثير الاقليم وغلبة الأمزجة — أصبح تعدد الزوجات أمراً لا محيد عنه .

أما فى الغرب ، فان حكم الوسط ، وتأثير الأمزجة ، وغلبة الحالة ، مما يفعل فعله بالرجل . ورغم ذلك نجد البقاء على الواحدة نصًّا من نصوص القانون ، لا أمراً واقعاً ولا حكماً نافذاً . وليس فى قدرة أحد أن يعترض ما أقول ، أو ينكر أن الوقوف دون ذلك السياج — سياج الزوجة الواحدة — أمر لا يستمسك به إلا الأقلون .

ولست أدرى على أى قاعدة يبنى الأوربيون حكمهم بانحطاط ذلك النظام — نظام تعدد الزوجات — عن نظام التفرد المشوب بين الأوربيين بالكذب والنفاق ؟ ! . على حين أرى هنالك أسباباً تحملنى على إيثار نظام التعدد على ما سواه . وليس عجيباً بعد ذلك أن نرى الشرقيين الذين ينتجعون الينا ، ويتنقلون بين مدائننا ، يحارون من قسوتنا فى الحكم على نظام تعدد الزوجات فيهم .

وان يسيراً على المرء أن يعرف السبب فى إقرار الشريعة الاسلامية لذلك النظام ، بعد ما أسلفنا من الدواعى النفسية للقوم . وأن رغبة الشرقيين فى خلود الذكر بالأبناء ، وغرامهم بتكوين الأسر ، والحياة السعيدة بينها ، وما فطروا عليه من العدل والانصاف — كل ذلك لا يجيز لهم إغفال الزوجة التى لا يتحول حبها عن صميم قلوبهم على مثال ما نراه فى أوربا .

ثم ان هناك أسباباً — سأعود إلى بيانها — تدعو إلى اقرار الشرائع للعادات

التي أصبحت من خلق الأمة وتقاليدها . وان يكن ذلك فان نظام تعدد الزوجات الذى ندّ عن حدود الشريعة عند الأوربيين ، سينتهى الأمر بقوانيننا إلى إقراره والاعتراف به .

وهنالك — فوق ما أسلفت — أسباب تؤيد ذلك النظام ، وتدعو اليه ، وهى على اختصاصها بطبقات معينة ، لا يخلو الوفاء بها من الفائدة ، لتعلم أن بعض البلدان أحوج ما يكون إلى الأخذ به . على أن بين أشد الناس استمساكاً بعروة الدين من الأوربيين من هم مسوقون بغلبة الضرورة إلى الاعتراف بالحاجة اليه . وخاصة إذا أمعنوا فى أحوال الشعوب الآخذة به .

ومن قبيل ذلك ما ذكره المسيو لابلاى صاحب كتاب « العمال فى الشرق » فقد انتهى به القول إلى الضرورة التى تدعو كبير الأسرة من القرويين إلى الاستكثار من الزوجات ، وكيف أن النساء أنفسهن هن اللواتى يطلبن إلى أزواجهن ابتغاء سواهن غير هائبات ولا آسفات على ما فعلن . وذلك بعض قوله :

يحرص الشرقيون على أن يزوجوا بكر الأسرة فى بواكر أيامه . لذلك ترى امرأته بعد تتابع الوضع بعد الوضع ، تسرع إليها الكهولة ، بينا يكون زوجها نضراً فتيًّا . فلا بدع أن يعوزه الزواج بغيرها ، وهو إذا همّ بذلك فانما يصدر فى أكثر المواطن عن رأى زوجته .

وقد يعجب الباحث من أن تغرى المرأة زوجها بالانصراف الى سواها. على أنه لا عجب فى ذلك . فان ربات المنازل فى الجماعات الزراعية الاسلامية ، عماد البيوت ، وقوام أمرها فاذا شُغِلت المرأة بتربية أبنائها ، والانصراف الى شؤونهم ، فليس هناك من يشد أزرها فى مهمة بيتها ، إلا الجوارى ، أو بعض بنات عشيرتها. وقد لا توجد المؤازرة من بنات العشيرة ، كما قد تضيق اليد دون شراء الجوارى ،

فليس لها يومئذ إلا أن تشير عليه بالزواج ، حتى تؤدى حق الأمومة .

وقد ذكر المؤلف ألَّا أثر للغيرة ، ولا للخصومة بين زوجات الزوج الواحد ولا شك أننا بما وقر فى نفوسنا من الأوهام الباطلة ، نقول باستحالة ذلك .

وألحق أنا لم نقل بالاستحالة إلا لأننا نرجع فى حكمنا إلى حِسِّنا وعواطفنا . فأما عواطف غيرنا فلسنا بآبهين بها ، ولا مقيمين لها وزناً[١] » .

٢ — الطلاق

تلك هى قاعدة الحياة الزوجية فى الإسلام « إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » فإن محيت آية المعروف فدبت النفرة ، وساءت العشرة ، واتسع الصدع وامتنع التوفيق — سواء أكان سبيل ذلك الزوجَ ، أو الزوجةَ ، أو هما معاً — فما خير تلك الحياة ، وما فضل البقاء عليها ؟ وقد جعل الله الزواج مبعث الود والرحمة ، لا سبيل التَّعَسِ ، وبؤس الحياة . لذلك أبيح الطلاق .

ولقد يكون الطلاق من حق المرأة إذا اشترطته فى عقد زواجها . فأما إذا لم تَقُله فهو حق الرجل وحده . وإنما أطلق هذا الحق للرجل دونها لأنه يملك من كظم الغيظ ، وطول الأناة : ما لا تملك .

على أن الإسلام لم يدع ذلك الحق دون أن يُضَيِّق مذاهبه ، ويأخذ على النفس سبل الوصول اليه . وقد هيأ لذلك من الوسائل ما نحن سائقون لك شيئاً منه وذلك هو :

(١) الترغيب فى محاسنة الزوجات ، والرضا منهن بخير ما فيهن ، وضمان الخير الكثير فيما عساه يكره منهن . وقد أسلفنا من ذلك ما فيه الغناء .

---

(١) La civilisation des Arabes 422—443

(٢) نعى الطلاق على المطلقين ونقمته منهن . ومن ذلك ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من حلال أبغض إلى الله من الطلاق . ويقول : ما خلق الله شيئاً أبغض اليه من الطلاق . ويقول : لا تطلّقوا النساء إلا من ريبة فإن الله لا يحب الذواقين والذواقات .

(٣) التحكيم فى الخصومة بين الزوجين اذا بدر النزاع ، وبدأ الشقاق . وفى ذلك يقول الله جل ذكره : « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » وذلك أمر للمسلمين جميعاً يقوم به أولياؤهم ، والقائمون بالأمر فيهم .

(٤) جعل الله للمرأة بعد الطلاق عِدَّة تمتدُّها فى بيته وهى وفاء الحمل للحامل حتى تضع ، وثلاثة أشهر لمن سواها ، وبين أثناء تلك المدة يراجع الرجل نفسه ، وتفىء المرأة الى عقلها ، فإن نزعا إلى عهدهما القديم فى هذا المهد القصير ، راجع الرجل زوجته ، وكان ذلك خيرًا وأبقى . وفى ذلك يقول الله جلت آياته : « يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا » .

أما الأمر الذى لعل الله يحدثه ، فمعاودة الرأى ، ومراجعة النفس بعد رياضتها ، ورد جماحها ، واسلاس قيادها ، بعد ذلك الهجر القصير الأمد .

فاذا استكملت العدة فله أن يعيدها الى فيئه ، أو أن يبتّ فراقها ، ان لم يكن الى التوفيق سبيل . فذلك حيث يقول جل ذكره : « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ

فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ » .

وللرجل أن يعاود زوجته بعد أن يطلقها مرتين ، فان عاد الى الثالثة حيل بينه وبينها فلا يعود اليها حتى يخلفه غيره عليها ، تأديباً له ، وإذلالاً لنفسه .

وقد أمر الله الرجال بمجاملة زوجاتهم ، والرفق بهن ، وبذل كل ما يستطيعون بذله فى سبيل مرضاتهن فى أيام عدتهن ، فذلك حيث يقول : « أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا » .

ثم لقد فرض الله على الرجل أن يردّ اليها بقية ما سماه من مهرها حين طلاقها وحرّم عليه أن يستردّ شيئاً مما اجتلب لها كائناً ما كان ذاك المجتلَب . وفى ذلك يقول الله جلتْ آياته : « وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا » .

من ذلك كله تعلم أن نظام الطلاق فى الاسلام ، لا يدانيه نظام غيره دقة وإبداعاً . فلا هو بالمغلق المحظور حتى يكون أحد الزوجين شجاً فى حلق صاحبه وغُلاً فى عنقه ، وكَبلاً فى يديه ، وقيداً فى قدميه . ولا هو بالسهل الهيّن فيتخذه

من لا عهد لهم ، ولا رعى ، ولا ذمام ، مرتعاً خصيباً ، يتنقلون فيـه كما شاءت أهواؤهم ، وشهوات أنفسهم .

﴿ وبعد ﴾ فلنعد الى المظهر الثانى من مظاهر حرية المرأة فى الاسلام وهو : —

٢ — حريتها العامة

اذا كانت المرأة المسلمة عماد البيت بحكم الاسلام ، فهى أيضاً دعامة الحياة العامة بحكم الاسلام . فهى لم تدع موطناً عظيماً ، ولا مشهداً حافلاً ، ولا عملاً خالداً إلا وكانت فقـار ظهره ، وعماد أمره . فقد جلست الى رسول الله متحدثة متعلمة ، ورافقت جيشه آسية مداوية ، وجالت بين يديه مقاتلة مستبسلة وهاجرت بدينها الى المدينة والحبشة مع السابقين الأولين من المهاجرين . فأجزل الله فى كل ذلك مثوبتها ، وأحسن النبي مآبها ، وأكبر المسلمون مواقفها .

لقد كانت المرأة العربية فى عهد جاهليتها تزن الرجل فى ذكاء قلبه ، ومضاء نفسه ، وسناء خلائقه . فلما عمها الاسلام لم تقصر عن مداه فى علم أو دين أو فضيلة . فمن أين للرجل أن يأنف من مجالستها ، ومساجلتها ، واستماع حديثها ، وذلك شأنها معه ، ومكانها منه ؟

ولم يكن الحجاب مما تألفه المرأة العربية كثيراً فى عهد جاهليتها ، فقد كانت تغشى المحافل ، وتخوض الجحافل ، وتخطب فى الأندية ، وتمشى فى الأسواق ، فلما انبسط ظل الاسلام تأثر الحجاب بمؤثرين متعارضين :

أما أولهما فأمر الله زوجات رسوله بالقرار فى بيوتهن ، والابتعاد عن منال العيون . لأن موطنهن من رسول الله ، ومكانهن من أمومة المؤمنين ، لا يجعلهن كأحد من النساء . وذلك حيث يقول جل ذكره :

« يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا »

ومهما يكن نظرنا الى الحجاب ورأينا فيه ، فليس لنا متأوّل فى أن الله اختص به نساء النبي دون سواهن . ولنا فى الحديث التالى كفيل بما نقول :

ذلك أن النعمان بن أبى الجون الكندى لما عرض على رسول الله ابنته أسماء[1] وارتضاها النبي زوجاً له ، قال له النعمان : فابعث يا رسول الله إلى أهلك من يحملهم اليك ، فأنا خارج مع رسولك فمرسِلهم معه . فبعث رسول الله معه أبا أسيد الساعدى . فلما قدما عليها جلست فى بيتها وأذنت له أن يدخل . فقال أبو أسيد : ان نساء رسول الله لا يراهن أحد من الرجال . فأرسلت اليه : فيسِّرنى لأمرى . قال : حجاب بينك وبين من تكلمين من الرجال إلا ذا محرَم منك . ففعلت . فلما حملت إلى رسول الله صرفه الله عنها فلم يَبْنِ بها . فأقامت بالمدينة لا تبرحها .

(١) أسماء بنت النعمان : هى احدى فرائد العرب ومعدوداتهن جمالا وشرفاً . وينتهى نسبها الى آكل المرار ملك كندة وسيدها . وكان مقامها بنجد . ولما شبت زوجت من ابن عم لها فاخترمه الموت عنها . وفى ذلك العهد ذاع الاسلام فى نجد فقدم النعمان الى رسول الله مبايعاً له وهنالك عرض ابنته عليه صلى الله عليه وسلم فارتضاها لمكان أبيها وأمهرها مهر نسائه اثنتى عشرة أوقية ونصف أوقية من الذهب ، وأرسل اليها أبا أسيد الساعدى فأتى بها . على أن بناءه بها لم يتم وفى سبب ذلك خلاف شديد . ومما قالوا أنها أظهرت شيئاً من الكبرياء على النبي صلى الله عليه وسلم فقد دعاها فقالت أقبل أنت وأبت أن تقبل اليه . وقالوا أنها حين قدمت الى المدينة لم ترضها فسألت رسول الله أن يعيدها الى أهلها . وقالوا ان رسول الله سألها أن تهب له نفسها فقالت : هل تهب الملكة نفسها للسوقة ؟ وقالوا ان داخلة دخلت عليها حين قدمت المدينة فامتلأ قلبها غيرة مما أبصرت من جمالها فأسرت اليها أن تقول — اذا دخل عليها رسول الله — أعوذ بالله منك ، فذلك أحب شىء اليه . فلما سمع منها رسول الله ذلك القول غطى وجهه وقال استعذت بمعاذ ثم ألحقها بأهلها على أن هذا القول بعيد الاحتمال . وكان ألم قومها من هذه الخيبة كأشد ما يكون . ونال منها الألم بعد ذلك فقالت لأبى أسيد — وكان قد أمر بأن يعود بها — ماذا أصنع ؟ فقال أقيمى فى بيتك واحتجبي الا من ذى رحم محرم ولا يطمع فيك أحد فأنت أم المومنين . فبقيت كذلك حتى ماتت فى عهد عثمان . ويقولون أنها زوجت فى عهد عمر من المهاجر بن أبى أمية فجرى بينها وبين أمير المؤمنين ما أسلفنا فى أصل الكتاب

حتى إذا كانت فى عهد عمر تزوجها المهاجر بن أبى أُميّة فأفزَع عمر أن إحدى أمهات المؤمنين تتزوج بعد رسول الله. فأرسلت اليه: والله ما ضُرِب علىّ الحجاب ولا سمّيت أم المؤمنين[1].

ذلك الى أن مساق الآيتين الكريمتين لنساء النبي، وانهن لسن كأحد من النساء.

على أن ذلك التشريع الخاص بنساء النبي من شأنه أن يحبب ذوات الشرف والسناء من النساء، إن لم يكن فى القرار الدائم، ففى ايثار القرار، تشبها بأكرم نساء المسلمين على الله ورسوله، لولا أن هناك مؤثراً آخر، وازنه فعارضه.

ذلك ما دعته وثبة الاسلام، وجِدُّ حياته، الى خروج المرأة عن دارها طلباً للدين، ودراسة للعلم، واشتراكا فى مناسك الحج، واسعاداً فى معاناة الجهاد، وصدعا بما وقر فى نفسها من حق أضيع، وحرمة أبيحت، وانها لتعلم أن لها فى ابتناء عظمة الاسلام شأناً لا يستهان بخطره، ولا أثره.

هذان هما المؤثران اللذان تأثر بهما حجاب المرأة العربية فى الاسلام، وهما على تعارضهما لا يتكافآن قوة ورجحانا. لأن للثانى أثراً واقعاً، ووضحاً فى الدين ظاهراً، ومثوبة من عند الله مكفولة، فلم يكن بد من غلبته.

بل إن عائشة رضى الله عنها — وهى احدى أمهات المؤمنين، وأجمعهن للمأثور من حديث رسول الله — لما رأت تدافع الواجبين — وهى احدى اللواتى نزل فيهن صريح الأمر بالحجاب — آثرت الثانى فخرجت تخطب فى المسلمين وتستنفرهم — بل وتقودهم — الى قتال أمير المؤمنين علىّ عليه السلام، لأنها رأت فى قومتها — إن صواباً وإن خطأً — قياماً بالواجب، وثأراً للخليفة المظلوم. وليس بفائتنا أن نذكر لك شيئاً من إجابتها على لوّامها.

---

(١) الاصابة ج ٨ ص ١٠ وطبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٠٢ — ١٠٥

فقد كتبت اليها أم المؤمنين « أم سلَمَة » رضى الله عنها تقول لها : ما كنتِ قائلة لرسول الله لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصَّةً قعوداً من منهل الى منهل وغداً تردين على رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتكة حجاباً ضربهُ عليك ؟ . . »

فأجابتها عائشة :

من عائشة أم المؤمنين ، الى أم سلمة ، سلام عليك ، فانى أحمد الله اليك الذى لا إله إلا هو . أما بعد فما أقبلنى لوعْظك ، وأعرفنى لحق نصيحتك ، وما أنا بمعتمرة بعد تعريج . ولنعم المطلع مطلع أصلحت فيه بين فئتين متشاجرتين من المسلمين . فان أقعد فعن غير حرج . وان أمض فإلى ما لا غنى بى عن الازدياد منه والسلام[1] .

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٨٦ — ٢٨٧ طبع بولاق

سنفرد أم المؤمنين عائشة عليها السلام بفصل من هذا الكتاب . أما أم سلمة فهى أم المؤمنين هند بنت أبى أمية بن المغيرة المخزومية وأبوها أحد الذين انطلقت أيديهم بالجود حتى استفاض به ذكرهم . وكان اذا سار فى ركب فعليه اطعامهم ما دام فيهم ومن أجل ذلك سموه زاد الراكب . وأمها من بنى فراس بن غنم رهط ربيعة بن مكدم . وأول ما زوجت من ابن عمها أبى سلمة بن عبد الأسد . وهو أحد السابقين الأولين من المهاجرين . وقد صحبته فى هجرته الى الحبشة ثم تبعته الى المدينة فكانت أسبق النساء جميعاً الى الهجرتين ومات عنها أبو سلمة سنة ثلاث من الهجرة وقد انحسرت منه عن أربعة من الولد هم عمر وسلمة ودرة وزينب . وكان آخر ما أوصاها به أن تبتغى الزوج الصالح من بعده .

وكان من دعائه لها : اللهم ارزق أم سلمة بعدى رجلاً خيرا منى لا يحزنها ولا يؤذيها . ومما حدثها به انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما من عبد يصاب بمصيبة فيفزع الى ما أمره الله به من قول إنا لله وإنا اليه راجعون اللهم آجرنى فى مصيبتى وعوضنى خيراً منها الا آجره الله فى مصيبته وكان قمنا أن يعوضه خيراً منها . قالت أم سلمة : فلما مات أبو سلمة ذكرت الذى حدثنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلته ثم قلت انى أعاض خيراً من أبى سلمة ؟ قالت فقد عاضنى الله خيرا من أبى سلمة وأنا أرجو أن يكون الله قد آجرنى فى مصيبتى

ولما انقضت عدتها خطبها أبو بكر فردته ثم خطبها عمر فردته ثم أقبل عليها رسول الله نخطبها وبينها وبينه حجاب فقالت أى رسول الله وما تريد إلىّ ؟ ما أقول هذا إلا رغبة لك عن نفسى انى امرأة قد أدبر منى سنى وانى أم أيتام وانى شديدة الغيرة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يمنعك ذلك . أما ما ذكرت من غيرتك فيذهبها الله وأما ما ذكرت من سنك فأنا أكبر منك سناً وأما ما ذكرت من أيتامك فعلى الله وعلى رسوله . فأذنت له فتزوجها

وكانت رضى الله عنها من أكمل النساء نفساً ورأيا . فرج الله بها عن رسول الله موقفاً من أشد المواقف وقعا عليه . واجمال ذلك أن رسول الله خرج بالمهاجرين والانصار الى مكة معتمراً — زائراً البيت الحرام — فلما دنا من مكة عرضت له قريش وقالوا لا يسمع العرب أنك دخلت ديارنا عنوة . وهنالك بايع رسول الله

فانظر إلى حسن وصفها لموقفها ، وتبيّن قولها : وان أمض فإلى ما لا غنى بى عن الازدياد منه . ترَها — على امتلاء حجة صاحبتها وقوتها — لا تنثنى عن داعية قلبها ، ولا تتراجع عما رأت الخير فيه ، وعقدت العزم عليه ، بل هى تطلب المزيد منه ، وتسير قُدُماً اليه .

* * *

ذلك شأن عائشة أم المؤمنين . فأما جندها فلم يكونوا من السّوام الذين يتبعون أول صائح ، بل كان مدعوم الصفوف بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار . وليس واحد منهم يتّهم فى دينه ، ولا مفرّط فى كتاب الله ، وهم جزء من جماعة المسلمين الذين يُؤتسى برأيهم ، ويهتدى بحجّتهم .

ذلك ما فعلته عائشة أم المؤمنين وما كانت فيه بدعاً من أزواج رسول الله فقد شركتها أم المؤمنين صَفِية بنت حُيَى يوم حوصر عثمان ، فخرجت على بغلتها لتدفع غارة المغيرين عنه[1] .

أصحابه على الموت . ثم توسلت اليه قريش أن يعود إلى المدينة على أن يفسحوا له طريق الحج فى العام الذى يليه فرضى رسول الله ذلك اجلالا للمدينة المقدسة أن تخضب بالدماء وأمر المسلمين أن ينحروا أضاحيهم ويحلقوا رؤسهم تحللاً من احرامهم وايذانا لهم بالانثناء عن الاعتمار فعز على المسلمين أن يصرفوا عن وجههم بعد أن تعاقدوا على الموت فى سبيل الله وكفوا عما أمر رسول الله به فدخل على أم سلمة حزيناً مغضبا فقالت مالك يا رسول الله — مراراً — وهو لا يجيبها ثم ذكر لها ما لقى الناس وقال لها : هلك المسلمون ! أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا وهم يسمعون كلامى ويرون وجهى . فقالت : يا رسول الله لا تلمهم فانهم قد دخلهم أمر أعظم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح ثم أشارت عليه أن يخرج ولا يكلم أحدا وينحر ويحلق رأسه فخرج رسول الله ففعل ما أشارت به أم سلمة فلم يبق مسلم الا نحر وحلق

وعمرت أم سلمة بعد رسول الله حتى ماتت فى عهد يزيد بن معاوية سنة ٦٢ رضى الله عنها

(١) الاصابة ج ٨ ص ١٢٧

صفية : هى أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب سيد بنى النضير . وتنزع بنسبها الى رسول الله هرون ابن عمران أخى رسول الله موسى بن عمران صلوات الله عليهما . كانت قبل أن تكون لرسول الله زوجا لكنانة ابن الربيع فقتل عنها يوم خيبر . وكانت قد رأت فى منامها ان قمراً هبط من يثرب — المدينة — فسقط فى حجرها . فقصت رؤياها على قومها فردوها اليها وقالوا لها قولا شديداً فلما غزا رسول الله خيبر وأمكنه الله من أهلها جىء اليه بصفية فقال لها لم يزل أبوك من أشد يهود لى عداوة حتى قتله الله فقالت يا رسول الله ان

أما مَن سوى أمهات المؤمنين فلم يكنَّ يتحرجن من مجاذبة الرجال كل شئون الدنيا والآخرة . وسيمر بك فى مواطن خاصة من هذا الكتاب ما أسفر عنه رأى أولئك النساء فى مجالس العلم ، ومحافل الأدب ، ومشاهد الرأى ، وساحات العمل ، وما قرّ لهن فى مواطن كثيرة من زعامة المسلمين وقيادتهم ، وتصريف سياستهم ، وتكوين رجالهم . وما شىء من ذلك بالهيّن اليسير .

والآن وقد أخذنا بالقول فى حرية المرأة فيما عدا دارها ، فان حقًّا علينا أن نقول فى أمر نِقْبتها ، وما عليه هيئتها ، اذا انكشفت عن بيتها .

أول ما امرت به المرأة إذا خرجت لبعض شأنها ، أن تضرب بخمارها على صدرها ، فذلك حيث يقول الله جل ذكره : « وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ » وذلك كى لا يظهر شىء من مكشوف صدرها ، ولا زينة نحرها . وكان نساء الانصار لا يتخذن الْخُمُرَ فاتخذنها لذلك . ثم زاد الله سبحانه ذلك الأمر بيانًا وتوكيداً فقال : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا »

فأُمرت المرأة اذا سارت فى مذاهب الرجال ، أن تُرخى بعض ثيابها على بعض وجهها بأن تستره ببعض خمارها حتى لا تعرف بأنها من إماء المدينة وبغاياها اللواتى

الله يقول فى كتابه ولا تزر وازرة وزر أخرى فقال لها رسول الله اختارى فان اخترت الاسلام أمسكتك لنفسى وان اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحق بقومك فقالت يارسول الله لقد هويت الاسلام وصدقت بك قبل أن تدعونى ومالى فى اليهودية أرب ومالى فيها والد ولا أخ وخيرتنى الكفر والاسلام فالله ورسوله أحب الى من العتق وأن أرجع الى قومى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن حوله قوموا عن أمكم وكان ذلك ايذانا بتشريفها عليها السلام بزواجه ولها يومئذ سبعة عشر عاما . وكانت رضى الله عنها من أوضأ نساء النبى وجها وارضاهن له معاشرة وادناهن من قلبه ورحمته . فاخرتها عائشة بأبيها الصديق وفاخرها أخريات من أزواج النبى بآبائهن من قريش فشكت ذلك الى رسول الله فقال لها ان عدن فقولى أنا خير منكن أبى هرون وعمى موسى وزوجى محمد فلما عاودنها الفخر قالت لهن مقال رسول الله فما فاخرتها واحدة بعد ذلك . وعاشت عليها السلام بعد وفاة رسول الله حتى أدركت خلافة معاوية . وكانت وفاتها سنة خمسين رضى الله عنها .

يخرجن سوافر متبرجات فلا يؤذيَنَّها أرقّاء الدين وفتيان المنافقين يتتبعها ، أو التحرش بها . على ذلك عَبَر جمهور نساء المسلمين . فكن يغدون لحاجاتهن ، ويغشين المجالس، ويتصدرن الأندية ، ويتناولن شتات أعمالهن ، متنقبات غير متبرجات .

ومن النساء من فهمن الأمر على خصوصه فجلسن إلى الرجال سوافر محتشمات ، لبعدهن عن منال الأذى ومجال الشبهات .

ومن فضليات هؤلاء سُكَيْنَةُ بنت الحسين بن علىّ رضى الله عنهم . فقد كانت بَرْزَةً تجلس إلى العلماء والأدباء والشعراء ولا تكاد تحتجب منهم[1] .

ومنهن عائشة بنت طلحة فكانت لا تستر وجهها من أحد . وقد عاتبها فى ذلك زوجها مصعب بن الزبير فقالت : ان الله وسمنى بِمِيسَم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله ما فىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد[2] .

على أن الاسلام حيال ذلك النصيب البالغ من الحرية أخذ على المرأة الا تتشبه بالرجل فيما هو من خاصة أمره ولِزام شأنه كزيه وهيئته وتبذله بين صحابته وخاصته . فقد لعن نبى الله المترجلات من النساء كما لعن المخنَّثين من الرجال . أما تشبهها به فى رأيه وعلمه فممدوح ومحمود . فقد كانت عائشة أم المؤمنين رَجْلَة الرأى والعلم[3]

« أما بعد » فذلك رأى الاسلام والمسلمين فى المرأة المسلمة وحريتها أتينا عليه ، ولم نُفرط فيه ، انصافاً للتاريخ فى قوم لهم من وضح دينهم ، وسناء خلقهم ، وشرف نفوسهم ، ورجاحة عقولهم ، وجِدِّ حياتهم ، حُجُبٌ لا تنالها الأوهام ، ولا تهتكها الأيام ، وعصمة لا تقى الحجب المضاعفة وِقاءها ، ولا تبلغ البروج المشيدة أدنى مداها .

---

(١) الأغانى ج ١٤ ص ١٥٩ (٢) الأغانى ج ١٠ ص ٥١ طبع بولاق . وسنفرد كلا من سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة بفصل من هذا الكتاب (٣) لسان العرب ج ١٣ ص ٢٨٣

المرأة العربيّة
بين التأثر بالإسلام والتأثير في نهضته

١ — تأثرها بالاسلام

اذا كانت المرأة العربية فى عهد جاهليتها قد خضعت لدين ، فانما ذلك دين مضطرب لا أثر له ، ولا خير فيه .

وان هى نزعت الى خلق فاضل، وخليقة كريمة ، فقد عَلِقَتْ بهما شوائب الجهل، وفوضى الجماعة ، فقنعت فى بعض المواطن جمالها ، وجاوزت بهما قصد السبيل .

وان هى أفاضت على القوم روح الحمية ، وحب التضحية ، ووحى القول ، وجمال الخيال ، فقد كان لهم من وجودها ، ونفاذ قولها ، حروب فرقت جماعتهم وأطالت بلاءهم ، ومزقت أوصالهم .

وان هى جاذبت الرجل حبل العمل ، وساجلته جد الحياة ، فقد احتملت من العبء أثقله ، ونالت من النصيب أقله . وربما تناولتها المصائب من كل جانب ، فلا تجد من حسن العزاء ما يطمئن بمثله ذوات الدين من النساء .

لذلك كله كانت المرأة العربية أحوج ما تكون الى دين سمح متين ، يعمد الى تلك الفضائل المودعة فيجلو صدأها ، ويثير كامنها ، وينهج بها الخير كله ، ويُجَنِّبُهَا مداحض الزلل ، وعثرات الطريق .

لقد هيأ الاسلام للمرأة تلك الوسائل ، ورفعها الى أبعد مما يطمح خيالها ، ويصبو أملها ، وساق لها من آى الذكر الحكيم ، ما بهر سناه بصرها ، وملكت محجته نفسها ، واستقادت بلاغته وحسن مساقه قلبها ، وأنصتت لما وصف به

الله رحمته وعزته ، وناره وجنته ، وما أعد للصابرات والمحسنات من جزيل الأجر وسَنِيّ المنزلة ، فأثار ذلك عاطفتها ، وأفاض وجدانها ، وأنار بصيرتها . فكان حقاً لذلك أن يصيب حبة قلبها ، ويجُول فى مجال دمها ، ويتأشب بين أحناء ضلوعها . وأن يكون خَلجة شفتيها ، وظلّة رأسها ، وسُنّةَ وجهها ، ومَرَاد طرفها ، وكُلَّ شيء بين يديها .

كذلك كان أمر نساء العرب . فان أول قلب خفق بالاسلام وتألق بنوره ، قلب امرأة منهن . وما كانت تلك المرأة فى سواء النساء ، بل لقد هيئ لها من جلال الحكمة ، وبعد الرأى ، الى زكاء الحسب ، وذكاء القلب ، ما عز على الأكثرين من الرجال . فلم تأخذ الدين مشايعة ، ولم تتلقه مجاملة ، بل أخذته عن تأثر به ، وظمأ اليه .

أجل . لقد تأثرت خديجة بنت خويلد زوج النبي وأم المؤمنين بهذا الدين تأثراً نفذ الى قلبه صلى الله عليه وسلم ، فكان مبعث الغبطة والسكينة عند تدافع النوب ، واشتداد الخطوب . ثم أعقبها جمهور النساء فتأثرن بهذا الدين تأثراً هان وراءه كل شيء .

وأول من سبق اليه فريق الضعاف اللواتى فقدن النَّصَفة ، وعثر بجدهن الزمان . فابتدرن ورده ، وتفيأن ظله ، واستهن بما أصابهن فى سبيله ، من ظلم وذل وآلام .

وكانت لقريش صولة وانبساط بالأذى على من آمن من أولئك الضعاف حتى لقد تجاوزوا به حدَّ التعذيب والإيلام ، الى الافتنان فى التمثيل ، والتأنق فى التنكيل .

ومن أولئك اللواتى استعذبن العذاب : سُمَيّة أم عمار بن ياسر . كان بنو مخزوم إذا اشتدت الظهيرة ، والتهبت الرمضاء ، خرجوا بهـا هى وابنها وزوجها الى

الصحراء، وألبسوهم دروع الحديد، وأهالوا عليهم الرمال المتقدة، وأخذوا يرضخونهم بالحجارة، حتى تفادى الرجلان ذلك العذاب المرّ بظاهرة من الكفر. وفيهما وفى أمثالهما أنزل الله قوله : « إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ » . فأما المرأة فاعتصمت بالصبر، وقرت على العذاب، وأبت أن تعطى القوم ما سألوا من الكفر بعد الإيمان . فذهبوا بروحها، وأفظعوا قتلها[1] .

وغير سمية كثيرات احتملن فوق ما احتملت .

فمنهن من كانوا يلقونها، ويحمون لها مكاوى الحديد، ثم يضعونها بين أعطاف جلدها، ويدعون الأطفال يعبثون بعينها حتى يذهب بصرها[2] .

ومنهن من كانوا يسقونها العسل، ويوثقونها بالأغلال، ثم يلقونها بين الرمال، ولها حرٌ يذيب اللحم، ويصهر العظم، حتى يقتلها الظمأ[3] .

وكان عمر بن الخطاب وهو على دينه القديم ، يتولى تعذيب جارية مسلمة

---

(١) انسان العيون ج ١ ص ٣١٩ — ٣٢٠

سمية : هى سمية بنت خباط — بضم الخاء وتشديد الباء — أول الشهداء فى الاسلام .

نشأت سمية فى رق أبى حذيفة بن المغيرة المخزومى فزوجها من ياسر بن مالك حليف بنى مخزوم فولدت له عمارا . ومنها ومن زوجها وولدها ارتفعت ثلاث دعائم للاسلام نهضت والدين غض جديد . وهى احدى ثمانية ظهروا بالاسلام فى أول أمره وأولئك هم رسول الله وأبو بكر وبلال وخباب وصهيب وعمار وياسر وسمية فأما رسول الله وأبو بكر فقد منعهما من العذاب قومهما وأما الباقون فقد ألبسوا دروع الحديد والقوا فى حفائر الصحراء حتى يتقد الحديد عليهم . وكل أولئك تفادوا العذاب أخيراً بما أجروه على ألسنتهم من كلمة الكفر الا بلالا وسمية فأما بلال فاشتراه أبو بكر وأعتقه وأما سمية فقد أنفذ فيها الشريف النذل أبو جهل بن هشام حربته فماتت رضى الله عنها وكان رسول الله يمر على آل عمار وهم يعذبون بالصحراء فيقول صبراً يا آل ياسر موعدكم الجنة

(٢) سيرة بن هشام ج ١ ص ١٢٦ والآثار المحمدية لدحلان ج ١ ص ٢٦٤

وممن عذب بهذا العذاب زنيرة جارية عمر بن الخطاب . وكان هو وجماعة من قريش يتولون تعذيبها على مثال ما قدمنا فى أصل الكتاب ولما ذهب بصرها قال المشركون ما أصاب بصرها الا اللات والعزى فقالت له والله ما هو كذلك وما تدرى اللات ولا العزى من يعبدهما ولكن هذا أمر من السماء والله قادر على أن يرد على بصرى . قيل فرد عليها بصرها فقالت قريش هذا من سحر محمد . وقد اشتراها أبو بكر وأعتقها رضى الله عنها

(٣) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١١١ — ١١٢

وممن فعلوا بهن ذلك أم شريك بنت جابر بن حكيم وسيمر بك بعد قليل حديثها

لبنى المؤمل ، فلا يزال يضربها بالسياط ، حتى إذا مَلَّ قال لها : إنى أعتذر اليك انى لم أتركك إلا ملالة ! فتقول له : كذلك فعل الله بك[1] .

إلى ذلك الحد احتمل أولئك النساء مظالم الرجال صابرات راضيات مطمئنات لا يسألن رحمة ، ولا يفزعن الى حيلة . حتى لقد ذكر رواة السير أن المستضعفين من الرجال — إلا بلالا رحمه الله — استنقذوا أنفسهم من الموت بذكر وثن من أوثانهم . على حين لم يذكروا عن امرأة شيئاً من ذلك .

لم يقف النساء حيال ذلك الأمد السحيق من العذاب موقف الواهن الضعيف. بل لقد استعذبنه ، واستهنّ به حتى عَرَضْنَ له ، ونزعن اليه ، اعلاء لكلمة الله ، واعزازاً لدينه . فكنَّ يَنْبَثِثْنَ فى البيوت لدعوة مَنْ بها من النساء الى الاسلام . وفى حديث أم شريك القرشية العامريّة ما يضرب لك المثل الأتمَّ مما تقول .

قال ابن عباس : وقع فى قلب أم شريك الاسلام وهى بمكة فأسلمت . ثم جعلت تدخل على نساء قريش سراً فتدعوهن وترغبهن فى الاسلام ، حتى ظهر أمرها لأهل مكة ، فأخذوها وقالوا لها : لولا قومك لفعلنا بك وفعلنا ، ولكنا سنردك اليهم . قالت : فحملونى على بعير ليس تحتى شىء موطأ ولا غيره ، ثم تركونى ثلاثاً لا يطعمونى ولا يسقونى . قالت : فما أتت علىّ ثلاث حتى ما فى الأرض شىء . فنزلوا منزلاً . وكانوا اذا نزلوا وقفونى فى الشمس واستظلوا ، وحبسوا عنى الطعام والشراب حتى يرتحلوا . فبينما أنا كذلك إذ بأثر شىء بارد وقع علىّ منه ثم عاد ، فتناولته ، فاذا هو دلو ماء ، فشربت منه قليلاً ، ثم نزع منى ، ثم عاد ، فتناولته ، فشربت منه قليلا ، ثم رفع ، ثم عاد أيضاً . فصنع ذلك مراراً حتى رويت ثم أفضت سائره على جسدى وثيابى . فلما استيقظوا اذا هم بأثر الماء ، ورأونى

---

(١) سيرة بن هشام ج ١ ص ١٢٦

حسنة الهيئة . فقالوا لى : انحللت فأخذت سقاءنا فشربت منه ؟ فقلت : لا والله ما فعلت ذلك . كان من الأمر كذا وكذا . فقالوا : لئن كنت صادقة فدينك خير من ديننا . فنظروا الى الأسقية فوجدوها كما تركوها . فاسلموا لساعتهم .

ذاك صنيع المستضعفات اللواتى لم يعتصمن إلا بشرف النفس ، ولم يأوين إلا الى قوة الأيمان[1] .

على أن ذوات الشرف والمكانة لم يقصرن عن اللحاق بهؤلاء . وان كان أكثرهن قد آمن مع من آمن من ذويهن وأزواجهن ، فمنهن اللواتى انفردن بالاسلام دونهم ، واحتملن وحدهن آلام الهجرة ، واعتساف الطريق .

فقد آمنت أم كلثوم بنت عُقْبة دون رجال بيتها ، وفارقت خدرها ، ومستقر أمنها ودعتها ، تحت جنح الليل ، فريدة شريدة ، تطوى بها قدماها ثنايا الجبال ، وأغوار التهائم بين مكة والمدينة ، الى مفزع دينها ، ودار هجرتها ، الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أعقبتها بعد ذلك أمها ، فاتخذت سُنتها ، وهاجرت هجرتها ، وتركت شباب أهل بيتها وكهولهم ، وهم فى ضلال يعمهون[2] .

(١) الاصابة ج ٨ ص ٢٤٨

أم شريك : هى غزية — بضم الغين وتشديد الياء — بنت جابر بن حكيم القرشية العامرية . تنتهى بنسبها الى عامر بن لؤى . نشأت فى بنى عامر بن لؤى قريباً من مكة ثم تزوجها أبو العسكر الدوسى فنقلها الى مكة حتى اذا ظهر النبي بدين الله كانت من أسبق الناس الى اجابته وهى التى وهبت نفسها بعد الهجرة لرسول الله وسماها الله جل ذكره بالمرأة المؤمنة فى قوله جلت آيته : « يا أيها النبي انا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي » .

(٢) الاصابة ج ٨ ص ٢٧٥

أم كلثوم : هى ابنة عقبة بن أبى معيط الأموية وتنتهى بنسبها الى أمية بن عبد شمس وكان أبوها سيداً من سادات قريش . وأمها أروى بنت كريز وهى أم عثمان بن عفان . أسلمت بمكة وبايعت قبل الهجرة ثم تبعت رسول الله الى المدينة وهنالك تزوجها زيد بن حارثة ثم قتل عنها فتزوجها الزبير بن العوام فكرهته لشدة فيه على النساء فسألته طلاقها فطلقها ثم خلفه على عبد الرحمن بن عوف فمات عنها ثم اعقبته على عمرو بن العاص فمات عنه لشهر من زواجها

وكانت رضى الله عنها من أوفر النساء عقلا وأقواهن ايماناً وهى أول امرأة هاجرت الى المدينة بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وما كان ثبات المرأة وقوة نفسها، وسبوغ يقينها، واستهانتها بالموت فى سبيل دينها، وقفاً على عهد رسول الله. بل لقد صحبها كل ذلك، وخامر لحمها ودمها فى كل أدوار عظمتها، وظهور شأنها. وانما نريد بعهد عظمة المرأة العربية ذلك العهد الذى احتفظ العرب فيه بعصبيتهم العربية، وذلك عهد الراشدين، والعهد الأموى، وأوائل أيام العباسيين بالعراق، والفاطميين بمصر، وبنى مروان بالأندلس.

فنى هذه الأيام كان تأثر المرأة بدينها شبيهاً بما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولما انشعبت الآراء، وتباينت المذاهب فى تلكم الأيام، كان ثباتها على رأيها شبيهاً بثباتها على دينها. فلم يحولها عنه تحول الزمان، وتداول الدول.

هذا معاوية بن أبى سفيان باقعة قريش وسائسها، رِيضت له الدنيا وقر لأمره الأمر، فتطامنت له رؤوس القوم، وخشعت نفوسهم، ونطقت بما يحب ألسنتهم على حين أن خصومه اللواتى انضوين الى علىّ رضى الله عنه وحرضْنَ عليه هو بين صفوف صفين، لم تأخذهن صولته، ولم يذهب برأيهن وميض سيفه، ولم ينثنين بين يدى وعيده وتهديده. بل كان يستقدم خطيباتهن وشواعرهن، والزعيمات بالرأى فيهن، فكن حياله وهو أمير المؤمنين، كما كن يوم صفين. وسيمر بك من مقالاتهن ومقاماتهن بين يديه. عند كلامنا على أدب المرأة المسلمة ما فيه غنَاء.

كذلك كان ايمان نساء الخوارج وثبات قلوبهن، ورَباطة نفوسهن حين يؤتى بهن فى صفَدَ الإسَار بين أيدى الخلفاء والأمراء، وسيوفهم مُصْلَتَة، يلتمع شررها بين أعينهن، فلا خوف ولا وهَن.

فقد اتى عبيد الله بن زياد بامرأة من هؤلاء كان لها فى قتاله والإغراء به شأن عظيم. فبدأ يقطع رجلها وقال لها: كيف ترين؟ فقالت: ان فى الفكر فى هول المطلع لشغلا عن حديدتكم هذه.

وأتى الحجاج باخرى منهن فجعل يكلمها وهى لا تلتفت اليه . فقيل لها : الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين اليه ؟ فقالت : انى لأستحى أن أنظر الى من لا ينظر الله اليه . فأمر بها فقتلت .

وقيدت اليه أخرى فقال: والله لأعدنكم عدًّا، ولأحصدنكم حصداً . فقالت له: الله يزرع وأنت تحصد ؟ فأين قدرة المخلوق من الخالق[1] ؟

وقد أورد الجاحظ والمبرد حديث الْبَلْجاء وأفاضاه . وهى امرأة خارجية من بنى تميم نهضت تثير الخوارج فى العراق ، وتؤلبهم على عبيد الله بن زياد . فنذر بها عبيد الله . قالوا : وذهب الى شيخ الخوارج أبى بلال بن حُدَير ذاهب ، فقال له : يا أبا بلال إنى سمعت الأمير البارحة عبيد الله بن زياد يذكر البلجاء وأحسبها ستؤخذ. فمضى اليها أبو بلال فقال لها : ان الله قد وسع على المؤمنين فى التَّقِيَّة فاستترى ، فان هذا المسرف على نفسه ، الجبار العنيد ، قد ذكرك . فقالت : ان يأخذنى فهو أشقى بى ، فأما أنا فما أحب أن يُعْنَتَ انسان بسببي . فوجه اليها عبيد الله . فأُتى بها . فقطع يديها ورجليها ، ورمى بها فى السوق . فمر أبو بلال والناس مجتمعون فقال : ما هذا ؟ فقالوا : البلجاء . فعرج اليها . فنظر ، ثم عض على لحيته ، وقال لنفسه : لَهَذه أطيب نفساً عن بقية الدنيا منك يا مرداس .

قالوا : ولبثت ما شاء الله أن تلبث ، ولم تسمع لها آهة ولا أنة ، الا أن تذكر الله وتشكره[2] .

ذلك قليل من كثير ، مما يشهد للمرأة العربية فى عهد اسلامها باحتكام الدين فى ذات نفسها ، واستهانتها بالدم والروح فى سبيله .

ولقد كان سبيل ذلك أن تأثرت كذلك بأدب الاسلام ، وخرجت عما احتكم بها فى الجاهلية من عادة نافرة ، وتقليد ذميم .

(١) بلاغات النساء ص ١٣٤ — ١٤٣ (٢) البيان والتبيين والكامل ج ٢ ص ١٥٩

وأول ما لُقِّنت المرأة من أدب الله ورسوله ، الاعتصام بالصبر، اذا دجا الخطب، وجل المصاب . وهى وان وسمت فى الجاهلية بالصبر عند اشتداد الدهر وجهد البلاء ، إنها لتعافه وتأباه إذا ذهب الموت بعزيز كريم من آلها وعشيرتها فهنالك يجتمع نساء الحى للمأتم ، حواسر الرؤوس سوافر الوجوه ، يشققن الجيوب ، ويلطمن الوجوه ، ويهجن الباكيات ، بما يثير الحزن الرابض ، والشجو المميت . وعادة للمناحة على السيد الشريف أن تظل سنة كاملة

* ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر *

ذلك ما حال دونه الاسلام ، ومنع المرأة أن تفعله ، أو تقرب شيئاً منه . فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة ، وبايعه الرجال على الاسلام ، قدم عليه النساء . فقلن : يا رسول الله ان رجالنا قد بايعوك ، وإنا نحب أن نبايعك فمدَّ رسول الله يده اليهن . فبايعنه . وكان مما أخذ عليهن فى بيعتهن : ألا ينحن ، ولا يخمشن وجهاً ، ولا يشققن جيباً ، ولا يَدَّعين ويلاً ، ولا ينشرن شعراً ، ولا يقلن هجراً . وبذلك كان رسول الله يبايع كل من بايعته[1] .

تلك بيعة طوقت بها أعناق المؤمنات جميعاً ، فأصبحت من أركان دينهن ، وعمد ايمانهن . ثم أصغين إلى ما كتب الله للصابرين والصابرات من جليل الأجر وجميل المثوبة ، ورأينه خَلة الأنبياء ، وسنة الصديقين ، وآية المقربين ، وقرأن قول الله تباركت حكمته : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » وقوله جلت آيته فى الصابرين : « أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » . وسمعن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يحدّث عن الله عز وجل : اذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة فى بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل

(١) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ٣ — ٦

ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً[١] .
وقوله عليه الصلاة والسلام : يقول الله عز وجل ما لعبدى المؤمن جزاء اذا قبضت صفيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة[٢] . وقوله صلى الله عليه وسلم لجماعة النساء : يا معشر النساء ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار . فقالت امرأة : واثنين ؟ فقال : واثنين[٣] .

كل ذلك وأشباهه — وكثير ما هو — سمعنه ووعينه . فكان مسلاة نفوسهن ، وراحة قلوبهن ، وبرد أكبادهن .

أو لم تر الى الخنساء وما ذهب به الدهر من حديث جزعها ، وتصدع قلبها وازدهاف لبها ، واضطرام حشاها ، على أخويهـــا صخر ومعاوية ، مما نطقت به أشعارها ، وذاعت بحرّه أخبارها ؟ لقد استحال كل ذلك الى صبر أساغه الايمان ، وجمّله التقى . فلم تأس على فائت من متاع الحياة الدنيا .

أولئك أبناؤها ، وهم أشطار كبدها ، ونياط قلبها ، خرجوا الى القادسية وكانوا أربعة ، فكان مما أوصتهم به قولها : يا بنى انكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، والله الذى لا إله إلا هو ، إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما هجّنت حسبكم ، وما غيرت نسبكم : واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية . اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون . فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها ، وجللت ناراً على أرواقها ، فيمموا وطيسها[٤] ، وجالدوا رسيسها ، تظفروا بالغنم والكرامة ، فى دار الخلد والمقامة .

فلما كشرت الحرب عن نابها ، تدافعوا اليها ، وتواقعوا عليها ، وكانوا عند ظن أمهم بهم ، حتى قتلوا واحداً فى أثر واحد[٥] .

---

(١) عدة الصابرين ص ١٠٢ (٢) عدة الصابرين ص ٨٨ (٣) ارشاد السارى ج ١ ص ١٩٧
(٤) الوطيس المعركة او الضرب فيها (٥) الرسيس الأصل

ولما وافتها النعاة بخبرهم ، لم ترد على أن قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من الله أن يجمعنى بهم فى مستقرّ الرحمة[١] .

ذلك أبعد مدى تبلغه المرأة من جلال الصبر، وقوة الايمان . ولعل أبعد منه ما حَدَّث أنس بن مالك ، عن أمه أم سُلَيم بنت مَلْحان الأنصارية زوج أبى طلحة زيد بن سهل قال : مرض أخ لى من أبى طلحة يدعى أبا عمير . فبينا أبو طلحة فى المسجد مات الصبي . فهيأت أم سليم أمره ، وقالت : لا تخبروا أبا طلحة بموت ابنه . فرجع من المسجد وقد تطيبت له وتصنعت . فقال : ما فعل ابنى ؟ قالت : هو أسكن مما كان . وقدمت له عشاءه . فتعشى هو وأصحابه الذين قدموا معه . ثمَّ أتَمَّا ليلتهما على أتمّ وأوفق ما يكون الزوجان . فلما كان آخر الليل قالت : يا أبا طلحة ، ألم تر الى آل فلان ، استعاروا عارية ، فتمتعوا بها ، فلما طلبت اليهم شقّ عليهم ؟ قال : ما أنصفوا . قالت : فان ابنك فلاناً كان عارية من الله فقبضه اليه . . . فاسترجع وحمد الله وقال : والله لا أدعك تغلبيننى على الصبر. حتى إذا أصبح غدا على رسول الله . فلما رآه قال : بارك الله لكما فى ليلتكما . فاشتملت منذ تلك الليلة على عبد الله بن أبى طلحة .

ولم يمت عبد الله حتى رزق عشر بنين كلهم حفظ القرآن وأبلى فى سبيل الله[٢] .

---

(١) الاصابة ج ٨ ص ٦٦ — ٦٧

(٢) صحيح البخارى — الاصابة ج ٨ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ وابن سعد ج ٧ ص ٣١٥ — ٣١٨
ام سليم : هى سهلة بنت ملحان بن خالد الانصارية احدى السابقات الى الاسلام والغازيات فى سبيله . اسلمت ورسول الله بمكة وبايعته حين مقدمه الى المدينة . وكان اسلامها مراغمة لزوجها مالك بن النضر. وكان ولدها أنس بن مالك يومئذ طفلا رضيعاً فكانت تقول له قل لا اله الا الله قل أشهد أن محمداً رسول الله فجعل ينطق بذلك أول ما ينطق فكان مما يثير الغضب فى نفس مالك فيقول لها لا تفسدى على ولدى ثم أيأسه أمرها فخرج عنها الى الشام وهنالك كان مقتله فلما بلغها قتله قالت لا جرم لا أفطم أنساً حتى يدع الثدى ولا أتزوج حتى يجلس فى المجالس ويأمرنى فكان يعرف لها تلك المنة فيقول جزى الله أمى عنى خيراً لقد أحسنت ولايتى . حتى إذا شب أنس تقدم لخطبتها أبو طلحة زيد — وكان مشركا — فأبت ثم قالت له يوماً فيما تقول أرأيت

ذلك مثل الكمال فى أسمى فضائله . على أن الاسلام قد أباح للناس أن يشتفوا بالدمع ، ويستريحوا إلى البكاء . فقد حدث البخارى أن رسول الله حمل ابناً لابنته زينب قد حُضِرَ ونفسه تقعقع فى صدره . ففاضت عيناه . فقال له سعد بن معاذ : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : هذه رحمة وضعها الله فى قلوب من شاء من عباده ، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء . أما ما سوى البكاء ، فقد لعن رسول الله الصالقة والحالقة والشاقة[١] .

بل لقد أُمرت المرأة اذا مَرّ على أعزموتاها — إلا زوجها — ثلاثة أيام أن تعود إلى سابق عهدها من زينة وطيب .

فقد روى البخارى عن زينب ابنة أبى سلمة انها دخلت على زينب بنت جحش زوج رسول الله حين توفى أخوها . فدعت بطيب فمست منه . ثم قالت : أما والله مالى بالطيب من حاجة ، غيرانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخرأن تحِدَّ على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً[٢] .

حجراً تعبده لا يضرك ولا ينفعك أو خشبة تأتى بها النجار فينجرها لك هل يضرك ؟ هل ينفعك ؟ وأكثرت من أشياء ذلك الكلام فوقع فى قلبه الذى قالت فأتاها فقال : لقد وقع فى قلبي الذى قلت وآمن بين يديها قالت فانى أتزوجك ولا أريد منك صداقا غير الاسلام

وكانت أم سليم تصحب رسول الله فى غزواته فتداوى الجرحى وتسق العطاش وربما جاوزت ذلك فانغمرت فى الجيش غازية ولها فى الحرب حديث مفاض وكانت يوم حنين حاملا فرآها أبو طلحة متقلدة خنجراً مشهورا فشكاها الى رسول الله فقالت يا رسول الله اتخذه ان دنا أحد من المشركين بقرت بطنه . أقتل الطلقاء واضرب أعناقهم ان انهزموا بك فتبسم رسول الله وقال يا أم سليم ان الله كفى فأحسن

وكان لأنس حين قدم الى المدينة عشر سنوات فذهبت به اليه فقالت يارسول الله هذا أنس يخدمك فأقام على خدمته صلى الله عليه وسلم عشر سنوات حتى لحق رسول الله بالرفيق الأعلى

وأم سليم من اللواتى أكرمهن رسول الله بزيارتها وربما طعم وبات فى دارها رضى الله عنها

(١) الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٦٣ — ١٦٥

(٢) ارشاد السارى ج ٨ ص ١٨٧ — ١٨٨

زينب : هى أم المؤمنين زينب بنت جحش بن دياب الأسدية أندى نساء النبي يداً وأقربهن منه رحماً وأمها أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم عمة رسول الله . هاجرت الى المدينة فيمن هاجر مع رسول الله

كذلك عمد الاسلام الى قلب المرأة العربية فاستل سخيمته ، وأخرج ضغينته وطهره من غلّ الثأر ، ونزعة الانتقام . وقد كان ذلك من أشد ما يجيش به صدرها وتهتف به نفسها ، ويقذف حممه فمها ولسانها . فاليوم وقد شرع الله القصاص فى الدنيا والآخرة . واستنقذ العرب من مفارق الفُرق ، ومنازع الفِتن ، وألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته اخوانا ، فقد تبدل الحقد وُدّا ، واستحالت البغضاء ولاء .

وأنى يكون لسخائم النفوس ، وتطلب الأوتار ، من أثر فى صدر المرأة العربية المسلمة ، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الداعين بدعوة الجاهلية وقال : ليس منا من دعا بدعوة الجاهلية . وما دعوة الجاهلية إلا أن يقول الرجل أو المرأة يا لَفلان . فتعقد الألوية ، وتجاش الجيوش ، وتنتضى السيوف ، وتخاض الدماء ، إن ظالماً وإن مظلوماً .

وكانت جميلة واضحة الجمال فخطبها صلى الله عليه وسلم على مولاه زيد بن حارثة فقالت يارسول الله لا أرضاه لنفسى وأنا أيم قريش قال فانى قد رضيته لك فتزوجها زيد فكان يأخذها أحيانا ما يأخذ المرأة اذا زوجت ممن دونها وكان زيد يشكوها لرسول الله حتى هم أن يطلقها . وكانت لزينب خلال من الكمال لم تشتمل على مثلها امرأة من النساء فكانت فى صلاتها وصيامها وحنانها واحسانها مضرب المثل وكانت صناع اليدين تصنع الشيء الكثير وتتصدق بثمنه على الفقراء لذلك كله قذف الله فى قلب نبيه الرغبة فيها حتى يرحمها من مظنة الضعة ومظهر الاستكانة وكان رسول الله يدافع عن نفسه تلك الرغبة ويأمر زيداً بامساك زوجته حتى أنزل الله قوله : « واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا » فآذنها بأمر الله . ولما سمعت آية الله فيها سجدت شكراً لله ونذرت صوم شهرين لأن الله تعالى تولى زواجها من رسوله وكان ذلك معقد فخرها بل فخر بنى أسد قومها

وكانت رضى الله عنها آية الله فى الجود والكرم . ومما روى البخارى ومسلم عن عائشة أن رسول الله قال لنسائه : أسرعكن لحاقاً بى أطولكن يدا قالت عائشة فكنا اذا اجتمعنا فى بيت احدانا بعد وفاة رسول الله نمد أيدينا فى الجدار نتطاول فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش وكانت امرأة قصيرة فعرفنا حينئذ ان النبي صلى الله عليه وسلم انما أراد طول اليد بالصدقة . وسيمر بك من حديث جودها عند قولنا فى احسان النساء ما فيه غناء

ولما حضرتها الوفاة قالت لمن حولها انى قد أعددت كفنى ولعل عمر سيبعث الى بكفن فان بعث بكفن فتصدقوا باحدهما ان استطعتم اذا دليتمونى أن تصدقوا بحقوى — والحقوا معقد الازار — ففعلوا

وماتت عليها السلام سنة عشرين ولها من العمر خمسون عاما

وهل طُوِى قلب على أشدّ وأهول مما طوى عليه قلب هند ابنة عتبة ، من سموم الموجدة ، ونيران العداوة لرسول الله ، وآل بيته ؟ فهم الذين قتلوا آلها يوم بدر ، واستقادوا زوجها يوم زحفهم على مكة . وهى التى أهدر نبى الله دمها يوم فتح مكة جزاء تمثيلها بجُثْمَان عمه حمزة يوم أُحد ، فجاءته مقنعة تبايعه فقالت :

« يا رسول الله الحمد لله الذى أظهر الدين الذى اختاره لنفسه لتنفعنى رحمك . يا محمد انى امرأة مؤمنة بالله ، مصدقة برسوله » ثم كشفت عن نقابها فقالت : أنا هند بنت عتبة . فقال رسول الله : مرحباً بك . فقالت : والله ما كان على الأرض أهل خباء أحب الىّ أن يذلوا من خبائك ، ولقد أصبحت وما على الأرض أهل خباء أحب إلىّ أن يعزوا من خبائك[1] » .

---

(١) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ١٧١

هند : هى هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس احدى فرائد قريش رأياً ، وحزما ، وبعد همة ، وحسن بيان . وأبوها عتبة سيد من سادات قريش وذوى آرائهم . وكانت هند قد زوجت من حفص بن المغيرة أحد فتيان قريش . فعانت من سوء رأيه ما حملها على فراقه ثم قالت لأبيها انى امرأة قد ملكت أمرى فلا تزوجنى رجلا حتى تعرضه على فقال لها ذلك لك ثم قال لها يوماً انه قد خطبك رجلان من قومك ولست مسمياً لك واحدا منهما حتى أصفه لك أما الاول ففى الشرف الصميم والحسب الكريم تخالين به هوجا من غفلته وذلك اسجاح من شيمته حسن الصحابة حسن الاجابة ان تابعته تابعك وان ملت كان معك تقضين عليه فى ماله وتكتفين برأيك فى ضعفه وأما الآخر ففى الحسب الحسيب والرأى الأريب بدر أرومته وعز عشيرته يؤدب أهله ولا يؤدبونه ان اتبعوه أسهل بهم وان جانبوه توعر بهم شديد الغيرة سريع الطيرة شديد حجاب القبة ان جاع فغير منزور وان نوزع فغير مقهور قد بينت لك حالهما . قالت أما الاول فسيد مضياع لكريمته مؤات لها فيما عسى — ان لم تعصم — أن تلين بعد ابائها وتضيع تحت جناحها ان جاءت له بولد أحمقت وان أنجبت فمن خطأ ما أنجبت . اطو ذكر هذا عنى فلا تسمه لى . وأما الآخر فبعل الحرة الكريمة انى لاخلاق هذا لوامقة وانى له لموافقة وانى لآخذة بأدب البعل مع لزومى قبتى وقلة تلفتى وان السليل بينى وبينه لحرى أن يكون المدافع عن حريم عشيرته الذائد عن كتيبتها المحامى عن حقيقتها الزائن لارومتها غير مواكل ولا زميل — بضم الزاى الجبان — عند ضعضعة الحوادث فمن هو ؟ قال أبو سفيان بن حرب قالت فزوجه ولا تلقى اليه القاء المتساس السلس ولا تسمه سوم المواطس — المثير الشر — الضرس — كشرس وزنا ومعنى — استخر الله فى السماء يخر لك بعلمه فى القضاء .

وحديث هند فى رثاء آلها يوم بدر واستثارة قومها يوم أحد حديث مفاض مشهور أوردناه فى تفاريق الجزء الأول من هذا الكتاب

وكان حمزة بن عبد المطلب قد قتل رجال عشيرتها فى بدر فلما اشتبكت قريش بالمسلمين فى أحد أغرت به من أنفذ فيه حربته حتى اذا صرع حمزة بقرت بطنه وأخرجت كبده فلاكتها ثم لفظتها وتلك شر نزعات

فى سبيل الله ، وفى سبيل دينه ، ما غسل الدم ، وزالت الوحشة ، وأُتلفت نوافر القلوب .

وكما أن الله طهر نفس المرأة من نزعة الحقد ، وأبرأ قلبها من قرحة الغلّ ، كذلك حسر عن عقلها حجاب الجهل ، ونزع عن إدراكها غشاء الأباطيل . فلم تخضع لعقيدة فاسدة ، ولم ترضخ لوهم مموَّه . وعلمت أن الله قد أسدل حجُبَ الغيب دون أوليائه وأصفيائه ، فلم تطلبه ، أو تحاول كشفه . فطويت بذلك صحف الكهان والعرافين ، وزواجر الطير ، وطوارق الحصى . وأمثال كل أولئك ، من كل ذى لغو مموَّه ، وظن مُرَجَّم ، وضلالة باطلة . وتبيَّنت أن الأمر كله بيد الله ، وأنه وحده مقلب القلوب ، ومحوِّل الحالات . فلم تحْتَلْ على الحُبّ واللقاء ، والبُرْء والشفاء ، ومدّ حبل العُمُر ، وردّ سهم القَدَر ، بتعليق الخرزات ، والاستقاء بمائها ، ولا بقول الرُّقَى ، وعقد التمائم . فلم يكن مفزعها فى الأمر كله إلا الدعوة الصالحة ، والرجاء الطيب فى الله وحده . وبطل ما كانت تعتقد فى المعانى التى ألبسها الخيال لَبوساً من الاشباح المترائية . فلم تعد تعتقد فى صور الهواتف ، ولا أصداء الارواح

الجاهلية وقد أدركتها من ذلك وصمة مندية لازمت أبناءها وأحفادها وكان سبيل فعلتها أن أهدر رسول الله دمها على أن الاسلام محا ما بينها وبين رسول الله كما أسلفنا فى أصل هذا الكتاب

ولما أسلمت عادت الى بيتها وعمدت الى صنم لها فانحت عليه بالقدوم تحطما حتى فلذته فلذة فلذة وهى تقول كنا منك فى غرور

ومما يؤثر من حديث مروءتها فى جاهليتها انها — رغم ما كان بينها وبين رسول الله — لما علمت اهبة زينب بنت رسول الله للهجرة ذهبت اليها فى هدأة من الليل فقالت يا ابنة محمد بلغنى عزمك على الرحيل فتلجلج لسان زينب بالانكار فقالت هند لا تكذبينى فان ما بين الرجال لا يتعداهم الى النساء فان أحوجتك معونة من مال أو عمل فان أولى باسعادك ابنة عمك — تريد نفسها —

ولما علمت أن قريشاً عرضوا لزينب فى هجرتها قالت تهجوهم

أفى السلم أعياراً جفاء وغلظة　　　وفى الحرب أمثال النساء العوارك

وكانت وفاتها رضى الله عنها فى خلافة عثمان رضى الله عنه

كل أولئك محاه الدين ، ومحقه العلم الصحيح . وقد علمت مبلغ ايمانها بالأول ، وستعلم مبلغ نفاذها فى الثانى .

*
* *

ولم يقف الاسلام بالمرأة عند حد صلاح لبها ، وخفيات قلبها . بل نظر الى وجهها ، وظواهر هيئتها . فحرم عليها تمويه خَلْقها ، وتلوين وجهها ، وتوصيل شعرها ، وكشف صدرها ، والتبرج فى ثيابها ، وإبداء زينتها ، إلا ما ظهر منها[1] وأشباه ذلك ، مما يبدل فطرة الله ، ويغرى مرضى القلوب ، ويحول بينها و بين جد العمل ، وسمو الحياة .

على أن الاسلام أباح للمرأة فيما سوى ذلك أن تتخذ من الثياب أدقها وأرقها ، ومن الحلى أنفسها وأضوأها ، وأن تَدَّهن ، وتكتحل ، وتختضب ، وتتطيب ، وتتجمل ما شاءت أن تتجمل . فقد خطب على كرم الله وجهه فاطمة بنت رسول الله ، فباع بعيراً له بثمانين وأربعمائة درهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اجعلوا ثُلُثين فى الطيب وثُلثا فى الثياب .

وكانت عائشة أم المؤمنين تلبس المُعَصْفَر ، والمُضَرَّج من الثياب ، وفيها الخزُّ والحرير ، وتتحلى بالذهب . وربما حجّت فى بعض ذلك . وكذلك كان يفعل نساء رسول الله .

ودخلت عليها امرأة وهى معصفرة فسألتها عن الحناء فقالت : شجرة طيبة وماء

---

(١) الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٧٠ واقرأ فى سورة النور قوله تباركت آيته : « ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها » والمراد بما ظهر منها ما لا سبيل الى اخفائه عند معاناة العمل كالخواتم والثياب وكمحاسن وجهها وجمال شكلها فان فى ستر كل ذلك حرجا

البيضاوى ص ٤٦٧ طبع الاستانة

طهور . وسألتها عن الخفاف فقالت لها : إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتصنعيهما أحسن مما هما فافعلى[1] .

﴿ وبعد ﴾ فذلك مجمل ما أحدث الاسلام من الأثر فى قلب المرأة ولبها وعادتها وهيئتها . فأما فضائلها التى جملها الله بها فى عهد جاهليتها ، فقد ازدادت رسوخاً وتمكيناً فى عهد إسلامها ، حتى بلغت بها غاية جلالها وكمالها

فقد حدث البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى النساء بعد صلاة العيد ، فكلمهن فى الصدقة ، فأخذن ينزعن الفتُخ والقِرَطة والعقود والأطواق والخواتيم والخلاخيل ويلقينها فى ثوب بلال — وكان بلال قد بَسَط ثوبه ليضع فيه النساء صدقاتهن

وبذلك رقأت عبرة اليتيم ، وبردت لوعة المسكين

وكذلك فعل النساء حين نزلت آية الصدقة : « إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ[2] »

وكان كثير من الاحسان فى الجاهلية مما تثيره المنافسة ، وحسن الأُحدوثة فأصبح بالاسلام مما تفيض به الرحمة ، ويبعثه ابتغاء مرضاة الله

فقد حدث ابن سعد عن عروة قال : رأيت عائشة تَصَّدق بسبعين ألفاً ، وأنها لترقع جانب درعها

وحدث عن أم ذرة : بعث ابن الزبير إلى عائشة بمال فى غرارتين يبلغ مائة ألف ، فدعت بطبق — وهى يومئذ صائمة — فجعلت تقسم فى الناس . فلما أمست قالت : يا جارية ، هاتى فطرى . فقالت أم ذرة : أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحماً تفطرين عليه ؟ فقالت : لا تعنّفينى ! لو كنت أذكرتنى لفعلت

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٣ و ٤٧ طبع ألمانيا (٢) القسطلانى ج ١ ص ٢٢٦

وحدثت برزة بنت رافع قالت : لما خرج العطاء أرسل عمر إلى زينب بنت جحش بالذى لها . فلما أُدخل عليها قالت : غفر الله لعمر ! غيرى من أَخواتى « أمهات المؤمنين » كان أقوى على قَسْم هذا منى . قالوا : هذا كله لك . فاستترت منه بثوب وقالت : صُبُّوه واطرحوا عليه ثوباً . ثم قالت لى : أَدخلى يدك فاقبضى منه قبضة فاذهبى به إلى بنى فلان وبنى فلان — من أهل رحمها وأيتامها — حتى بقيت بقية تحت الثوب . فقالت لها برزة : غفر الله لك يا أم المؤمنين ، والله لقد كان لنا فى هذا حق . فقالت : فلكُمْ ما تحت الثوب .

وحدث محمد بن كعب قال : كان عطاء زينب اثنى عشر ألف درهم حمل اليها فقسمته فى أهل رحمها ، وفى أهل الحاجة ، حتى أتت عليه . فبلغ عمر فقال : هذه امرأة يراد بها خير . فوقف على بابها وأرسل بالسلام وقال : قد بلغنى ما فرقت ، فأرسل إليها بألف درهم لتنفقها ، فسلكت بها طريق ذلك المال .

وقالت زينب حين حضرتها الوفاة : إنى قد أعددت كفنى . ولعل عمر سيبعث إلىَّ بكفن ، فان بعث بكفن فتصدقوا بأحدهما . إن استطعتم إذا دليتمونى أن تصدقوا بِحَقوى فافعلوا[1] .

وكانت سُكينة بنت الحسين تجود بكل ما تجد من مال . فان لم يكن مال فبدملج تنزعه ، أو سوار .

وخرجت عاتكة بنت يزيد بن معاوية عن مالها كله لفقراء آل أبى سفيان[2] .

---

(١) الاصابة ج ٨ ص ٩٢ — ٩٣

(٢) بلاغات النساء ص ١٢٩

سنفرد عاتكة بفصل من هذا الكتاب فى باب العلم والأدب. أما حديث خروجها عن كل مالها فما رواه ابن أبى طالب فى بلاغات النساء قال : لما كبر يزيد ومروان ابنا عبد الملك من عاتكة بنت يزيد بن معاوية قال لها عبد الملك ان ابنيك قد بلغا فلو أشهدت لهما ميراثك من أبيك كانت لهما فضيلة على سائر اخوتهما فقالت اجمع لى شهوداً من موالى ومواليك قال فجمعهم فدخلوا وأدخل معهم روح بن زنباع — وكانت بنو أمية تدخله على نسائها مدخل مشايخها وأهلها — وقال له رغبها فيما صنعت وحسنه لها وأخبرها برضائى عنها فدخل عليها

وما استبقت المرأة والرجل فى سبيل الكرم إلا وكانت هى أبعد مدى ، وأطول يدا ، وأصدق ندى . لأنها تفقدت باحسانها مواطن البؤس ، وتتبعت مواقع الشقاء . فحسمت الجرح الدامى ، وسترت الجسد العارى ، وراشت الجناح المهيض على حين تعمد الرجل بِحُرّ احسانه قالةَ الشعر ، ورواة الأخبار ، فأذاعوا ذكره ، وأنبهوا قدره ، وأكبروا أمره ، وعمدوا إلى موفور ما أكسبهم فصرعوه فى مصارع المال ، من سرف ولهو وضلال .

وأى رجل ذلك الذى يهب على البيت من الشعر ألف دينار ، وجاراته طاويات الحشى ، باديات الضنى ، قامحات الظما ، زغب الحواصل لا ماء ولا شجر ؟

وإن فيما أتم الله على المرأة المسلمة من نعمة الصبر ، وحبّ الاحسان ، لآية مما بلغته من شتات الفضائل التى أخذ بعضها بِحُجُزَات بعض ، فبلغت منهن المقام الأوفى ، والمكان المكين .

ففى الوفاء لبيتها وزوجها وبنيها ، كانت بحكم الاسلام وتأثيره المثل الأعلى والقدوة الصالحة . وقد علمت من حديث أسماء بنت يزيد أن الوفاء لذلك كله يعدل عند الله ما يعانيه الرجل من الجهاد فى سبيل الله ، وما فوقه ، وما دونه . وفى حديث البخارى أن المرأة راعية على بيتها ، مسئولة عنه .

وكما أن الله حبب الى الرجال مصابرة أزواجهم ، وايلاف قلوبهن وبذل الود والرفق لهن ، كذلك حبب إلى النساء مثل ذلك فى أزواجهن .

فتكلم ثم قال ما قاله عبد الملك فقالت ياروح أترانى أخشى على ابى العية وهما ابنا أمير المؤمنين ؟ اشهدتك أنى تصدقت بمالى على فقراء آل بنى سفيان قال فخرج القوم وأقبل روح يجر رجليه فلما نظر عبد الملك قال أما أنا فأشهد أنك قد أقبلت بغير الوجه الذى أدبرت به قال يا أمير المؤمنين انى تركت معاوية بن أبى سفيان فى الديوان جالساً ! وأخبره الخبر فغضب عليها عبد الملك وتوعدها فقال له روح مهلا يا أمير المؤمنين فوالله لهذا الفعل فى ابنيها خير لك من مالها قال فكف عنها

فقد حدث ابن سعد عن عمرو ابن سعيد قال : كان فى علىّ رضى الله عنه على فاطمة شدة . فقالت : والله لَأَشْكُونّكَ الى رسول الله . فانطلقَتْ . وانطلق علىّ بأثرها . فقام حيث يسمع كلامهما. فشكت الى رسول الله غلظ علىّ ، وشدته عليها . فقال : يا بنية ! اسمعى واستمعى واعقلى : انه لا إمرة لامرأة لا تأتى هوى زوجها وهو ساكت . قال علىّ : فكففت عما كنت أصنع وقلت : والله لا آتى شيئاً تكرهينه أبداً[1] .

كذلك درجت المرأة المسلمة على مواتاة زوجها ومصافاته ، واستخلاص نفسها له ، واحتمال نبوة الطبع منه . وأكثر ما كان صفاء نفسها ، وسماح خلقها وعذوبة طبعها ، إذا استحال الدهر بالرجل فرزأه فى ماله ، أو نكبه فى قوّته ، أو بدّله بكرم المنصب ، وروعة السلطان ، أعرافاً من السجن، وأصفاداً من الحديد .

بل لقد كان وفاؤها له بعد عفاء أثره ، وامّحاء خبره ، عديل وفائها له وهى بين أفياء نعمته ، وأكناف داره . وكان إيثار الاسلام له بمَدّ حدادها عليه أربعة أشهر وعشرة أيام ، لا تتجمل فى أثنائها ، ولا تزدان ، ولا تفارق داره الى دار أبيها — سُنّة من سنن هذا الوفاء ، وآية من آياته .

لذلك كانت المرأة المسلمة ترى الوفاء لزوجها بعد الموت ، آثر مما تراه لأبيها وأمها وذوى قرابتها . فكانت تؤثر فضائله ، وتذكر شمائله فى كل موطن ومقام . بل ربما عرض ذكره وهى بين خليفته من بعده ، فلا تتحرج فى ذكر فضائله وتفضيله إن كانت ترى الفضل له .

ومن حديث ذلك : أن أسماء بنت عُمَيْس كانت لجعفر بن أبى طالب ، ثم لأبى بكر من بعده ، ثم خلفهما علىّ كرم الله وجهه ورضى عنه . فتفاخر مرة ولداها

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١٦

محمد بن جعفر، ومحمد بن أبي بكر، كل يقول أنا أكرم منك، وأبي خير من أبيك، فقال لها عليٌّ: اقضي بينهما يا أسماء. قالت: ما رأيت شابًّا من العرب خيراً من جعفر، ولا رأيت كهلاً خيراً من أبي بكر. فقال عليٌّ: ما تركت لنا شيئاً، ولو قلت غير الذي قلت لمقتُّك!.. فقالت أسماء: ان ثلاثة أنت أقلهم لخيار[1]

ذلك عليُّ بن أبي طالب فتى المسلمين، وأحبهم الى رسول الله، وأعلمهم بدين الله، وأشدهم بلاء في سبيل الله، آثرت عليه امرأته زوجيها السالفين، ولو جعلته خير الثلاثة لاعتقدت بكفهــا لواء أنصاره وشيعته، وهم جمهور عظيم من المسلمين. ثم انظر الى عليّ رضى الله عنه كيف أكبر رأى امرأته وأعظم وفاءها فى قوله: لو قلت غير الذي قلت لمقتّك.

وأشد من ذلك وأجل وأعظم، أن تفى المرأة لزوجها بعد موته. وفى وفائها الموت النافذ، والبلاء المحيق.

ومثال ذلك ما حدثوا أن مُصْعَب بن الزبير لما غَلَبَ على المختَار بن أبى عبيد الثقفى ثائر العراق وسفاحها المُبِيح وقتله، عرض آله وشيعته. فمن لم يقر بكفره ويبرأ

(١) كتاب الطبقات الكبير ج ٧ ص ٢٠٨ — ٢٠٩

أسماء: هى أسماء بنت عميس بن معد — بوزن سعد — الخثعمية احدى الاخوات المؤمنات والسابقات المهاجرات والكريمات المنجبات والنافذات بالراى الجزل والقول الفصل والعلم المكين. وامها خولة بنت عوف بن زهير وهى أم ست عشرة امرأة ممن صحبن رسول الله وروين عنه وظفرن برضاه. ومنهن ميمونة بنت الحارث ام المؤمنين وام الفضل لبابة بنت الحارث زوج العباس بن عبد المطلب وام الكلة من ابنائه والعصماء بنت الحارث زوج الوليد بن المغيرة وام خالد بن الوليد. وكان رسول الله يدعوهن بالاخوات المؤمنات. وكانت أسماء من أسبق النساء الى الاسلام. تزوجها جعفر بن أبى طالب وهاجر بها فيمن هاجروا الى الحبشة وهناك ولدت له عبد الله ومحمدا وعونا ثم قتل عنها فخلفه عليها أبو بكر الصديق رضى الله عنه فولدت له محمدا ثم مات عنها فأعقبه على عليه السلام فولدت له عونا ويحيى

وكانت رضى عنها من انجب النساء وأسناهن رأيا وأنفذهن فى دين الله. روى عنها كثيرون من أعلام الدين ومنهم عبد الله بن جعفر والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير. وكان عمر بن الخطاب يغدو اليها فيسألها تأويل رؤياه. وكانت رضى الله عنها من أملك الناس لنفسها عند الخطب اذا جل والقضاء اذا حل وهى التى غسلت زوجها أبا بكر بوصية منه. ولما بلغها قتل ولدها محمد بن أبى بكر بمصر دخلت مسجد بيتها وكظمت حزنها حتى فاض ثدياها دما

منه ، ألحقه به . فلم يبق على عهــــده ، والوفاء له ، إلا امرأته عمرة بنت النعمان ابن بشير ، فقد قالت حين سئلت : أشهد لقد كان عبداً من عباده الصالحين فأمر بها فقتلت . ولم تفتقد نفسها حين ضربت بالسيف بكلمة واحدة تُبَرِّئها منه مع أنها ضربت ثلاث مرات دون القتل . وتلك إحدى عثرات مصعب وسيئاته[١]

وفى عمرة وما حدث لها يقول عمر بن أبى ربيعة :

إن من أكبر الكبائر عندى قتــل حسناء غادة عُطْبُول[٢]

قتلت باطلاً على غير ذنب إن لله دَرها من قتيل

كُتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيـات جر الذيول

ومع أن رغبة الأَيِّم عن الزواج ، وكراهيتها له ، واعتكافها دونه ، لم يكن من مبادىء الاسلام فى شىء — فان كثيراً من الأيامى أنفن أن يتبدَّلن ببعولتهن زوجاً آخر ، وفاء لهم ، وبقيا على ذكْراهم . فقد روى صاحب أخبار النساء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب الى امرأة يخطبها فقالت : يا رسول الله انى عاهدت زوجى ألا أتزوج بعده . فقال : ان كان ذلك فى الاسلام ففِ له[٣] .

بل لقد ظهر فيهن من عمدت الى مواطن الجمال من وجهها فشوهته حتى لا يرتغبها الناس ولا يبتغونها .

ومن أولئك نائلة بنت الفُرافِصَة زوج عثمان رضى الله عنه . فقد تكاثر عليها خطابها بعد قتل زوجها فأبتهم جميعاً .

ولما خطبها معاوية بن أبى سفيان قالت : وما أعجب أمير المؤمنين منى ؟ قيل لها : حسن ثغرك . وكانت كأحسن النساء ثغراً . فدقت ثناياها وقالت : أذات ثغر ترانى بعد عثمان[٤] ؟ .

(١) العقد الفريد ج ٢ (٢) العطبول المرأة الفتية الجميلة
(٣) أخبار النساء ص ٨٧ (٤) بلاغات النساء ص ١٣٨ — ١٣٩
وستخص نائلة رضى الله عنها بكلمة فى فصل آت

وقد صنعت خَوْلة بنت منظور بن زَبَّان صنيع نائلة حين خطبها عبد الملك ابن مروان بعد مقتل زوجها عبد الله بن الزبير . فقد أنحت على أسنانها تحطيماً لتشوه أجمل ثغر أبدعه الله[١] .

ومنهن زوج هُدْبة بن الخَشْرَم العُذرى . أخذ عليها زوجها حين قِيد الى القتل ، وأبصر طلعةَ الموت ، ألا تتزوج بعده أحمق ، أو لئيماً . فعمدت الى سكين فقطعت أنفها ، وقالت : أفيَّ مطمع لما تقول بعد ذلك ؟ فقال : الآن طاب ورود الموت[٢] .

ومما حدّث الأصمعى قال : رأيت بالبادية أعرابية لا تتكلم ، فقلت : أخرساء هى ؟ فقيل لى : لا ، ولكن كان زوجها مُعْجَباً بنغمتها ، فلما توفى أطبقت فمها فلا تتكلم بعده أبدا[٣] .

على أن الاسلام وان لم يحمد من المرأة كراهيتها الزواج بعد زوجها ، ولم يعتدَّ ذلك وفاء منها ، لقد شكره لها ، وأجزل عليه مثوبتها ، أن اعتزمته ، وأقدمت

(١) اخبار النساء ص ٧٣ (٢) ورد حديث هدبة فى عامة كتب الأدب العربى . وكان هدبة بطلا جلداً وشاعراً فحلا وخطيباً جزلا ومحدثا بديع السمر عذب الحديث وكان قد قتل رجلا من أبناء عمومته يدعى زيادة بن زيد وله صبي لم يجاوز الثامنة فطلب سعيد ابن العاص — والى المدينة من قبل معاوية — هدبة فاعتقله حتى يبلغ الصبي ثم ان شاء قتله بأبيه وان شاء رضى بالدية بديلا منه فلما بلغ الصبي ذهب اليه كثيرون من هامات المسلمين يرغبونه فى العفو ويتقدمون اليه بالديات حتى بلغ ما تقدموا به عشر ديات . وكان ممن تقدموا بالدية الحسن بن على وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم . على أن الصبي أبى إلا أن يقتل قاتل أبيه. فلما أبصر أولئك الجد من أمر الفتى ورأوا ألا محيد من القصاص بكروا إلى هدبة بالسجن وفى أيديهم حقائبهم مطوية على الحنوط والأكفان وكان هدبة حينذاك يلعب بالنرد. فلما رآهم أقبل عليهم يحدثهم ثم أبصر فاذا بطرف من بعض الأكفان قد خرج من بعض الحقائب فقال كأن قد فرغ من أمرنا ؟ فقالوا أجل فقام فاغتسل ثم رجع اليهم فأخذ من كل واحد منهم ثوباً وردما بقى وخرج ايقاد منه وكان فى طول طريقه يقابل الناس فيحادثهم وينشدهم شعره كأن لم يكن من الأمر شىء . وكان ممن عرض له حسان بن ثابت فستنشده شيئاً من شعره فقال

ولست بمفراح اذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أتمنى الشر والشر تاركى ولكن متى أحمل على الشر أركب

(٣) أخبار النساء ص ٧٧

عليه ، وفاء لأبنائها ، ورعياً عليهم ، وضنًّا بهم أن يضيعوا عند غير أبيهم .

فقد علمت من أمر أم هانئ بنت أبى طالب كيف أبت على نفسها شرف الزواج برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفاء لأبنائها ، وقضاء لحق الله ، وحق التربية فيهم ، وكيف امتدحها النبىّ ، وشكر لها ذلك .

وكان ذلك بعض عذر أم سلمة حين خطبها رسول الله فأرسلت تقول له : إنى مُصْبِية . فأرسل اليها : أما ما ذكرت من أيتامك فعلى الله وعلى رسوله . فقالت عند ذلك : مرحباً برسول الله .

ومات مالك بن النضر وابنه أنسٌ رضيع ، وزوجه أم سليم شابة حَدَثة . فكثر خطابها فقالت : لا أتزوج حتى يأمرنى أنس . فوفت لعهدها وبرت . وكان ذلك مما أرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها .

وقالت امرأة من نساء اليمامة تدعى أم أثال — وكانت كأحسن النساء وجهاً فلما مات زوجها ، تدافع الخطاب على بابها فردت كل خاطب ، وفاء لابنها أُثال[1] :

لعمر أُثال لا أفدى بعيشه   وان كان فى بعض المعاش جفاء

اذا استجمعت أم الفتى غضَّ طرفه   وشاعَرَه دون الدّثار بلاء

ذلك بعض حديث المرأة المسلمة فى الوفاء لخير ما خلقت له ، ووكلت به . وان لنا لعودة اليه فى الكلام على تأثير المسلمة فى الرجل ، وتكوينها له ، إن شاء الله تعالى .

﴿ وبعد ﴾ فان نساء العرب فى الاسلام لم يدعْن لرجالهن خَلة يستأثرون بها دونهن ، ولم يتركن سبيلاً من سبل العظائم ، ولا مشرفاً من مشارف المكارم إلا وكن السابقات اليه ، الواثبات الى غايته . حتى لقد جاذبن الرجال حبل البطولة ،

---

(١) بلاغات النساء ص ١٣٢ — ١٣٣

واصطلين نيران الحروب ، فأَمَلْنَ ميزانها ، وأثرن نيرانهـــــا ، وعَقَدْن دخانها ؛ وملكن عنانها .

وهن وان غشين الحرب لما دون القتال من إفاضة الرحمة ، وبذل المعونة ، لا يجدن بدًّا من انتضاء السيوف إذا أجفل الرجال ، ورجفت قلوبهم ، ورأين من لوائح الهزيمة ما لا خير فى الحياة بعده . ولعل من الناس من يقول : وما عسى المرأة أن تفعل يومذاك ؟ ألا إنّها لتَدَع الرجل يقول : وما عسى الرجل يفعل يوم ذاك ؟ .

وهل تجد الشَّجَاعة إلا قوة تفيض من اليقين الثَّبْت ، والصبر المكين ، فتصدع ركن الدهر ، وتفل غرب الحادثات .

فانظر كيف تجد المرأة من جلال الصبر ، وقوة الايمان ، ثم تبيّن مبلغ غَنَائِها وكفايتها ، إذا أحرج صدرها ، واشتملت الحرب العوان عليها ؟

ونحن بعون الله سائقون لك شيئاً من مواقف النساء ، فى مخاضات الدماء وتلك هى أسماء بعضهن ، وأثارة من أثرهن ، ووصف فعالهن : —

﴿ نَسيبَةُ بنت كعب المازنية ﴾

لكل بطل موقف عرف به ، وأُثِر عنه ، وكان مهبط الشرف من حياته ، ومعقد الفخر من سيرته .

وليس هناك موقف أملأ للقلب ، وأملك للنفس ، وآثر فى التاريخ ، من موقف نسيبة بنت كعب .

خرجت نسيبة فى جيش المسلمين يوم أُحد ، تسقى الظماء ، وتأسو الجرحى ، وكانت غرة الحرب وطلعتها للمسلمين . ثم أُشاحت بوجهها عنهم ، فتناولتهم سيوف المشركين ، تنهل من نحورهم ، وتطعن فى ظهورهم ، فانكشفوا وولوا مدبرين ،

إلا عشرة أو نحوهم ، وقفوا يدرأون عن رسول الله ، ويحولون دون الوصول اليه .

هنالك جاء دور نسيبة ، فانتضت سيفها ، واحتملت قوسها ، وذهبت تصول وتجول بين يدى رسول الله : تنزع عن القوس ، وتضرب بالسيف ، وحولها من الغُرّ المذاويد علىٌّ وأبو بكر وعمر وسعد وطلحة والزبير والعباس ، وولداها وزوجها فكانت من أظهر القوم أثراً ، وأعظمهم موقفاً .

وكانت لا ترى الخطر يدنو من رسول الله حتى تكون سداده وملء لهوته حتى قال صلى الله عليه وسلم : ما التفتّ يميناً وشمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى .

ومما حدث به ابنها عمارة قال :

جُرِحْتُ يومئذٍ جرحاً فى عضدى اليسرى . ضربنى رجل كأنه الرَّقْل[1] ، ومضى عنى ، ولم يُعَرِّجْ علىّ ، وجعل الدم لا يرقأ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعصب جرحك . فأقبلت أمى إلىّ ، ومعها عصائب فى حَقْوَيْها ، قد أعدّتها للجراح . فربطت جرحى ، والنبى واقف ينظر إلىّ . ثم قالت : انهض بُنَىّ ، فضارب القوم . فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول : ومن يُطِيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟ قالت : وأقبل الرجل الذى ضرب ابنى ، فقال رسول الله : هذا ضارب ابنك . قالت : فاعترضت له ، فضربت ساقه ، فبرك . قالت : فرأيت رسول الله يتبسّم حتى رأيت نواجذه . وقال : استقَدت يا ام عمارة . ثم أقبلنا نَعُلُّه[2] بالسلاح حتى أتينا على نفسه . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى ظفّرك وأقرّ عينك من عدوّك ، وأراك ثأرك بعينك .

وأُصيبت نسيبة فى هذا اليوم بثلاثةَ عشر جرحاً ، وَاحد منها غار فى عاتقها فنزف الدم منه ، وهى رغم ذلك كالصاعقة الساحقة . تضرب فى نحور العدو ،

---

(١) الرقل جمع رقلة وهى النخلة العالية

(٢) نعل الضارب المضروب تابع عليه الضرب

وترتمي بين صفوفهم ، غير آبهة ولا دارية بالدم الناعر من جسمها . فقال رسول الله امّك أمّك . أعصب جرحها . بارك الله عليكم من أهل بيت . مقام أمك خير من مقام فلان وفلان . فلما سمعت أمه قالت : أدع الله أن نرافقك فى الجنة . فقال: اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة . فقالت : ما أُبالى ما أصابنى فى الدنيا[1] .

﴿ خَوْلَةَ بنت ٱلأَزْوَر ﴾

أخت القائد المظيم ضرار بن الأزور الكندى .

وهى إحدى عقائل العرب ، وبقية بنات الملوك . و بيتها بيت رسخت دعائمه على القوة والمضاء ، فى الجاهلية والاسلام . قتل أبوها بين يدى رسول الله دفاعاً عنه . وأخوها ضرار من القادة الذين لا يغنى غناءهم أحد . وكان يُقَاسُ اذا اشتملت عليه الوقائع بألف رجل .

أما هى ، فقد أوتيت من جمال الوجه ، ومضاء القلب ، ورباطة الجأش ، والاستبسال فى القتال ، ما لم يتح لكثير من الناس . ولها مواطن غرٌ صالحات ، شفت قلوباً ، وروعت قلوباً . منها ما نحن ذاكروه لك ، مما حدث به الواقدى قال : لما أُسر ضرار بن الأزور فى وقعة أجنادين ، سار خالد بن الوليد فى طليعة من جنده لاستنقاذه . فبينا هو فى الطريق ، مرّ به فارس معتقل رمحه، لا يبين منه إلاّ الحَدَق ، وهو يقذف بنفسه ، ولا يلوى على ما وراءه . فلما نظره خالد قال : ليت شعرى من هذا الفارس ؟ وايم الله إنه لفارس ثم اتبعه خالد والناس من ورائه ، حتى أدرك

---

(١) أخرج هذا الحديث من سيرة ابن هشام وانسان العيون والآثار المحمدية وطبقات ابن سعد والاصابة وأسد الغابة . ونسيبة من بنى مازن بن النجار أحد بطول الأنصار وزوجها الذى ثبت فى أحد معها زيد بن عاصم وابناها حبيب وعبد الله ابنا زيد . وكان حبيب قد سار فى رفقة خالد بن الوليد لقتال مسيلمة فقتل فأقسمت نسيبة أن تقاتل مسيلمة حتى يقتل أو تقتل فذهبت الى اليمامة واشتركت فى الموقعة التى قتل فيها مسيلمة وفيها قطعت يدها رضى الله عنها

جند الروم . فحمل عليهم ، وأمعن بين صفوفهم ، وصاح بين جوانبهم ، حتى زعزع كتائبهم ، وحطم مواكبهم . فلم تكن غير جولة جائل ، حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء . وقد قتل رجالاً ، وجندل أبطالاً . ثم عرض نفسه للموت ثانية ، فاخترق صفوف القوم غير مكترث ، وخامر المسلمين من القلق والاشفاق عليه شيء كثير. وظنه أناس خالدا . حتى إذا قدم خالد قال له رافع بن عميرة : مَن الفارس الذى تقدم أمامك ؟ فلقد بذل نفسه ومهجته ، فقال خالد : والله لأنا أشد انكاراً وإعجاباً لما ظهر من خلاله وشمائله ، وبينا القوم فى حديثهم ، خرج الفارس كأنه الشهاب الثاقب ، والخيل تعدو فى أثره . وكلما اقترب أحد منه ألوى عليه ، فأنهل رمحه من صدره ، حتى قدم على المسلمين ، فأحاطوا به وناشدوه كشف اسمه ، ورفع لثامه ، وناشده ذلك خالد ، وهو أمير القوم وقائدهم . فلم يحر جواباً . فلما أكثر خالد أجابه وهو ملثم فقال : أيها الأمير إنى لم أعرض عنك إلا حياء منك ، لأنك أمير جليل ، وأنا من ذوات الخدور ، وبنات الستور . وإنما حملنى على ذلك أنى مُحْرَقة الكبد ، زائدة الكمد ، فقال خالد : من أنت ؟ قالت : أنا خولة بنت الأزور . كنت مع نساء قومى ، فأتانى آت بأن أخى أسير . فركبت ، وفعلت ما رأيت . هنالك صاح خالد فى جنده ، فحملوا وحملت معهم خولة ، وعظم على الروم ما نزل بهم منها ، فانقلبوا على أعقابهم ، وكانت تجول فى كل مكان علّها تعرف أين ذهب القوم بأخيها ، فلم تر له أثراً ، ولا وقفت له على خبر.

على أنها لم تزل على جهادها ، حتى استنقذ لها أخوها .

ومن مواقفها الرائعة ، موقفها يوم أسر النساء فى موقعة صحورا . فقد وقفت فى النساء وكانت قد أسرت معهن ، فأخذت تثير نخوتهن ، وتضرم نار الحمية فى قلوبهن ، ولم يكن من السلاح شيء معهن . فقالت : خذن أعمدة الخيام وأوتاد

الأطناب ، ونحمل على هؤلاء اللئام ، فلعل الله ينصرنا عليهم . فقالت عَفْرَاء بنت عَفَار : والله ما دعوت إلى ما هو أحب إلينا مما ذكرت . ثم تناولت كل واحدة عموداً من عمد الخيام ، وصحن صيحة واحدة ، وألقت خولة على عاتقها عمودها ، وتتابع النساء وراءها . فقالت لهن خولة : لا ينفك بعضكن عن بعض ، وكُنَّ كالحلقة الدائرة ، ولا تتفرقن فتُملكن ، فيقع بكن التشتيت ، واحطمن رماح القوم ، واكسرن سيوفهم . وهجمت خولة ، وهجم النساء وراءها ، وقاتلت بهن قتال المستيئس المستميت ، حتى استنقذتهن من أيدي الروم ، وخرجت وهى تقول :

نحن بنات تُبَّعٍ وحِمْيَر ... وضربنا فى القوم ليس ينكر
لأننا فى الحرب نار تُسْعر ... اليوم تُسْقَوْن العذاب الأكبر[1]

﴿ صفية بنت عبد المطلب ﴾

هى عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأم الزبير بن العوام أحد القادة العظام فى الاسلام . وكان من حديثها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — لما ثار عليه الاحزاب من قريش وحلَفائهم وذهبت جموعهم الى المدينة تريد القضاء على المسلمين جميعاً — جمع النساء والصبيان فى حصن بنى حارثة ، حتى لا يمسهم السوء . واعتصم بالحصن يومئذ حسان بن ثابت ، وكان ضعيفاً واهن القلب . وكانت صفية يومئذ بين النساء . فبينا هى مشرفة من الحصن ، بصرت بفارس يهودى يطيف بالحصن . فخشيت أن يقتحمه ، أو يدل عليه . فقالت لحسان : إن هذا اليهودى يطيف بالحصن ، وانى والله ما آمنه أن يدل علينا مَن وراءنا من يهود وقد شُغل عنا رسول الله وأصحابه ، فانزل اليه فاقتله . قال : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ! والله لقد

(١) فتوح الشام للواقدى ص ٢٨ — ٢٩ طبع مصر

عرفت ما أنا بصاحب هذا . حتى اذا يئست منه ، احتجزت بثوبها ، واحتملت عموداً ، ونزلت إليه ، وهو ملتمع السلاح . فنازلته فقتلته . ثم قالت : يا حسان : انزل إليه فاسلبه ، فانه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل قال : مالي بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب[١] .

﴿ ليلى بنت طريف ﴾

أخت القائد البطل الثائر الوليد بن طريف الشيباني .

كان أخوها الوليد بقية أبطال الخوارج الذين خرجوا على الخلفاء ، وروّعوا جندهم ، وحطموا كتائبهم .

خرج الوليد على الرشيد فأمعن في جنده فتكاً وقتلاً . وكلما ساق إليه الرشيد فريقاً ، كان كهشيم الكلأ في ضرام النّار . فرماه بعد أن أعياه بقائده يزيد بن مزْيد الشيباني . فظهر يزيد عليه فقتله . فخلفته على قيادة جنده أخته ليلى . فأطبقت بهم على جند الرشيد ، حتى خلعت قلوبهم ، ومزقت أوصالهم ، وقالوا : لا تكون هذه إلا أخت الوليد ، لأن فعلها بفعله أشبه . حتى إذا أبصر يزيد الوهن في جنده ، قال : دعوها . ثم خرج اليها ، وضرب بالرمح قطاة فرسها ، وقال : أعزبي ، عزب الله عليك ، فقد فضحت العشيرة ، فاستحيت وانصرفت . وأقامت بعد ذلك بنجوة عن العيون ، تبكي أخاها ، بمراث تستنزف العبرات ، وتستثير الزفرات[٢] .

﴿ غزالة الحرَورية ﴾

زوج القائد البطل المخوف شبيب بن يزيد ، قائد الخوارج وبطلهم ، والقائم بالأمر فيهم .

---

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٤ وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٤٣ طبع بولاق
(٢) الأغاني ج ١١ ص ٩ وابن خلكان ج ٢ ص ٢٣٧ طبع المطبعة الميمنية

وهى إحدى القادة الكفاة ، الذين دوخوا البلاد ، وروعوا الجيوش ، وملأوا القلوب أثراً ، والأفواه خبراً ، والأرض عبراً .

وكانت هى وزوجها يليان قيادة الخوارج . وكان الحجاج بن يوسف مبيد العراق، وسفاك بنى أمية ، يستمع خبرها ، فيمتلىء قلبه رعباً ووهلا .

وقد حدثوا : أنه خرج فى جنده ، وكلهم شاكى السلاح ، مستكمل العدة ، مرهوب الصولة . فعرضت له غزالة فى أربعين ، وهو فى أربعة آلاف . فما لبث أن اختلط عليه الأمر ، وخلع قلبه الفزع ، وولّى هارباً يخلط فى قوله ، وهو أعرف الناس بمواطن القول ، وأرفقهم بأساليب الكلام . ولكنه عُقل قلبه ، فعُقِلَ لسانه . وفى ذلك كتب عمران بن حطان إلى الحجاج ، وكان الحجاج قد لجّ فى طلبه[1] :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحى طائر
صدعت غزالة جمعه بعساكر تركت كتائبه كأمس الدابر

وبلغ من جسارتها ، وقوة قلبها ، أنها أقسمت لَتُصَلِّيَنَّ فى مسجد الكوفة ركعتين ، تقرأ فى الأولى سورة البقرة ، وفى الثانية آل عمران ، والكوفة يومئذ معقل الحجاج ، ودار إمرته ، ومجتمع قوّته .

وقد برّت غزالة بقسمها . ودخلت مسجد الكوفة هى وزوجها . ولبثت تصلى ركعتين تستنفدان نصف النهار . ولما أنبىء الحجاج بها ، تحصن فى قصره واستوثق من رتاج بيته .

وقد رمى الحجاج غزالة بخمسة جيوش ، وهى تلتهمهم التهاماً ، حتى أصبحت طِباق العراق ترتجف لإسمها . وفى ذلك يقول أيمن بن خُزَيم[2] :

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٨ (٢) الأغانى ج ٢١ ص ٨

أتينـا بهم مائتى فارس ... من السافكين الحرام العبيطا

وهم مائتا ألف ذى قَوْنَسٍ ... يئط العراقان منهـم أطيطا[1]

رأيت غزالة إن طَرَّحَتْ ... بمكة هودجها والغبيطا[2]

سمت للعراقين فى جمعها ... فلاقى العراقان منها بطيطا[3]

ألا يستحى الله أهل العرا ... ق إن قلدوا الغانيات السموطا

وخيـــــل غزالة تسبى النسا ... ء وتحوى النِّهاب وتحوى النبيطا[4]

وقتلت غزالة خدعة فى موقعة الكوفة بين شبيب و بين الحجاج . غافلتها فرقة من جند الحجاج من ورائها بينما كانت تخوض فى صدور جنده .

ومن بعدها قُوِّض جند شبيب وعفا أثره[5] .

***

﴿ وبعد ﴾ فذلك شيء من حديث النساء فى الحروب أفضنا فيه بعض القول لتعلم أن المرأة لم تدع للرجل فضيله يَثْنى عِطفه بها . وما كان شيء من ذلك لجفوة فى الْخُلق ، ولا نَبْوَة فى الطبع ، وهن الْخَفِرَات اللواتى يَفْرِرن من الْمندية ويرتعين على الموت . وما كانت شجاعتهن أثراً من الغلظة ، وظمأ إلى الدماء ، ولكنها كما أسلفنا قوة فاضت بها وَفْرَة الصبر ، وابتعثتها قوة اليقين . واذا كانت أثبت من الرجل إيماناً ، وأصبر منه على ريب الزمان ، فما لها لا تكون فى ساعة المحنة أبسل منه وأشد ؟

وإذا كان العرب يقولون : « الشجاعة صبر ساعة » فلم لا تكون أشجع الناس عند البلاء ، وهى أصبرهم على اللأواء ؟

---

(١) القونس أعلى بيضة الحديد والأطيط الصياح أو المزوج بالأنين منه (٢) الغبيط الرحل
(٣) البطيط العجب أو الداهية (٤) النهاب — جمع نهب — الغنائم والنبيط جيل من الناس يسكنون البطائح بين العراقين (٥) ابن جرير ج ٨ ص ٨٥٣ — ٩٦٨ طبع أوربا

ونحن لا ندع القول فى شجاعة النساء يمر ، حتى نختمه بحديثين . ومنهما تعلم إلى أى حدّ بلغ ثبات المرأة ، ووفور ثقتها بنفسها ، واستمكانها من موقفها .

أما أولهما فما حدّث ابن سعد عن أنس بن مالك ، قال :

شهدت أم سليم « حُنينا » مع رسول الله ، ومعها خنجر قد حزمته على وسطها ، وإنّها يومئذ حامل بعبد الله بن أبى طلحة . فقال أبو طلحة : يا رسول الله أن أم سليم معها خنجر . فقالت : يا رسول الله أتخذه إن دنا منى أحد من المشركين بقَرت بطنه ، أقتل به الطلقاء ، وأضرب أعناقهم إن انهزموا بك .

فتبسم رسول الله وقال : يا أم سُلَيم ، إن الله قد كفى وأحسن[1] .

وأما الثانى فما رواه الجاحظ فى البيان والتبيين قال :

كان حبيب بن مَسْلمة الفهرى رجلاً غَزّاء للترك . فخرج ذات مرة إلى بعض غزواته ، فقالت له امرأته : أين موعدك ؟ قال : سرادق الطاغية ، أو الجنة إن شاء الله تعالى . قالت : إنى لأرجو أن أسبقك إلى أى الموضعين كنت به . فجاء ، فوجدها فى سرادق الطاغية ، تقاتل الترك[2] .

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٣١٠ — ٣١٧   (٢) البيان والتبيين ج ٢ ص ١٤٣

المرأة المسلمة
وأثرها في النهضة والحضارة

ليس بدعا من المرأة التى وثب بها الاسلام الى أبعد غاية من كمال النفس ، وسمو الحياة ، أن تكون العضد الأقوى ، والساعد الأشد ، فى نشر آيته ، وبلوغ غايته .

لقد وضح صبح الاسلام فظهرت المرأة العربية فى مشرق نوره ، ملأى اليدين من حق موفور ، وفضل مأثور . فياضة النفس ، بما شئت من وجدان وايمان . ثم أبصرت فاذا مجال القول متسع ، ومُستبق العمل فسيح . فانطلقت تستن ملء عنانها ، وهنالك ، فى أبعد شأو الفضيلة ركزت لواءها ، واعتمدت بناءها ، فتساقطت الألوية ، وانتقضت الأبنية دونها .

فى تصريف الحوادث ، وفى تكوين الرجال ، وفى نشر مطارف العلم ، ونثر طرائف الأدب ، تجد أثرها أشبه ما يكون بأثر الغدير الهادئ الفياض ، فى زهر الرياض .

ونحن أولاء مرسلو القول فى كل آثارها ، مستعينين بمعونة الله ، وحسن توفيقه ، فهو وحده مرجع الأمر ، وولى التوفيق .

١ — أثرها فى تصريف الحوادث

تتابعت فى الاسلام حوادث عظام ، وتناوبته شدائد ثقال . وهى على عظمتها ، وفدح أمرها ، لم تقع بمنجاة عن المرأة ولا بمعزل عن تصريف زمامها وتدبير الرأى فيها .

وهى ان تنوولت بالنقد فى بعض تلك المواطن ، فتلك سنة التاريخ فى كل عمل عظيم ، من عامل عظيم .

ونحن مجملون لك القول فى تلك الحوادث ، ومبلغ رأى النساء فيها ، واستمكان أثرها منها .

***

حديث النبوة

﴿ خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت أسد ﴾

لئن أصيب رسول الله من رجال قريش بكل فادحة موقرة ، لقد لقى من امرأتين منهم ما هوّن عليه أمرهم ، وذهب بالشديد المؤلم من نوائبهم .

هاتان هما خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت أسد .

أما خديجة ، فكانت له صلى الله عليه وسلم منذ أوّل ساعات النبوة .

لقد نزل عليه الروح الأمين أول ما نزل فى غار فى الجبل ، فلم يكن ما رآه بشراً من الناس ، ولا خلقاً مما يتخيله المتخيلون . فأقرأه ماشاء الله أن يقرئه من آى الكتاب الكريم . ثم أخذ يتراأى له فى طريقه بين السماء والأرض ، فلا يلتفت يمنة ولا يسرة حتى يراه ، فيقف لا يتقدم ولا يتأخر .

كل ذلك ورسول الله بين شعاب الجبال ، وفى وحشة الطريق ، فلا أنيس ولا سمير ، ولا معين ولا نصير .

لم يزل النبي فى موقفه هذا ، حتى انصرف المَلَك عنه ، فانصرف هو الى زوجه خديجه فزعاً مرعُوباً مما سمع ورأى . فلما بصرت به قالت : أين كنت يا أبا القاسم ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبك حتى بَلَغُوا مكة ، ثم رجعوا إلىّ . فحدثها رسول الله

حديثه . فقالت : أبشِر يا ابن عم وأثبت ، فوالذى نفس خديجة فى يده ، انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة .

ثم قالت له : أتستطيع أن تخبرنى بصاحبك هذا الذى يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم . قالت : فاذا جاءك فأخبرنى به . فجاءه جبريل متراثياً بين أقطار الغرفة فقال رسول الله لخديجة : هذا جبريل قد جاءنى . قالت : قم يا ابن عم فاجلس على فخذى اليسرى . فقام رسول الله فجلس . قالت هل تراه ؟ قال : نعم . قالت : قم فاجلس على اليمين . فقام . فتحوّل عليها . فقالت : هل تراه ؟ قال : نعم . ثم تحسَّرت وألقت خمارها ، وقالت له : هل تراه ؟ قال : لا . قالت : اثبُت وأبشر ، فوالله إنه لَمَلَك وما هو بشيطان .

بعد ذلك قامت ، فجمعت عليها ثيابها ، وانطلقت الى ابن عمها وَرَقة بن نوفل — وكان رجلًا عليماً نافذ العلم فى التوراة والانجيل ودقائقهما وأخبار النبوة الأولى — فأخبرته خبر رسول الله . فقال ورقة : قدُّوس قدُّوس ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وانه لنبى هذه الأمة ، فقولى له : فليثبت . فرجعت خديجة بقول ورقة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت آية البِشر والبُشْرى له .

على ذلك النسق البديع الفريد ، سارت خديجة أم المؤمنين فى تثبيت قلب النبى ، وترويح نفسه ، وتأييد أمره . فلم ير شيئاً يحزنه ، من ردٍّ عليه ، وتكذيب له ، وسخرية به ، ونفور منه ، إلا فرجت صدره ، وأذهبت حزنه ، وأثلجت قلبه وهونت الأمر عليه .

تلك هى خديجة التى بعث الله اليها تحيته ، فنزل بها جبريل على رسول الله فقال له : أقرئ خديجة السلام من ربها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك . فقالت : لله السلام ، ومنه السلام ، وعلى جبريل السلام .

ولعمرك انها لمثوبة من الله ما ظفر بها أحد من السابقين الأولين ، والخلفاء الراشدين . ذلك لأن موقفها يومئذ أبرُّ برسول الله ، وآثر فى بسط دعوته ، وتأييد أمره ، من مواقف الأبطال المُعْلِمَةِ ، على الخيل المسَوَّمَةِ .

وفى السنة التاسعة من ذلك الجهاد العظيم ، ماتت خديجة ، فاشتد حزن رسول على أعز نصرائه ، وأصدق وزرائه .

ماتت خديجة ولكن عظمة المرأة لم تمت . فقد خلفتها على رعاية النبى وتأييده وتثبيته وتدبيره ، امرأة لم تكن دونها رأيا ، ولا عطفاً ولا عقلًا ، ولا جاهاً ولا منصباً وتلك هى فاطمة بنت أسد زوج أبى طالب بن عبد المطلب ، عم النبى ، وأم أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ، قائد المسلمين ، وصهر النبى الأمين .

لم تكن فاطمة رضى الله عنها خلفاً من خديجة فحسب ، بل كانت كذلك خلفاً من أبى طالب فى الذود عن النبى . والانتصار له ، ورفع الصوت حرّا نديّا فى سبيله ولم يزل ذلك شأنها ، حتى هاجر رسول الله إلى مهبط أمنه ، ومستقر أنصاره ، فتبعته فى هجرته . فكان بيتها فى المدينة ، كما كان فى مكة ، مآباً طيباً ، ومقيلًا كريماً .

وكما كانت فاطمة فى نصرة الله ، وتأييد رسوله ، منقطعة القرين — كذلك كان لها رسول الله يوم لحقت بربها . فقد كفنها فى ثوبه ، ونزل فى قبرها ، واضطجع فيه ، فكان حقاً على القبر أن يشرق بنور الله ، ويَعبق برَوحه ، ويفيض برحمته .

وقد قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : ما رأيناك صنعت بأحد ما صنعته بهذه فقال : انه لم يكن بعد أبى طالب أبرّ بى منها[1] .

ذلك فضل الله يختص به من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

(١) ابن جرير ج ٤ ص ١١٣٧ — ١١٥٦ طبع أوربا وكتاب الطبقات ج ٧ ص ١٢ — ١٤ الاصابة ج ٨ ص ١٦٠ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ٨٠ — ٨٣

حديث الهجرة

﴿ رُقَيْقَة بنت صيفيّ وأسماء بنت أبي بكر ﴾

تتصل رُقَيقة برسول الله فى هاشم بن عبد مناف . فهو جدها وجد أبيه . وكانت أسن من عمها عبد المطلب . فلما أدركها الاسلام كانت قد تطاول عليها القِدَم ، وجاوزت حد الهَرَم .

تلك هى المرأة التى استَشَفَّتْ خبر قريش يوم ائتمَرُوا بالنبي ليقتلوه ليلًا فى كِسْر داره . فذهبت تدرُج حتى انتهت الى رسول الله ، فحذرته مبيته فى داره ، وأشارت عليه بالنقلة والرحيل ، وحدثته حديث القوم . ففارق لساعته وطنه الأعزّ مدرج طفولته ، ومعقد أُلفته ، ومهبط نبوته ، ومُرتقى مناجاته وعبادته — الى دار هجرته ، وموطن أنصاره وشيعته . واتخذ صاحبه الصِّدِّيق رضى الله عنه رفيقاً له ، وتَرَكَ ربيبه وابن عمه عليًّا عليه السلام . فنام على فِرَاشه ، وتسجى ببردته ، وشغل بنومه جماعة المتآمِرِين المترصدين المتهامسين على رسول الله ، الضاربين النطاق حول داره ، عن تأثّره ، واغتياله فى عُرض الطريق[1] .

ولعل هناك من يقول : وأى عظمة تجدها فى امرأة سمعت خبراً فألقته كما سمعته ؟ ذلك قول مَن لم يستبطن الأمر ، ويتبين دخيلته . فان فئة قليلة العدد خطيرة الغَرَض ، من هامات القوم ، وأشداء فتيانهم ، بيّتوا أمرهم ، واحتجَزُوا خبرهم عن بقيّتهم ، والممالئين لهم ، وتعاقدوا وتعاهدوا وتحالفوا ألا يذيعوه ، حتى يمضوه — فئة ذلك شأنهـا ، وتلك غايتها ، ليس بالهَيّن اليسير كشف أمرها ، والوقوف على ذوات نفوسها ، واستنقاذ رسول الله من كيدها ، وشر غائلتها .

---

(١) ابن سعد ج ٧ ص ٣٥ والاصابة ج ٨ ص ٨٣

ذاك حديث خفىَ عن الناس جميعاً ، مسلميهم ومشركيهم . فأى جُهد من التدبير ، ونفاذ من الحيلة ، بذلته تلك التى أنافت على المائة ، وأشرفت على ثنية الوداع ، حتى حسرت الحجُبَ عنه ، فنقلته ولم تأمن على نقله ابنها مَخرمة ابن نوفل ، وهو من لُحمة النبى ، وذوى صحبته ؟

أمَا لقد اتخذ الله المرأة يوم ذاك كما اتخذها منْ قبله آية لطفه الخفى ، ووحى إرادته البالغة فى أعظم حوادث الإسلام خطراً ، وأبقاها أثراً ، وأدومها على مَرّ الدهور ذِكراً ، وأقومها ببناء الإسلام ، وأكْفلها بوضَح محجته ، واستطارة دعوته .

تنقلت العظائم من يد طاهرة ، الى يد طاهرة . فبعد أن دعمت العجوز الفانية رُقَيقة بنت صيفى أثرها ، أقامت الفتاة الحَدَثة أسماء بنت أبى بكر أثرها .

لقد أُعجِل النبى وصاحبه عن ابتغاء الزاد ، وشَغَلهما الغرض الأسمى عن العَرَض الأدنى . فسارا خفيفين إلى غار فى الذروة العلياء من جبل ثور ، إخفاء لأمرهما ، وإعياء للذاهبين فى أثرهما . فكانت أسماء تُمَسّيهما كل ليلة بالزاد والماء وبما عسى أن تكون قد سمعته ، أو رأته ، من حديث القوم وخبرهم[1] .

ثلاثة أميال إلا قليلاً كانت تقطعها الصبية الناشئة فى جوف الليل ، ووحشة الطريق ، بين أسنة الصخر ، ومساخات الرمال ، ماشية متخفية ، حذرة مترقبة ، حتى تضعد إلى هامة الجبل ، ثم تنحدر فى جوفه ، فتوافى رسول الله وصاحبه بما قصدت له .

تلك هى الصبية التى تركت الوِلْدان والوَلائد من لِدَاتها وأترابها يغدون إلى ملاعبهم ، ويأوون إلى صدور أمهاتهم ، وذهبت إلى حيث يعجز أشداء الرجال وأبطالهم . فأى قوة تلك التى أمدها الله بها ؟ وأى قلب ذلك الذى أودعه الله

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧١ طبع بولاق

بين ضلوعها ؟ وأية عَزْمة تلك التى خفقت فى نفسها ، والْتاعت بين جوانبها ؟

ذلك مثلٌ من تلك النفوس التى استخلصها الله لدينـه ، واصطنعها لدعوته ، ونفث فيها من رُوحه ، فكانت مستقر الكمال ، ومجتمع أشتات الفضائل .

ولعمرى لئن سلمت أسماء من عثرات الطريق ، لقد محنت بالشديد المؤلم من بلاء قريش وأذاهم ، وهى وادعة فى كسر دارها . فلقد أحاط بها رجال القوم ذات صباح ليتعرفوا منها أمر أبيهـا . فأنكرت أمره ، وتجاهَلت خبره . ثم أمعنوا فى محنتها ، واشتدوا فى أذاها . حتى لقد لطمها الشريف النذل أبو جهل ابن هشام لطمة طار لها قرطها ، فلم يوهِن ذلك شيئاً من عَزِيمتها ، ولا عبث بمكنون سرها[1].

كذلك اقتحمت أسماء ذلك الطريق الرائع المخوف ثلاث ليـال متواليات . وفى الليلة الثالثة — وهى ليلة الزماع على مفارقة الغار إلى عرين الأنصار — وافتهما بزاد السفر كله . فلما آذن رسول الله بالرحيل ، نهضت لتُعَلِّق سفرة الزاد ، فإذا ليس لها عصام ، فلم تجد ما تعصمها به إلاّ نطاقها ، خرجت عنه فشقته نصفين . فعصمت السفرة بنصفه ، ووكأت السقاء بباقيه . فأبدلها الله بنطاقها ذلك نطاقين فى الجنة .

كذلك وعدها رسول الله فسُمّيت منذ ذلك اليوم ذات النطاقين .

ونذكر من شجون الحديث حديثاً لأسماء ، يتصل بطرَف من الهجرة ، قالت :

لما خرج رسول الله وخرج أبو بكر معـه ، احتمل أبو بكر ماله كله . خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف . فانطلق بها . قالت : فدخل علينا جدى أبو قحافة ، وقد ذهب بصره . فقال : والله إنى لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه . قالت : قلت كلا يا أبت ! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً . قالت : فأخذت أحجاراً

---

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧٢ طبع بولاق

فوضعتها فى كَوَّة فى البيت ، كان أبى يضع ماله فيها ، ثم وضعت عليها ثوباً ، ثم أخذت يده ، فقلت : يا أبت ضع يدك على هذا المال . قالت : فوضع يده عليه فقال : لا بأس إذا ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفى هذا بلاغ لكم . ولا والله ما ترك لنا شيئاً ، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ بذلك[١] .

***

﴿ وبعد ﴾ فكل ما أوردناه من حديث تينك المرأتين ، لم يكن كل حديث النساء فى الهجرة . بل لقد هاجر العدد الموفور منهن فى رفقة أزواجهن إلى الحبشة ، وإلى المدينة . فلم يكنّ فى مهنة العمل وتهيئة الطعام فحسب — فليس من عادة العرب ، ولا سنة الإسلام ، إذا غدا الرجل إلى قطر سحيق كالحبشة أن يُجَشِم امرأته ذل الغربة ، وأوعار الطريق . ولكنهن خرجن — كما خرج الرجال — فى طاعة الله . وهاجرن — كما هاجروا — فراراً بدينهن . وذهبن فى أزر أزواجهن ، مشيرات مؤتمنات ، ومعينات صادقات . فابْنَ مآبَ الرجال: فضل زكى ، وأجر غير منقوص.

ومما يحمل ذكره فى هذا الموطن ، ما رواه ابن سعد عن أبى حمزه ، قال :

لما قدمت أسماء بنت عُميس من أرض الحبشة ، قال لها عمر بن الخطاب : يا حبشية ، سبقناكم بالهجرة — وأحسبه قالها فاكِهاً — فقالت : إى لعمرى لقد صدقت ! كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم ، ويعلم جاهِلكم ، وكنا البعداء الطرداء . أما والله لآتينّ رسول الله فلأذكرن ذلك له . فأتت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ان رجالاً يفمزون علينا ، ويزعمون أنّا لسنا من المهاجرين الأولين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل لكم هِجرتان ، هاجرتم إلى أرض الحبشة ونحن مُرْهَنون بمكة ، ثم هاجرتم بعد ذلك إلىّ[٢] .

---

(١) ابن جرير ج ٤ ص ١٢٣٥ — ١٢٤٠ وسيرة ابن هشام ج ١ ص ١٧٢

(٢) كتاب الطبقات الكبير ج ٧

ألم تر إلى الذين هَبطوا من الحبشة كيف قامت المرأة بحجتهم ، وفيهم أربعة وثمانون رجلاً ، كلهم مُشَيّع القلب ، مصقول اللسان ، فلا دفع منهم ولا استكْراه . وهل رأيت إلى المرأة كيف فاءت بأمرها إلى رسول الله ، ولم تعرج به على زوجها ، أو تطلب الإذن منه فى خصومتها . ذلك لأن الأمر بينها وبين الله ورسوله ، فلا إمرة لأحد عليها ، أيًّا كان مكانه منها .

وكانت هِجرة رسول الله قد سبقت ببيعة العقبة ، وهى البيعة التى اتّعَدَ فيها رسول الله مع الأنصار خفية . فتوافدوا تحت جنح الليل بالعقبة . وكان وفد الأنصار ثلاثة وسبعين رجلاً ومعهم من نسائهم وذوات آرائهم اثنتان : هما نسيبة بنت كعب المازنية — وقد عقدنا لها فصلاً خاصًّا — وأم منيع أسماء بنت عمر السَّلَمِيّة ، وهى من أتم القوم عقلاً ، وأحكمهم رأياً . وقد شهدت مع رسول الله خيبر . فكان لها فيها المشهد الأروع ، والمقام المحمود[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام ج ٢١ ص ١٥٥ طبع مصر

أمر العقبة : — لما بسطت قريش أيديها وألسنتها بالسوء لرسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ يعرض نفسه على القبائل عله يجد من بينها ناصرا أو ظهيرا فلم يجد منها جميعاً أذنا صاغية ولا قلباً واعياً حتى لقى فى موسم الحج نفراً من الخزرج فعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن فصدقوه وآمنوا به وقالوا انا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين فان يجمعهم الله اليه فلا رجل أعز منك ثم انصرفوا عن رسول الله وقد بايعوه فلما عاودوا المدينة أذاعوا بها الاسلام فأجاب داعيتهم خلق كثير . حتى اذا كان موسم الحج من قابل ذلك العام خرج من المدينة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان الى رسول الله ليبايعوه ويؤتوه عهدهم وذمامهم أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم فتوافوا جميعاً بالعقبة اخفاء لأمرهم وكان مع رسول الله عمه العباس بن عبد المطلب وهو على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له فلما استقر المقام بهم قال العباس يامعشر الخزرج — وكانت قريش تطلق الخزرج على الانصار جميعاً — ان محمداً منا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده وانه قد أبى الا الانحياز اليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن فدعوه فانه فى عز ومنعة من قومه وبلده . فقال الانصار قد سمعنا ماقلت فتكلم يارسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلا القرآن ورغب فى الاسلام ثم قال أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال نعم والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما

وقد أعطى القومُ رسول الله ذمتهم ان يذودوا عنه ذيادهم عن أعراضهم . وأعطاهم ذمته ألا يعود فيقيم مع قومه ، اذا دانت له أرضهم ، وقرت لحكمه نواصيهم .

فهل رأيت مثلاً أدل على سمو المرأة ، وعظم منزلتها ، ورعاية حقها ، مما ترى ؟ .

عهد سياسى حربى عظيم أُسدل عليه ستر من السر ، وألقى دونه حجاب من الليل . أترى القوم أنفوا أن يكون للمرأة فيه شأن ؟ . ولِمَ لا يكون لها ذلك الشأن وتلك مواقفها ومشاهدها ملء المسامع والأبصار ؟ .

وقد علمت فى جملة ما مر بك أن رسول الله يوم وافى المدينة ، بسط يده للنساء فبايعهن ، كما بسطها الرجال فبايعهم .

من ذلك كله تعلم أن الهجرة بيد المرأة مهدت واختمرت ، وعلى يدها تكونت وتكاملت ، وبرأيها وعزمها أثمرت وأينعت .

حديث الخلافة

أو

﴿ المرأة المسلمة بين الحرب والسياسة ﴾

مازال المسلمون منذ لحق النبي بربه وهم من أمر خليفته ، والقائم بالأمر من بعده ، فى فتنة غاشية ، تعصف بهم تارة وتقر دونهمْ ، رابضة مترصدة متحفزة تارة أخرى . فهى يومئذ غافية غفوة الذئب ، نائمة هاجعة ، ساكنة مستجمة .

تمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر . فاعترض القول أبو الهيثم بن التيهان فقال يارسول الله ان بيننا وبين الرجال — يريد اليهود — حبالا ونحن قاطعوها فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله ثم قال بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » :

ويقال الهدم الهدم أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم .

أقول وقد أسلفنا القول فى نسيبة بنت كعب . أما أم منيع فهى أسماء بنت عمرو بن عدى الانصارية السلمية احدى ذوات المكانة والرأى من نسوة الانصار . أسلمت حين تنفس صبح الاسلام بالمدينة وصحبت رسول الله إلى خيبر . وهى أم معاذ بن جبل أحد الائمة المعدودين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

كذلك تدافعت الحقب على الخلافة ، والدم ينعر من حروفها ، والمهج تسيل على أطرافها ، وشفار السيوف تصلّ من أقطارها ، ورسل الموت رائحة بأسود الغاب ، وفتيان الضراب ، من كل معتزم لو جرد فى سبيل الله عزمته . لفل بها الصفوف ، وجندل الألوف .

ولقد كان للمرأة فى كل تلك الأدوار رأى مائل ، وصوت مسموع ، وفى بعضها يد أيدة وبطش شديد . وذلك ما نحن آخذون بالقول فيه .

﴿ فاطمة[1] وأبو بكر ﴾

ترك رسول الله للمسلمين أن يختاروا بعده من يرتضونه لدينهم ودنياهم . ففى

(١) فاطمة الزهراء : هى سيدة نساء العالمين وبنت امام المتقين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم
ولدت صلوات الله عليها قبل النبوة بخمس سنين . وهى صغرى بنات رسول الله وأحبهن الى قلبه وأشبههن به فى خلق وخلق . وكان رسول الله يدعوها بأم أبيها وكانت فى نشأتها الأولى مضرب المثل فى أشتات الكمال ولها يقول صلى الله عليه وسلم ان الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك وفيها يقول : فاطمة منى يؤذينى ما آذاها ويريبنى ما رابها .

ولما صمت الى الثامنة عشرة من عمرها خطبها أبو بكر الى أبيها صلى الله عليه وعلى آله فقال يا أبا بكر انتظر بها القضاء ثم خطبها عمر فقال له مقاله لأبى بكر ثم اجتمع الى علىّ جماعة من أهله ورهط من الأنصار فقالوا له اخطب فاطمة فقال بعد أبى بكر وعمر ؟ فذكروا له قرابته من رسول الله فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما حاجة ابن أبى طالب قال ذكرت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبى مرحباً وأهلا لم يزده عليهما فخرج علىّ على أولئك الرهط فقالوا ما وراءك قال ما أدرى غير أنه قال لى مرحباً وأهلا قالوا يكفيك من رسول الله احداهما . وقد تم له ذلك الشرف الأسمى حين عاد الى رسول الله بالقول فقال له يا علىّ لست دجالا أعدك وأكذبك . وكانت خطبتها بعد مقدم رسول الله الى المدينة بخمسة أشهر وبناؤها بعد يوم بدر بشهرين . ولما كانت ليلة بنائها دعا رسول الله باناء فيه ماء فأخذ منه ومج فيه ثم دعا عليا فنضح منه على كتفيه وصدره وذراعيه ودعا فاطمة فأقبلت تعثر فى ثوبها حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ففعل بها مثل ذلك وقال لها يا فاطمة والله ما ألوت أن زوجتك خير أهلى .

وقد اختصها الله بذرية رسوله الطاهرة فلم يكن له عقب فى غيرها

وان القلم ليتعثر عيا ومعجزة حين يعرض لتلك الفضائل الملكية المقدسة التى كلل الله بها سيدة نساء العالمين . وحسبك أن تسمع قول عائشة : ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها .

أما علمها فهو فيض من علم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنها روى أبناها الكريمان وأبوهما وعائشة وأم سلمة وسلمي أم رافع وأنس بن مالك

وكانت وفاتها عليها السلام بعد ستة أشهر من موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . صلوات الله على تلك النفس الزكية والشمائل الملكية

اليوم الذى رجفت الأرض لموته صلى الله عليه وسلم ، سعت رجالات من المهاجرين والأنصار الى سقيفة بنى ساعدة ، وهناك — بعد جدال وحوار — بسطوا أيديهم الى أبى بكر يبايعونه .

على أن فاطمة بنت رسول الله أقامت فى عهدها القصير بعد رسول الله مجافية أبا بكر ، واجدة عليه .

وسواء أكانت تلك الموجدة لما رأت من انتزاع الخلافة من آل بيت النبى — وكانت تراها حقا لهم لا يطاولون فيه ، ولا يغالبون عليه — أو لحرمانها ميراث أبيها فى فدك ، وسهمه فى خيبر — سواء أكانت موجدتها لهذا أو لذلك فقد كف عن البيعة كرامة لها زوجها علىّ عليه السلام ، وانحاز بجانبه بنو هاشم جميعاً. وانضم اليهم أبو سفيان بن حرب رأس بنى أمية ، والزبير بن العوام بطل قريش وحوارى رسول الله . وأقام على والزبير بدار فاطمة لا يبرحانها .

كذلك لبثوا وبعض المسلمين لبعض رصد ، حتى لحقت الزهراء بربها . فانكشف بموتها ستر من ستور الهيبة الرائعة فى بنى هاشم . حتى لقد سعى عمر بن الخطاب بقبس من النار الى بيت على كرم الله وجهه ليحرقه . وهناك خرج له الزبير والسيف مصلت بيمينه ، يريد أن يصدع به رأس عمر ، لولا أن عثرت قدمه بحجر فى الطريق فوقع ووقع السيف من يده فأخذ . ولولا تلك العثرة المباركة لخضّب بالدم رأس من أرفع رؤوس المسلمين .

ولقد كادت الحرب تعود جذعة لولا حكمة من على حسمت الجرح ، ورأبت الصدع ، وجمعت الشمل . فخطب المسلمين خطبة ردت صغيرهم على كبيرهم ، وجمعت قصيهم وعصيهم ، ثم بايع أبا بكر . فلم يبق بعد ذلك مخالف عليه[1] .

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٤٩ وابن جرير ج ٤ ص ١٨٣٥ — ١٢٣٧ وبلاغات النساء ص ٢٤

﴿ عائشة وعُثمان وعليّ ﴾

تقضت أيام أبى بكر وعمر والمسمون فى أمنة من الفرقة . وقد فرغوا للجليل العظيم من أمرهم . فردوا المرتدين ، الى حظيرة الدين . ثم فتحوا العراق وفارس والشام ومصر وما وراءهن . حتى أصبحت الدولة الاسلامية يومئذ أورف الدول ظلا ، وأسمقها بناء . ثم أعقبتها أيام عثمان ، فبدأت الأرض تمور بالفتنة

لقد كان عمر صُلباً شديداً لا يبالى أن يُقنّع بِدرَّته وجه الشريف العظيم اذا مال به القصد ، وحاد عن الطريق . وكان عثمان حيياً خجولاً . يبتدر الرجل الهفوة بين يديه فيندى جبينه ، ويحمر وجهه . ومحال أن يروض الناس هذا بعد ذاك .

وكانت من عثمان الى المسلمين هفوات ساقها الضعف ، فأسخطتهم ، وأحفظت قلوبهم : منها انه استعان على عمله بالأحداث من بنى أمية ، فأخذوا يخسفون بعامة المسلمين ، ويضربونهم بالسياط ، ويعذبونهم بالمَساحى المُكْوَاة . حتى دوى الصوت من الحجاز إلى العراق إلى مصر بأن عثمان خليفة مستضعف ، وأن سواه أولى منه بخلافة المسلمين .

وكان مصدر هذا الصوت من سُدَّة عائشة أم المؤمنين . فتجاوبت أصداؤه وانشعبت جِواؤه .

ضاعف الثائرون ذلك الصوت وجوَّفُوه ، فكلٌ يقول : قالت عائشة ، وكتبت عائشة . حتى اتخذوا اسمها سبيلًا إلى الإغراء بدم الخليفة المظلوم ، كما اتخذوا اسم عليّ فى ذلك بهتاناً واثماً مبينا . على أن كليهما أراد النَّصَفة للمسلمين باستصلاح الخليفة أو اعتزاله . فكان ما جرى به القضاء ، وقتل عثمان فى بيته مظلوماً مخذولًا . واستَحَلَّ الثائرون منه الحُرم الثلاث : حرمة الخلافة ، وحرمة البلد الحرام ، وحرمة الشهر الحرام .

أبصرت أم المؤمنين ذلك ، وأبصرت قَتَلَة عثمان يذهبون إلى ديارهم موفورين وحسبت الهوادة فى القصاص ، فانصدع قلبها وذابت حشاشتها .

وان يك عثمان قد مات مظلوماً ، فقد عاش من بعده علىٌّ مظلوماً . ومن أشدّ مظالمته أن تُؤَلِّبَ أم المؤمنين عليه المسلمين . وأن تقود الجنود إلى قتاله ، فى وقعة الجمل ، لأنها اتهمته بالممالأة على عثمان ، كما اتهمها الناس بذلك . .

وفى موقعة الجمل ترامى جند عائشة على الموت كأن لهم فيه أرَباً ، حياطة لحرم رسول الله ، وذياداً عنها ، حتى لقد قتل حولها عشرون ألفاً ، وقُطِّعت على زمام هودجها سبعمائة يد ، وكلما نُزِعت عنه كف نَزَعت اليه أخرى . وكانت خاتمة القتال سقوط الجمل بما غشيه من النبال ، وما أصاب قوائمه من السيوف . ثم احتمل الهودج إلى دار عبد الله بن بُدَيل ، وهو أقرب الدور إلى ساحة القتال ومن هنالك آبت إلى المدينة بعد أن أحسن أمير المؤمنين مآبها ، وبعث فى رفقتها سبعين من نساء صحابته .

رحم الله أم المؤمنين، لقد اشتفَتْ من الداء بالداء . أما والله ما نفست على ابن عم رسول الله خلافته ، ولا وجدت عليه قديم أمره . ولقد كانت تدعو الناس اليه يوم قتل عثمان ، لأنها تعلمه أحق الناس بالأمر ، وأقربهم قرابة من رسول الله . ولكنها رأت حقًّا ضائعاً ، ودماً مطلولاً ، وألسنة مرجفة ، ووسطاء سوء ، فتعجلت ما رأته واجباً ، ولو صبرت لكان خيراً وأبقى ، ولعمرى لهى آثر عند الله وأبرّ ممن رأى وضح الحق فى زمرة علىّ ثم قعد عنه ، ونَكَل عن نصرته ، وانما الأعمال بالنيات ، وانما لكل امرئ ما نوى[1] .

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٥ — ٢٨٣ وابن جرير ج ٥ ص ٣٠٢٥ — ٣٢٢٦

﴿ نائلة بنت الفُرَافِصَة[1] وعليٌّ بن أبي طالب ﴾

على أن أمير المؤمنين لم يطمئنّ به الأمر، ولم تصف له الحياة، بعد أم المؤمنين فقد عَرَض له من النساء خصم جديد، ومن الرجال خصم جديد، وكلاهما اشتد أزره، وقوى أمْرُه بصاحبه. أما الرجل فمعاوية بن أبي سفيان، وأما المرأة فنائلة بنت الفرافصة، زوج الشهيد المظلوم عثمان بن عفان.

كانت نائلة من أعذب النساء قولاً، وأذكاهن قلباً، وأكملهن خلقاً ولما تسوَّر الثائرون على عثمان، وتبادروه بالسيوف، ألقت بنفسها عليه حتى تكون له وقاء من الموت. فلم يَرْعَ القتلة الأثمة حُرْمتها، وضربوه بالسيف ضربة انتظمت أصابعها، ففصلتهن عن يدها، ونفذت إليه لجندلته، ثم ذبحوه كما يذبح الحمل الذلول! رحمه الله ورضى عنه.

أرادت نائلة أن تنتقم. وحُقَّ لها أن تنتقم. ولكن ممن؟ لم تجد أمامها إلا علياً، فهو أمير الناس بعد زوجها، ووليّ الدم المضيِّعه في نظرها. ولم تجد إلا رجال الشام، وجند الشام، وأمير الشام. فهم أولى بأن تثير ثائرتهم، وتضرم نار الثأر فيهم.

أرسلت نائلة الى معاوية بأصابعها المزقة، وقميص عثمان المُخَضَّب، وأوحت اليه أن يعلق كل أولئك في المسجد الجامع في دمشق، وأن يقرأ على المجتمعين جميعاً ذلك الكتاب: —

من نائلة بنت الفرافصة، إلى معاوية بن أبي سفيان. أما بعد، فاني أدعوكم إلى الله الذى أنعم عليكم، وعلمكم الإسلام، وهداكم من الضلالة، وأنقذكم من الكفر،

---

(١) نائلة: هي نائلة بنت الفرافصة بن الأحوص الكلبية صاحبة عائشة وزوج عثمان. وأبوها سيد بنى كلب. وهي احدى اللواتى ذهب الدهر بمقالاتهن ومقاماتهن. وكان سعيد ابن العاص قد تزوج اختها فكتب اليه عثمان أما بعد فانه بلغنى أنك تزوجت امرأة من بنى كلب فاكتب الى بنسبها وجمالها فكتب اليه سعيد « أما بعد فان نسبها أنها بنت الفرافصة ابن الأحوص وجمالها أنها بيضاء مديدة » فطلب اليه عثمان أن يخطب أختها عليه

ونصركم على العدو ، وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً . وأنشدكم الله وأذكركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم ، فانه قال : « وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ » فان أمير المؤمنين بُغى عليه ، ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حق الولاية ، لحق على كل مسلم يرجو إمامته أن ينصره فكيف وقد علمتم قدمه فى الاسلام ، وحسن بلائه ، وأنه أجاب الله ، وصدق كتابه ، واتبع رسوله ، والله أعلم به اذا انتخبه فأعطاه شرف الدنيا ، وشرف الآخرة . وإنى أقص عليكم خبره — إنى شاهدة أمره كله : — إن أهل المدينة حصروه فى داره ، وحرسوه ليلهم ونهارهم ، قياماً على أبوابه بالسلاح ، يمنعونه من كل شيء قدروا عليه حتى منعوه الماء ، فمكث هو ومن معه خمسين ليلة ، وأهل مصر قد أسندوا أمرهم إلى علىّ ، ومحمد بن أبى بكر ، وعمار بن ياسر ، وطلحة ، والزبير ، فأمروهم بقتله ! وكان معهم من القبائل خُزَاعة ، وسعد بن بكر ، وهُذيل ، وطوائف من جُهَينة ، ومُزَينة ، وأنباط يثرب . فهؤلاء كانوا أشد الناس عليه . ثم أنه حُصِرَ ، فرشق بالنبل والحجارة ، فخرج ممن كان فى الدار ثلاثة نفر معه . فأتاه الناس يصرخون اليه ، ليأذن لهم فى القتال ، فنهاهم وأمرهم أن يردوا اليهم نبلهم ، فردوها عليهم ، فما زادهم ذلك فى القتل إلا جرأة ، وفى الأمر إلا إغراقاً ، فأحرقوا باب الدار ! ثم جاء نفر من أصحابه فقالوا إن ناساً يريدون أن يأخذوا من الناس بالعدل ، فاخرج إلى المسجد يأتوك . فانطلق فجلس فيه ساعة ، وأسلحة القوم مصلتة عليه من كل ناحية . فقال : ما أرى اليوم أحداً يعدل ! فدخل الدار . وكان معه نفر ليس على عامتهم سلاح ، فلبس درعه ، وقال لأصحابه : لولا أنتم ما لبست اليوم درعى . فوثب عليه القوم . فكلمهم ابن الزبير ، وأخذ عليهم ميثاقاً فى صحيفة بعث بها الى عثمان :

عليكم عهد الله وميثاقه ألاّ تقربوه بسوء حتى تكلموه وتخرجوا . فوضع السلاح ، فلم يكن إلاّ وضعه . ودخل عليه القوم يَقْدُمهم محمد بن أبى بكر ، فأخذ بلحيته ، ودعوه باللقب . فقال : أنا عبد الله وخليفته عثمان . فضربوه على رأسه ثلاث ضربات ، وطعنوه فى صدره ثلاث طعنات ، وضربوه على مقدم العين فوق الأنف ضربة أسرعت فى العظم . فسَقَطْتُ عليه ، وقد أثخنوه وبه حياة ، وهم يريدون أن يقطعوا رأسه ، فيذهبوا به ، فأتتنى ابنة شيبة بن ربيعة فألقت بنفسها معى ، فَوُطئنا وطئنا وطئاً شديداً ، وعرينا من حُلِيّنا ، وحُرْمةُ أمير المؤمنين أعظم ، فقتلوا أمير المؤمنين مقهوراً على فراشه ؟ . . . !

وقد أرسلت اليكم بثوبه عليه دمه ، فأنه والله إن كان أثِم مَن قتله ، فما سَلِمَ من خذله . فانظروا أين أنتم من الله ، وأنا أشتكى كل ما مسّنا إلى الله عز وجل ، وأستصرخ بصالحى عباده . فرحم الله عثمان ، ولعن قتلته ، وصرعهم فى الدنيا مصارع الخزى والمذلة ، وشفى منهم الصدور .

* * *

ذلك هو الكتاب الذى اجتمع لسماعه خمسون ألف شيخ من شيوخ الشأم يصيحون ويعجون بالبكاء تحت قميص عثمان ، وأصابع نائلة ، ويتقاسمون فيما بينهم ألاّ يمسوا غسلاً حتى يقتلوا عليًّا ، أو تفنى أرواحهم[1]

(نصراء علىّ من النساء)

وبرغم خصومة تينك المرأتين لعلىّ كرم الله وجهه ، كان جنده أحفل الأجناد بذوات القول الفصل ، والرأى الجزل ، من النساء . ولهن فى صفين مقامات ومواقف ، أشجت حلوق العدوّ ، وصكّت أسماعهم ، وروّعت نفوسهم

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٢

ومن هؤلاء بكّارة الهلالية ، وسودة ابنة عمارة ، وآمنة بنت الشريد ، وأم سنان بنت خيثمة ، وكثيرات من نظائرهن وأشباههن ، ممن أوتين جوامع الكلم ، وجمعن أشتات الحِكَم . ولنا إليهن عودة عند الكلام على مقالاتهن ، بين ازدحام الصفوف ، وتحت ظلال السيوف .

ولما تبدلت الأيام بعهد علىّ عهدَ معاوية ، كانت بلاد العراق مجالات الشيعة ، ومباءات الفتن ، ومواطن الانتقاض عليه . فرماها بداهيتى العرب ، المغيرة بن شعبة ، وزياد بن أبى سفيان ، واحداً بعد واحد ، وأوصاهما أن يلعنا عليًّا على المنابر ، وأن يتخذا السيف حَكَماً بينهما وبين الناس . فقام فى وجههما حُجْرُ بن عَدِى الكندى ، وانضم إليه شباب أهل العراق ، وجمهور من نسائهم . وبدأت المجامع تعقَدُ بنجوة من أعين الرقباء . وما زال أمر حجر يستطير ، وصوته يعلو ، حتى انتزعه زياد من العراق ، وقاده إلى معاوية ، فقتله .

وكانت هند بنت يزيد الأنصارية ممن شايعنه وناصَرْنه وأَعَنَّهُ . وهى امرأة قلّ أن تدانيها امرأة ، فى بُعد الرأى ، وقوة البيان .

ومن قولها ترثى حُجراً :

ترفّعَ أيها القمر المنير	تبصّر هل ترَى حُجْراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب	ليقتله كما زعم الأمير
تجبرت الجبابر بعد حجر	وطاب لها الخَوَرْنَقُ والسَّدِير
وأصبحت البلاد لها مُحُولا	كأن لم يحْيها بَرْق مطير
ألا يا حُجْرُ حُجْرَ بنى عدىّ	تلقّتك السلامة والسرور
أخاف عليك ما أردى عديًّا	وشيخاً فى دمشق له زئير

يَرَى قتل الخيار عليه حقًّا ‏ ‏ له من شر أمته وزير
فان يهلك فكل زعيم قوم ‏ ‏ من الدنيا إلى هُلك يصير[١]

ثم لما اقترف الخليفة المجرم الطاغية يزيد بن معاوية فَعلته ، بحفدَةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقام المختار بن أبي عُبَيد الثقفي للانتقام له ، والاشتفاء بالثأر من قَتَلته ، كان النساء في عونه ورفقته . وبهن وبمن اليهن من الرجال أوقع وقعته القاضية بالبغاة المعتدين . على أنه أخذ بالشبهة ، وأسرف في الدماء . فقصده مصعب ابن الزبير ، وغلبه على أمره . حتى ضرب عليه النطاق حول قصره بالكوفة . وفي تلك الساعة الضائقة المرهقة ، خلّاه رفاقه ، فلم يبق إلا الأوفياء المخلصون ، وقليل ما هم . على أن النساء بَدأن فِعالهُنّ كعادتهن في كل خطب فَدَح وجَدٍّ نبا . فلقد كانت المرأة تخرج من منزلها معها الطعام واللّطف والماء قد اتزرت عليه ، والتفعت فوقه ، وأرسلت خمارها على وجهها وصدرها ، كأنما تريد المسجد الأعظم للصلاة ، أو تقصد النُّقلة لذوات قرباها ، فاذا دنت من القصر فتح لها الباب ، فدخلت فتركت ما معها ، ثم خرجت لِطيّتها[٢] .

وكان في الكوفة بيتان لامرأتين يأوى اليهما غلاة الشيعة ، فيتسامرون ويتآمرون . وهاتان المرأتان هما هند بنت المتكلفة الناعطية ، وليلى بنت قُمامة المدَنية

وكانت ليلى لا تَليق شيئاً من مالها في سبيل نشر دعوتها ، وبث مبدئها . وكانت تبغض أخاها رفاعة بن قمامة لاقتصاده وفتور أريحيته[٣] .

ومن هنالك خفقت نسمة التشيع ، فانتظمت نَفْثتُها بلاد فارس وخراسان وما وراءها . وكان ذلك مما هيأ لآل رسول الله تنظيم دعوتهم ، وإقامة دعامتهم

(١) ابن جرير ج ٧ ص ١٤٦ (٢) ابن جرير ج ٨ ص ٧٣٤ (٣) ابن جرير ج ٨ ص ٧٣٦

حتى اقتادوا الجيوش من صوب خراسان ، فصدعوا بها ملك بنى مروان . على أن يد المرأة لم تترك مقادة تلك الثورة المبيحة المُنيحة .

فان أبا العباس السفاح ثائر بنى هاشم ، ووارث بنى أمية ، كان — على وفر فضله ، وعراقة مجده ، وسموّ فضائله — فقيراً مُقْتِراً . ومحال أن تنهض الثورات ويتاح لها الظفر — إلا بالمال .

هنالك قيض الله لمظيم بنى هاشم من ملأت قلبه عزماً ، ويده مالاً ، ونهجه وضحاً ونوراً ، وتلك هى زوجه أم سَلَمَة ابنة يعقوب بن سَلَمَة .

كانت أم سَلَمة قبل أن تصير إلى السفاح زوجاً لعبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . فكانت لذلك أعرف الناس بِسِرّ بنى أمية ، وأوقفهم على خبيئة أمورهم فلما هلك عنها اجتمع لديها ثراث زوجها وأبيها ، وكلاهما كان غنيًّا موفور الغنى . فأما ما ملكت من سماحة الرأى ، ورجاحة العقل ، فكان أوفر من مالها وأتم .

أرسلت أم سلمه مولاتها الى السفاح تخطبه ، وحمَّلتها سبعمائة دينار تقدمها اليه إن شكا الفاقة اليها . فلما عرضت الجارية أمر مولاتها ، قال : أنا مملق لا مال عندى . فقدمت اليه هدية سيدتها . وهنالك سارع السفاح الى الزوجة المواتية بمالها . وكان ما لقيه من نفاذ رأيها وإحكام تدبيرها ، أتمّ وأوفى . فلم يكن يصدر إلا عن رأيها ومشورتها ، وبها عرف مواطن الداء من أعدائه ، واليها كانت إفاءته فى خلافته[1] .

﴿ المرأة والخوارج ﴾

الخوارج قوم يبتغون الكمال فى الخلافة . فهم يريدون الامام العادل الثَّبْت ، الذى يقوم باجماع المسلمين ، وينزل من الأمر على شورى المسلمين . ذلك مبدؤهم الذى خرجوا به ، وقاتلوا الناس عليه . على أنهم أسرفوا فيه وغلوا غلوًّا كبيراً ، حتى

(١) الدر المنثور ص ٥٨

حسبوا كل وزر كفراً يُقاتَل مقترفه ، ويقتل عليه . وكانوا فى أول أمرهم قطعة من جند علىّ . فلما رضى بالتحكيم فى خلافته ، قالوا : علامَ يقتتل المسلمون وأمراؤهم فى شك من أمرهم ؟ ! ومنذ ذلك اليوم انفصلوا عن علىّ ، واستجازوا قتاله ، وقتال من بعده من الخلفاء .

وحجتهم فى الخروج على علىّ داحضة . فقد يكون التحكيم مما يبعثه اليقين بالحق ، والثقة بالعناية . كذلك شرع الخوارج لأنفسهم قتال كل خليفة لأنه اتخذ خلافة رسول الله تراثا عن أبيه . وحسِبَ المسلمين سواه هملا ، فساقهم بغير عهد منهم ولا رضى . ذلك ما يقوله الخوارج . ومهما يكن من أمرهم فقد استبسلوا فى سبيل غايتهم ، حتى أصبحوا مضارب الأمثال فى البسالة والجسارة .

وأوضح ظاهرة تراها فى فريق الخوارج ، نباهة ذكر المرأة ، ونزوعها منازع القادة الكفاة ، وقيامها فى الطرف القصى ، من تفدية الغرض ، والتضحية فى سبيله .

وكم احتمل نساء الخوارج من ولاة العراق وسفاحيه من نكال ووبال ، وتمزيق أوصال . فلم يك شيء من ذلك يروعهن ، ولا يَثلم غرضهن ، أو يحول غايتهن ، حتى تقاد المرأة منهن الى القتل ، صابرة راضية .

ولقد ظهر من الخوارج رجلان عظيمان ، قاما واحداً بعد واحد . كلاهما اجتمع عليه القوم ، وكلاهما لقب بامرة المؤمنين . وكلاهما استمد من امرأته الجليلَ من رأيه ، والشديد من قوته .

أما أولهما فقَطَرِىّ بن الفُجَاءة . كانت زوجه أم حكيم من أتمّ النساء ذكاء ومضاء ، وجمال وجه ، ونفاذ رأى ، وقوة بيان . ومن قوله فيها[1] :

لعمرك انى فى الحياة لزاهد وفى العيش ما لم ألق أم حكيم

---

(١) الكامل ج ٢ ص ١٣٦

مِنَ الخَفِرَات البيض لم يُرَ مثلها ... شفاء لذى بَثّ ولا لسقيم
لعمْرُك انى يوم ألطم وجهها ... على نائبـات الدهر جِـدُّ لئيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم

حتى يقول :

فلو شَهِدَتْنَا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الأله نفوسهم ... بجنات عدن عنـده ونعيم

وأما الثانى فشبيب بن يزيد ، وزوجه غزالة الحرورية . وقد أسلفنا ذكرها وأفردنا خبرها .

وكانت أمه « جَهيزة » بالمكان الأوفى من الشجاعة . وكانت هى وغزالة لا تُرَيان إلاَّ فى أخطر المواقف من الموقعة

وقالوا أن عِمران بن حِطَّان كان رجلاً من أهل السُّنة ، فتزوج امرأة من الشُّرَاة[1] من عشيرته وقال أردها عن مذهبها فذهبت هى به[2]

وكان أخطر ما قام به الخوارج قتلهم عليًّا عليه السلام ، قتله عبد الله بن مُلْجِم ، وما أغراه بذلك إلا أمه وإلا زوجه قَطَامِ ابنة علقمة التى طلبت صداقاً لها[3]

(ثلاثة آلاف وعبـد وقينة ... وضرب علىّ بالحسام المسمم)

ولعلك ذاكر ما فصّلنا من حديث « ليلى بنت طريف » فى عهد الرشيد مما يبين لك هو وأشباهه أن المرأة والرجل فى تلك الأيام كانا عودَى سرحة واحدة ، وشبلى عرين واحد

---

(١) الشراة جماعة الخوارج كان الرجل منهم يسمى نفسه شارياً أى بائعاً نفسه من الله وهو ينظر فى ذلك إلى قوله تباركت آيته « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

(٢) الأغانى ج ١٦ ص ١٤٦ — ١٤٧ (٣) الكامل ج ٢ ص ١٣٦

المرأة المسلمة
وأثرها في تكوين الرجال

فى قرن وبعض قرن ، وثب المسلمون وثبة ملأوا بها الأرض قوة و بأساً وحكمة وعلماً ، فراضوا الأمم ، وهاضوا الممالك ، وركزوا ألويتهم فى قلب آسيا وهامات إفريقية ، وأطراف أوربا ، وتركوا دينهم وشرعهم ولغتهم وعلمهم وأدبهم تدين لها القلوب وتنقلب بها الألسنة بعد أن كانوا فرائق بَدَداً لا نظام ، ولا قوام ولا علم ، ولا شريعة .

فنى أى المدارس درجوا ، ومن أى المعاهد خرجوا ؟

لقد قطع العرب تلك المرحلة التى سَهَمَ لها الدهر ، ووجَم لروعتها التاريخ ولم يقيموا معهداً أو ينشئوا جامعة ، استغفر الله ! بل لقد كانت خِصاصَهم وخيامهم ودورهم وقصورهم معاهد ومدارس وما شئت من مغارس حكمة ومغاوص آداب وَلِىَ أمرها أمهات صدق ، أقامهن الله على نشئه ، واستخلفهن على صنائعه ، وأرعاهن أشبال غابه ، وأئمنهن على بُناة ملكه ، وحُماة حقه ، ورعاة خلقه ، فكن أقوم خلفائه بواجبه ، وأثبتهن على عهده ، وأنهضهن بالفادح الشديد من أمره

لقد كان الله أبر بهؤلاء القوم من أن يخرجهم مُخرجاً سيئاً ، أو ينبتهم منبتاً فاسداً ، أو يضمهم الى صدور واهية وقلوب سقيمة ، ثم يسومهم أشرف مطالب الحياة ، ويوردهم أسمى مقاصدها ، ولو فعل لكان قد كلفهم شططاً وجشمهم محالاً

لأن الأم من الامة بمثابة القلب من الجسد، فهي غذاء أرواحها، ومران أعوادها ومفيض مداركها، ومبعث عواطفها، فان وهنت كان كل أولئك واهناً ضعيفاً.

لذلك كله عَمَد الاسلام الى المرأة أول ما عمد، فرد مظلمتها وأتم نصفتها ورفع شأنها، وأطلق عنانها، وثبت ايمانها.

لقد كانت نهضة المسلمين غريبة فريدة لأن المرأة كذلك كانت غريبة فريدة ولو لم تكن كذلك لكانوا فى عظيم أمرهم كـكل الناس بين جد وانتظار واقبال وإدبار. وإذا كانت المرأة الحديثة قد أنصتت لِلنكُولن زعيم الجمهورية الأمريكية وهو يقول لمهنئيه باسمى مناصب العالم « لا تهنئونى وهنئوا أمى فهى التى رفعتنى إلى مقامى هذا » إذا كانت قد أنصتت لذلك فازدهت وأشرقت وتطاولت واستشرفت — فان المرأة العربية المسلمة كانت تستمع لأشباه هذا الكلام من أشباه لنكولن فلا ينثنى جيدها ولا يهتز عِطفها لطول ما سمعته وألفته حتى لقد أصبح من بدائهِ العرب الظاهرة وعقائدهم الراسخة أن الهُجَناَء — وهم الذين لم تنجبهم نساء العرب — لا يُغْنُون فى المهم، ولا يكفون فى الملم، مهما أمعن آباؤهم فى شرف المنبت، ونبل الشمائل.

وما ظنك برجل من رجال البادية كعُقَيل بن عُلّفة المُرّى يخطب اليه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ابنته لبعض بنيه فيقول له « جنّبنى هجناء ولدك[1] ».

وشبيه بذلك ما حدثوا أن هشام بن عبد الملك قال لزيد بن على بن الحسين: بلغنى أنك تحدث نفسك بالخلافة. ولا تصلح لها لانك ابن أَمَة[2].

أو تدرى من تلك الأمة؟ انها ابنة ملك الفرس الذى كان العرب يُذكرون بين رعيته فلا يأبه بهم. أما أبوه فحفيد على بن أبى طالب وسليل رسول الله صلى الله

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٥٦ (٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٨ طبع بولاق

عليه وسلم . ذلك هو الذى قصّر به عن مدى الخلافة فى رأى هشام بل وفى رأى العرب يومئذ — أن أمه فارسية لم يجر الدم العربى بين نياط قلبها ، وحَنِيَّات صدرها

بل لقد كان الرجل يرجع إلى الأمهات ما يراه بين الأخوين من الفوارق التى لا تظهر صلتها بهن . ومثل ذلك ما قالوا أن عبد الملك بن مروان سابق بين سليمان ومَسْلَمَةَ ابنيه — وكان مسلمة هجيناً — فسبق سليمان . فقال عبد الملك[1] :

ألم أنهكم أن تحملوا هجناءكم ... على خيلكم يوم الرِّهان فتدرك

أرأيته كيف جعل فوز الفتيان بالسبق أثراً من جهد المرأة ونزعة من روحها وثمرة من تنشئتها وتربيتها مع أن الأمَّيْن امرأتاه والفتيين ولداه ؟

وأى غريبة تجدها فى ذلك ؟ أو لم يكن ركوب الخيل ، وادِّراع الليل ، واقتحام الهول نوازع من عزمة مُتَّقِدة وقوة غالبة ونفس حمية ؟ وهل فى كل أولئك شىء لم يرضعه فى دَرِّها ، أو يسمعه من ثغرها ، أو يقرأه على صدرها ، أو يَتَنَسَّمْه من بين سحرها ونحرها ؟

ولعل أوضح من ذلك علمهم بأن لها الأثر كله فى قوة بيان الرجل وتقويم لسانه .

وما رأينا أمراً أجمع عليه قالَةُ العرب وَمَنْ اليهم من أئمة اللغة ورواة الادب وأعيان البيان كإجماعهم على أن أول لوثة أصابت اللغة العربية لم يقذف بها إلاّ ألسنة الهجناء .

وليس ذلك بالأمر الذى يحوجه الدليل ويعوزه البيان . فان أمهات العرب لم يَكُنَّ يناغين أبناءهن وهن زهر غَض وصحائف بيض إلاَّ بكل مورق مثمر من القول فينشأ ناشئهن عذب البيان غدق اللسان

فأما بنو الاماء فما عساهم يسمعون إلاّ كل لفظ دعى من كل لسان عي

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٩٨ طبع بولاق

ولئن يكن الخضوع لذلك الحق — حق تفرد المرأة بتكوين الرجل والتأثير فيه — مما أفاض عليها قوتها وشد عزيمتها على المضى فى عملها والبلوغ بواجبها إن مما ضاعف ذلك كله احترامهم لها احتراماً لم ينله أحد سواها

لقد كان احترام الأم فى الجاهلية طبعاً مألوفاً فأصبح بالاسلام فوق ذلك فرضاً محتوماً ولعلنا أوردنا الكفاية من بيان ذلك فى تفاريق كتابنا

وكل ما فى الكتاب والسنة من أشادة بالأبوين واكبار لأمرهما وتعريف بحقهما يؤثر الأم ويرجح بفضلها ويفيض فى القول عنها

وإليك مثلاً من ذلك قول الله جل ذكره « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً » فانظر كيف أجمل سبحانه الأب ثم اختص الأم بفضل البيان ووضح الاقناع بأنها حملته مؤلمة ووضعته مؤلمة وليس الأب فى شىء من ذلك

وشبيه بذلك ما أسلفنا أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله من أحق بحسن صحابتى ؟ قال امك . قال ثم من ؟ قال أُمَّك . قال ثم من ؟ قال أمك . قال ثم من ؟ قال أبوك

وجاء رجل اليه صلى الله عليه وسلم فقال إن لى أُمًّا أنا مطيعها ، أقعدها على ظهرى ، ولا أصرف عنها وجهى ، وأرد اليها كسبي . فهل جزيتها ؟ قال لا ولا بزفرة واحدة

وهل أتاك نبأ أويس بن عامر القَرَنى ؟ ذاك رجل أنبأ النبي بظهوره وكشف عن سناء منزلته عند الله ورسوله وأخذ البررة الأخيار من آله وصحابته بالتماس دعوته وابتغاء القربى الى الله به وما كانت آيته إلا بره بأمه وذلك حديث مسلم عنه : كان عمر رضى الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم أفيكم أويس بن عامر؟

حتى أتى على أويس بن عامر فقال أنت أويس بن عامر؟ قال نعم . قال من مُرَاد ؟ قال نعم . قال كان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم ؟ قال نعم . قال لك والدة ؟ قال نعم . قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن من مراد ثم من قَرَن ، كان به أثر برص فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بَارٌّ بها ، لو أقسم على الله لأَبره فان استطعت أن يستغفر لك فافعل ، فاستَغفِرْ لِى . فاستغفر له ، فقال له عمر أين تريد ؟ قال الكوفة . قال ألا أكتب لك إلى عاملها ؟ قال أكون فى غبراء الناس أحب إلىّ [1]

كل ذلك وأشباهه مما جعل للأم المقام الأوفى والمنزلة التى ليس فوقها إلا الله ورسوله . وفى سبيل ذلك الاحترام نذكر ذلك الحديث الموجز

لما كانت موقعة أُحُد أغْرَتْ هند ابنة عُتبة بحمزة بن عبد المطلب من خالسه فصرعه — وكان قد قتل آلها يوم بدر — ثم نفذت اليه فبَقَرت بطنه ونزعت كبده . وجدعت أنفه ، وصلمت أذنيه ، وجاء بعدها أبو سفيان فأخذ يطعنه بالرمح فى فمه حتى مزقه

انقضت الموقعة وجثمان حمزة تكاد تَحيل معالمه لفرط ما مثل به . فلما وقف به رسول الله اشتد حزنه لما أصاب عمه البطل الكريم ، ووقف بنجوة منه ثم أبصر فوجد عمته صفيّة بنت عبد المطلب مقبلة لتنظر ما فعل القوم بأخيها فقال رسول الله لابنها الزبير دونك أمك فامنعها . وأكبر همه ألا يجدّ بها الجزع لما ترى . فلما وقف ابنها يعترضها قالت « دونك لا أرض لك ! لا أم لك ! » وهنالك رجفت أحناء بطل قريش وزلزلت قدماه واعتقل لسانه وكر راجعاً إلى رسول الله فحدثه حديث أمه فقال خل سبيلها

---

(١) صحيح مسلم شرح النوى ج ٥ ص ٢٢٣

كذلك انفرجت صفوف الناس لعمة رسول الله فسارت حتى أتت أخاها فنظرت اليـه فصلت عليه ، واسترجعت ، واستغفرت له ، وقالت لابنها قل لرسول الله ما أرضانا بما كان فى سبيل الله ! لاحتسبَنَّ ولأصبرن إن شاء الله[١]

فانظر إلى موقف البطل العربى حيال أمه وقد أمره رسول الله أن يقف دونها فيعترضها ! ولو سامه النبي أن يعترض الجيش اللهام لوقف فى سبيله غير هائب ولا مدفوع

وما له لا يعنو وجهه ولا ترتجف أضالعه لعظمة الأمومة وعظمة الْخُلق ! وهل رأت الأم قديمها وحديثها من سمو المرأة وجلال خلالها ما رأته من مثل صفية ! امرأة يمثل بأخيها كذلك التمثيل ثم تقف على جثمانه فلا تجاوز الصلاة له والاسترجاع عليه لأن جسده إنما مزق فى سبيل واجبه وحياطة دينه ! إن هذا لهو الخلق العظيم

ولقد كان الرجل وما يجاوز رأى أمه ولا يستشعر الغَناء عن مشورتها ونهج سبيلها مهما تطاول به العمر وأمعنت برأيه التجارب وحديث عبد الله ابن الزبير وأمه أسماء بنت أبى بكر آية بالغة ودليل كفيل بما نقول

ذلك أن عبد الله لبث على إمرة المؤمنين ، ودانت له العراق والحجاز واليمن ثمانى سنين ثم أخذ عبد الملك بن مروان يقارعه فانتقص منه العراق ورماه بعد ذلك بالحجاج بن يوسف فأخذ يطوى بلاده عنه حتى انتهى إلى مكة فطوقها ونصب المجانيق على الكعبة وأهوى بالحجارة عليها وفى الكعبة يومئذ أسماء بنت أبى بكر. وكان عبد الله يقاتل جند الحجاج مسنداً ظهره إلى الكعبة فيعيث فيهم ويَرُوع أبطالهم وليس حوله إلا القوم الأقلون عدداً والحجاج بين ذلك كله يرسل اليه

(١) انسان العيون ج ٢ ص وسيرة ابن هشام ج ٢ ص ٢٨٥ طبع أوربا

يمنّيه الخير ويمده بالامارة فى ظل بنى أميّه لو أغمد سيفه وبسط للبيعة يده

دخل عبد الله على أثر ذلك على أمه فقال يا أمّه ! خذلنى الناس حتى أهلى وولدى . ولم يبق معى إلا اليسير ومن لا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار وقد أعطانى القوم ما أردت من الدنيا فما رأيكِ ؟ فقالت اللهَ اللهَ يا بنى ! إن كنت تعلم إنك على حق تدعو اليه فامض عليه ولا تمكّن من رقبتك غلمان بنى أمية فيلعبوا بك . وان كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت . أهلكت نفسك ومن معك . وإن قلت إنى كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت نيتى فليس هذا فعل الأحرار ولا مَن فيه خير ، كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن ما يقع بك يا ابن الزبير . والله لَضربة بالسيف فى عز أحب إلىّ من ضربة السوط فى ذل . فقال : يا أماه ، أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى ، قالت : يا بنى إن الشاة لا يضرها السلخ بعد الذبح ، فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبّل رأسها وقال لها هذا والله رأيى ، والذى قمت به داعياً إلى الله . والله ما دعانى إلى الخروج إلاّ الغضب لله عز وجل أن تُهتك محارمه ، ولكنى أحببت أن أطلع على رأيك فيزيدنى قوة وبصيرة مع قوتى وبصيرتى ، والله ما تعمدت إتيان منكر ، ولا عملاً بفاحشة ، ولم أجُر فى حكم ، ولم أغدِر فى أمان ، ولم يبلغنى عن عمالى حيف فرضيت به ، بل أنكرت ذلك ، ولم يكن شىء عندى آثر من رضاء ربى . اللهم إنى لا أقول ذلك تزكية لنفسى ، ولكن أقوله تعزية لأمى لتسلو عنى . فقالت والله إنى لأرجو أن يكون عزائى فيك جميلاً ، إن تقدمتنى احتسبتك وإن ظفرت سررت بظفرك ، اخرج حتى أنظر إلام يصير أمرك . ثم قالت : اللهم ارحم طول ذلك القيام بالليل الطويل ، وذلك النحيب والظمأ فى هواجر مكة والمدينة ، وبره بأمه ، اللهم إنى قد سلمت فيه لأمرك ورضيت فيه بقضائك فأثبنى فى

عبد الله ثواب الشاكرين . قال : يا أُمَّه لا تَدَعى الدعاء لى قبل قتلى ولا بعده .
فقالت : لن أدعه . فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق . فتناول يدها ليقبلها
فقالت : هذا وداع فلا تبعد . فقال لها جئت مودعاً لأنى أرى هذا آخر أيامى
من الدنيا . قالت : امض على بصيرتك وادن منى حتى أودعك . فدنا منها فعانقته
وقبلته ، فوقعت يدها على الدّرع فقالت : ما هذا صنيع من يريد ما تريد ! فقال
ما لبستها إلاّ لأشد متنك ، قالت : إنها لا تشد متنى ، فنزعها ثم درج لِمَّته ،
وشد قميصه وجبته ، وخرج وهو يقول :

أبى لابن سلمى أن يُعير خالداً ملاقى المنايا أىَّ صرف تيمَّما
فلست بمبتاع الحياة بِسُبّة ولا مرتق من خشية الموت سلَّما

وقال لأصحابه احملوا على بركة الله ، وليشغل كل منكم رجلاً ، ولا يُلهينَّكم
السؤال عنى ، فانى على الرعيل الأول . ثم حمل عليهم حتى بلغ بهم الحجون وهنالك
رماه رجل من أهل الشام بحجر فأصاب وجهه ، فأخذته منه رعدة ، فدخل شعباً
من شعاب مكة يستدمى . فبصرت به مولاة له فقالت : وا أمير المؤمنينا !
فتكاثر عليه أعداؤه عند ذلك فقتلوه ، وصلبه الحجاج ، فأقام جثمانه على الجذع
عاماً كاملاً . حتى إذا أمر عبد الملك بانزاله أخذته أمه فغسلته بعد أن ذهبوا برأسه ،
وذهب البلى بأوصاله . ثم كفنته ، وصلت عليه ، ودفنته[1]

ذلك أمر ابن الزبير ومقامه من أمه وعكوفه على رأيها ونزوله عند مشورتها
حتى آخر ساعة من ساعاته وقد طعن يومئذ فى السبعين . وماله لا يكون كذلك ؟
وهل ترى فيما رأيت خطلاً فى الرأى ، أو زللاً فى القصد ، أو حياداً عن النهج ،
أو عثرة فى الواجب ؟ وهل أعانت امرأة ولدها على التضحية فى نصرة الحق ، وبذل
النفس فى حومة الشرف بمثل ما أعانت أسماء ولدها ؟

(١) بلاغات النساء ص ١٣٠ — ١٣٢

اللهم إن ذلك سر عظمة القوم ، وسبيل نهضتهم ، ومُنْبَعَث قوتهم . وإليه مرجع استبسالهم واستماتتهم

ولعمرى لقد عمد عبد الله إلى أبيه فحوّله عن رأيه ووجهه ومبدئه فى أدق مواقفه وأخطر مشاهده وهو دون الأربعين وأثرت فيه أمه برأيها وقولها فى أحرج أمره وأهول سَاعِهِ وقد أطل على السبعين .

أما موقفه حيال أمه فقد علمته . وأما موقفه حيال أبيه فذلك بعد أن بايع عَلِيّاً عليه السلام وعقد له من عهده وذمته على السمع والطاعة له ، فما زال عبد الله به حتى نقض بيعة أمير المؤمنين ، وخلع طاعته ، وشرع السيف فى وجهه بعد أن شايعه نيفاً وثلاثين عاماً . وفى ذلك يقول على كرم الله وجهه : ما زال الزبير رجلاً منا أهل البيت حتى أدركه ابنه عبد الله فلفته عنا[1] .

وبعد فقد علمت مما سلف من القول أن المرأة المسلمة اجتمع لها من وسائل التربية ومجالات العمل ما لم يجتمع لأخرى ممن سواها ، من اقرار بحقها وامعان فى احترامها ، ومماشاة فى الرأى والعمل لها إلى غير مدى ولا غاية فى ذلك كله . كل أولئك إلى ما علمت من رجاحة فى العقل ، وسماحة فى الرأى ، واستمكان من الفضيلة ، وبلوغ إلى الغاية القصوى من جلال الدين وفرط اليقين ، مما جعلهن أعرف خلق الله بتكوين الرجال ، والتأثير فيهم ، والنفاذ إلى قلوبهم ، وتثبيت دعائم الخلق العظيم بين جوانحهم ، وفى مسارب دمائهم . ومن أجل ذلك كان أبناء النابهات الممتازات من النساء أنبل وأفضل وأمثل من أبناء النابهين الممتازين من الرجال . حتى لا تكاد تقف على عظيم ممن راضوا شماس الدهر وذلت لهم نواصى الحادثات إلا وهو ينزع بِعِرْقِهِ وخلقه إلى أم عظيمة . فالزبير بن العوام قامت بأمره

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٧٦

أمه صفية بنت عبد المطلب فنشأ على طبعها وسجيتها . والكملة العظاء عبد الله والمنذر وعروة أبناء الزبير ثمرات أمهم أسماء بنت أبى بكر وما منهم إلا له الأثر الخالد والمقام المحمود .

وعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه تنقل فى تربيته بين صدرين من أملا صدور العالمين حكمة وأحفلها بجلال الخلال ، فكان مغداه على أمه فاطمة بنت أسد ، ومراحه على خديجة بنت خويلد زوج رسول الله ، ومكانهما من الفضل وبعد الرأى ما علمت . وعبد الله بن جعفر سيد أجواد العرب وأنبل فتيانهم تركه أبوه صغيراً فتعاهدته أمه أسماء بنت عُمَيس ، ولها من الفضل والنبل ما لها وَمعاوية ابن أبى سفيان أريب العرب وأَلْمَعِيُّهَا ورث عن أمه هند بنت عتبة ما لم يرث عن أبى سفيان . وهى القائلة — وقد قيل لها ومعاوية وليد بين يديها أن عاش معاوية ساد قومه — ثكلته ان لم يسد إلا قومه . ولما نعى اليها ولدها يزيد بن أبى سفيان قال لها بعض المعزين أنا لنرجو أن يكون فى معاوية خلف منه . فقالت أو مثل معاوية يكون خلفاً من أحد ؟ والله لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمى به فيها لخرج من أيها شاء .

وكان معاوية إذا نوزع الفخر بالمقدرة وجوذب المباهاة بالرأى انتسب إلى أمه فصدع بذلك أسماع خصمه . ومن قوله فى سجال الفخر لابن الزبير أنا بن هند ، أطلقت عقال الحرب فأَكَلَتْ السَّنَام وشربت عنفوان الْمَكْرَع ، وليس للآكل إلا الْفَلْذَة ، ولا للشارب إلا الرَّنَق[1] .

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ٤٥ مطبعة الفتوح . وكان سبيل تلك المساجلة أن عبد الله قال لمعاوية : يا معاوية لا تدع مروان يرمى جماهير قريش بمشاقصه ويضرب صفاتهم بمعاوله ولولا مكانك لكان أخف على رقابنا من فراشه وأقل فى نفوسنا من حشاشه ولئن ملك أعنة خيل تنقاد له ليركبن منك طبقا تخافه فقال معاوية : إن يطلب هذا الأمر فقد طمع فيه من هو دونه وأن يتركه يتركه لمن هو فوقه وما أراكم بمنتهين حتى يبعث الله اليكم من لا يعطف عليكم بقرابة ولا يذكركم عند ملمة يسومكم خسفاً ويوردكم تلفاً . فقال ابن الزبير اذن والله نطلق عقال الحرب بكتائب تمور كرجل الجراد حافاتها الأسل لها دوى كدوى الريح

وعجيب أن معاوية لم يعرف كيف يودع يزيد ابنه وخليفته ، رأيه وحلمه وسياسته. ذلك لأن أمه امرأة أعرابية لا شأن لها ، خطبها معاوية على الجمال واتخذها مقادة لقبيلتها ومرتقى لعشيرتها

وشبيه بمعاوية أخوه زياد بن أبي سفيان . فهو مساق المثل فى ذكاء القلب وفرط الدهاء ، الى وفور فى العلم ، وقوة فى البيان . وبرغم ذلك كان ابنه عبيد الله أبعد الناس عن خُلقه ، وأنباهم عن طبعه . كان أحمق ، أخرق ، واهن العقدة ، مضطرب الفطنة ، عيياً . سفاكاً . ذلك لأن أمه « مَرجانة » امرأة فارسية من فلول تلك الأمة المتهدمة المتحطمة ، فهى ضعيفة ذليلة ، لا تصلح أن تكون أماً لعزيز عظيم .

ولقد انحسر ملك بنى مروان عن رجلين ، ذهب أحدهما بما أوتى من حَوْل وطَوْل ، وما انتضى من حزم وعزم ، وضُربت الأمثال بما نهج ثانيهما من سَنَن العدل ، وما أفاء على الناس من ظلال الخيرات ، وكلاهما مهبط وحى المرأة العظيمة

أما أولهما فعبد الملك بن مروان ، وأمه عائشة بنت المغيرة بن أبى العاص بن أمية ، وكان لها من مضاء العزم ، وذكاء القلب ، ونفاذ الرأى — ما لم يكن مروان فى شىء منه . وهى التى يعنيها ابن قيس الرُّقيّات فى قوله لعبد الملك[1]

أنت ابن عائشة التى فَضَلَت أُرُوم نسائها
لم تلتفت لِلِداتِها ومشت على غُلَوائها
ولدت أغر مباركاً كالشمس وسط سمائها

وأما الثانى فأبو حفص عمر بن عبد العزيز . وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب أكمل أهل دهرها كمالاً وأكرمهن خلالاً — وأمها تلك التى اتخذها

تتبع غطريفا من قريش لم تكن أمه براعية ثله ، فقال معاوية أنا ابن هند شرح الغريب : المشاقص — جمع مشقص — النصال العريضة . الصفاة الحجر . الصلد الضخم . الحشاشة — مثلثة الحاء حشرة الأرض ، الطبق العظم الفاصل بين فقار الظهر . الرجل — بكسر الراء — القطعة العظيمة من الجراد المسكرع المشرب وعنفوانه صافيه . الرنق الماء المكدر

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٣١٦ طبع بولاق

عمر لابنه عاصم وليس لهـا ما تعتز به من نشب ونسب إلا ما جرى على لسانها قول الصدق فى نصيحتها لأمها — وهى التى نزعت به الى خلائق جده الفاروق رضى الله عنه

فاذا نحن انتقلنا بك من مُلك بنى مروان بالمشرق الى مُلكهم بالمغرب ، وجدنا العظمة الرائعة ، والهمة القصية ، والأمل البعيد ، والبأس الشديد ، والأثر الخالد ، والمجد المكين ، لم يجتمع شىء منها لرجل ما اجتمع لأمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر. ذلك الذى ولى الأندلس وهو ولاية تميد بالفتن ، وتَشْرَق بالدماء . فما لبثت أن قرت له وسكنت لخشيته ، ثم خرج فى طليعة جنده ، فافتتح سبعين حصناً فى غزوة واحدة ، ثم أمعن بعد ذلك فى قلب فرنسا ، وتغلغل فى أحشاء سويسرا ، وضم أطراف ايطاليا ، حتى ريض كل أولئك له ، ورجف لبأسه . وبعد أن كانت قرطبة دار أمارة يذكر الخليفة العباسىّ على منابرها وتُمضى باسمه أحكامها ، أصبحت مقر خلافة يحتكم اليها عواهل أوربا وملوكها ويختلف الى معاهدها علماء الأمم وفلاسفتها

أو أحدثك عن سر هذه العظمة ومهبط وحيها ؛ هى المرأة وحدها ! فقد نشأ عبد الرحمن يتيماً قَتَل عمُّه أباه ، فتفردت أمه بتربيتهِ وإيداع سر الكمال وروح السمو فى ذات نفسه ، فكان من أمره ما علمت

ثم إذا نحن نشرنا صفحة العهد العباسى ، بل صفحة العهد الاسلامى لا نجد فى تضاعيفها أمرأ دنت له قطوف العلم والحكمة ، ودانت له نواصى البلاغة والفصاحة كمحمد بن أدريس الشافعى . فهو الشهاب الثاقب الذى انتظم حواشى الأرض فملأ أقطارها علماً وتشريعاً

ذلك أيضاً ثمرة الأم العظيمة

فقد مات أبوه وهو جنين أو رضيع ، فتولته أمه بعنايتها ، وأشرقت عليه بحكمتها ،

وكانت امرأة من فضليات عقائل الأزد[١] . وهى التى تنقلت به من (غزة) مهبطه الى (مكة) مستقر أخواله فربته بينهم هنالك

وكان جعفر بن يحيى وزير الرشيد أرفق الناس برياضة القول ، وأعرفهم بفنون الكلام . وكان إذا عقب رسالة أو وقع تحت كتاب فاليه مباءة البلاغة ونهاية الايجاز حتى لقد يتدافع الكتاب على بابه فيشترون من حجابه كل توقيع بدينار .

كل ذلك ورثه جعفر عن أمه لا عن أبيه[٢]

كذلك كان النساء فى ذلك العهد الكريم مبعث كل شىء فى نفوس أبنائهن والامر فى ذلك ما قال رافع بن هُريم

فلو كنتم لِمُكيِّسَةٍ لكاست ... وَكَيْسُ الأم يعرف فى البنينا

أما بعد فأولئك هن الأمهات اللواتى انبلج عنهم فجر الاسلام وسمت بهن عظمته ، وصدعت بقوتهن قوته ، وعنهن وحدهن ذاعت مكارمه ورسخت قوائمه فان كان مما يذل الرجل فى عصرنا هذا أن يقال له « تربية أمه » فقد كان ذلك فى عصور الاسلام الزاهية ، وأيامه الخالية ، مهبط الشرف الحر ، والعز المؤثل والمجد المكين .

---

(١) طبقات الادباء ج ٦ ص ٣٦٨ مطبعة هندية

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٥٩ مطبعة الفتوح

المرأة المسلمة
وأثرها في العلم والأدب

تصدت المرأة لفنون العلم وشئون الأدب جميعاً وأمعنت فى كل ذلك إمعاناً أعيا على الرجل دركه فى مواطن كثيرة .

وبرغم ما مهد للرجل من مشاكل المسائل ، وهيء له من وسائل الكشف والاستنباط فقد كان للمرأة — على لحاقها بالرجل فى كل ما أسلفنا — مظهر خالق كريم فى العلم والتعليم .

أجل ! لقد امتازت « العالمة المسلمة » بالصدق فى العلم ، والأمانة فى الرواية والحيدة عن مواقع التهم ومساقط الظنن مما لم يوفق اليه كثيرون من الرجال .

ومعاذ الله أن تقول ذلك محاباة أو مشايعة لموضوع كتابنا . فنحن أولاء ضاربون لك مثلاً من إقرار عظماء العلماء بما نقول :

الحافظ الذهبي المتوفى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ثقة من ثقات المسلمين وعظيم من عظماء المحدثين ألّف كتابه « ميزان الاعتدال » فى نقد رجال الحديث خرّج فيه أربعة آلاف متّهم من المحدثين ، ثم اتبع قوله بتلك الجملة التى كتبها بخطه الواضح وقلمه العريض فقال «وما علمت من النساء من اتُّهمت ولا من تركوها[1]» ولعل قائلاً يقول وما للنساء ورواية الحديث ؟ وهل تركهن الذهبي إلا من قلة أو ذلة ؟

ونقول نحن أن حديث رسول الله منذ عهد عائشة أم المؤمنين حتى عهد الذهبي ما حفظ ولا روى بمثل ماحفظ فى قلوب النساء وروى على ألسنتهن .

---

(١) ميز الاعتدال ج ٣ ص ٣٩٥

ذلكم الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، أوثق رواة الحديث عقدة، وأصدقهم حديثاً — حتى لقبوه بحافظ الأمة — كان له من شيوخه وأساتذته بضع وثمانون من النساء[1].

فهل سمع الناس فى عصر من العصور، وأمة من الأمم أن عالماً واحداً يتلقى عن بضع وثمانين امرأة علماً واحداً؟ فكم ترى منهن من لم يلقها أو يأخذ عنها والرجل لم يجاوز الجزء الشرقى من الدولة الاسلامية، فلم تطأ قدماه أرض مصر، ولا بلاد المغرب، ولا الأندلس، وهى أحفل ما تكون بذوات العلم والرأى من النساء.

والحق الذى لا مراء فيه أن مزالّ النفس، ومنازع التهم، ونزعات الريب لا تجد مسرباً إلا فى صدور الرجال، فان دواعيها موفورة فيهم، مؤتشبة بين جوانبهم. فلهم من منازعة السياسة، ومجاذبة الرياسة، ومناصرة الآراء، ومؤازرة الأهواء، والزلفى عند الملوك ومساومة قلوب العامة، ما لا سبيل له إلى نفس المرأة وكل ذلك مما يميل بالرأى ويصدع ركن العقيدة.

ولم تقف التهمة بالرجل عند حد الدين وحده. بل لقد طمس أناس من الرجال معالِمَ الشعر والأدب والتاريخ ووصف الأمم والمواطن وأسرار الكون ومظاهر الطبيعة. وإذا هان على المرء أن يكذب على الله، فأهون ما يكون أن يكذب على كل شىء سواه.

وإذا كان الصدق فى النقل والعصمة من الهوى مما دعم قواعد الأثر العلمى للمرأة المسلمة وشاد جوانبه، فقد كان لها من صفاء فطرتها وقوة فطنتها عماد وقوة

إن الذين يقولون بالفوارق فى المقدرة بين الرجل والمرأة لينتقض رأيهم إذا هم استمعوا حديث النهضة العلمية الإسلامية.

(١) طبقات الشافعية ج ٤ ص ٢٧٣

لقد لحق النبي بربه وعائشة أم المؤمنين لم تخطُ إلى التاسعة عشرة . على أنها ملأت أرجاء الأرض علماً . فهي في رواية الحديث نسيج وحدها — ولم يكن بين أصحاب رسول الله من كان أروى منها ومن أبي هريرة ، على أنها كانت أدق منه وأوثق .

وكانت من أنفذ الناس رأياً في أصول الدين ودقائق الكتاب المبين . وكان زعماء الصحابة إذا أشكلت عليهم الفرائض فزعوا إليها لحسرت حجبها وكشفت سحبها .

ولم يكن نفاذ رأيها ورجاحة كفتها وقفاً على الدين وحده . فكذلك كان أمرها في رواية الشعر والأدب والتاريخ ، وكذلك كان نفاذها في الطب وعلم الكواكب والأنواء والأنساب وما إلى كل ذلك ، وذلك عروة بن الزبير فقيه المسلمين يقول : « ما رأيت أحداً أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة[1] » .

وإليك فاسمع هذا الحديث ثم انظر إلى أي مدى بلغت عائشة من الإحاطة بحوادث الأمم ومشكلات التاريخ .

لما وفد المسلمون إلى الحبشة مهاجرين أوطنهم النجاشي موطناً كريماً فأوفدت إليه قريش عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بأعز ما لديهم من طرائف وتلاد . وفي أنفسهم أن يبرأ من ذمة اللاجئين اليه ويعيدهم على أعقابهم ، فرد النجاشي على القوم هداياهم وقال : « لا حاجة لي بها ، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع النّاس فيّ فأطيعهم فيه » فحفظ الناس ذلك القول من ملك الحبشة ولم يعرفوا معناه حتى كانت عائشة هي التي حدثتهم خبره مما تعلم من تاريخ الحبشة فقالت : إن أبا النجاشي كان ملك قومه ولم يكن له ولد سواه . وكان للنجاشي عم له إثنا عشر رجلًا كلهم من صلبه .

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ٣٩ — ٥٦

فقالت الحبشة : لو أنا قتلنا الملك وولينا أخاه لَأَمِنَّا على المُلْكِ أن يضيع وعلى المَلِكِ أن ينقطع عَقِبه . فعدوا على ملكهم فقتلوه وملّكوا أخاه فمكثوا على ذلك حيناً . وكان ولد القتيل فتى أيِّدًا حازماً ، لبيباً ، أديباً ، فغلب عمه على الملك ، وأوجس القوم أن يثب على الملك فيأخذهم بأبيه ، فحملوا الملك على بيعه من تاجر بستمائة درهم ، فقذفه التاجر فى سفينة وانطلق به ، حتى إذا كان العَشِيّ من ذلك القوم هاجت سحابة من سحب الخريف فخرج الملك يستمطر تحتها فأصابتـه صاعقة فقتلته ، ففزعت الحبشة إلى ولده فإذا هو مُحْمَق لاخير فى ولده ، ثم علموا أن لامفزع لهم إلاّ إلى ابن ملكهم القتيل ، فخرجوا يطلبونه ، فجاؤوا به من صاحبه ، فعقدوا عليه التاج . وعز على التاجر أن يضيع ماله وتذهب صفقته فاقتضى القوم حقه فجحدوه إياه ، فشكا أمره إلى الملك فقال : لَتُعْطُنَّهُ ماله أو لَيَضَعَنَّ غلامُه يده فى يده فليذهبن به حيث شاء ، فقالوا : بل نعطه ماله . قالت : فلذلك يقول ما أخذ الله منى رشوة حين رد علىّ ملكى فآخذ الرشوة فيه ، وما أطاع الناس فىّ فأطيع الناس فيه[1] .

ذاك هو الحديث الذى خفى عن ثلاثة وثمانين رجلاً ، وابتدرته عائشة حين سئلت عنه

وكانت رضى الله عنها تحسن أن تقرأ ولم يكن يعرف ذلك إلا عدد محدود من أصحاب رسول الله

وكان زوجات رسول الله جميعاً قسيمات عائشة فى إذاعة العلم وإفاضة الدين على المسلمين

وكما كانت عائشة أم المؤمنين تجيد القراءة كانت حَفْصَةُ أم المؤمنين تحسن

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١١٣ — ١١٤ طبع بولاق

الكتابة، وكانت الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس القرشية هى التى علمتها إياها[1]

ولم يكن أمهات المؤمنين بدعاً من نساء هذا العصر . فقد عقد محمد بن سعد جزءاً من كتاب الطبقات الكبيرة لروايات الحديث من النساء أتى فيه على نيف وسبعمائة امرأة روين عن رسول الله، أو عن الثقات من أصحابه، وروى عنهن أعلام الدين وأئمة المسلمين

وهل تجد موطناً أوثق، ومرتقى أسمق، ومنزلة أوثق، من أن على ابن أبى طالب وهو العَلَم الأشمّ الذى لا يدانيه أحد فى علمه وحكمته، وقربه من رسول الله وقرابته يتلقى الحديث على مولاة لرسول الله كانت تقوم على خدمته، هى ميمونة بنت سعد[2] فكيف بمن دون على، وما أحد من أعلام الاسلام إلا دونه

على أن رواية الحديث ومعاناة التشريع لم تكونا كل ما للنساء من همّ، فقد كان لهن فى الأدب العربى شأن لا يدرك وغاية لا ترام

---

(١) الاصابة ج ٧ ص ١٢٠ — ١٢١

حفصة : هى أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب القرشية العدوية زوج رسول الله واحدى الصائمات القائمات القانتات من المسلمات

ولدت رضى الله عنها قبل مبعث النبي بخمس سنوات وزوجت من خنيس بن حذافة السهمى أحد السابقين الأولين فهاجر بها الى المدينة وأقامت معه حتى مات عنها بعد ما به من بدر سنة ثلاث حتى إذا انقضت عدتها عرضها عمر على أبى بكر فسكت ثم عرضها على عثمان حين ماتت زوجه رقيه بنت رسول الله فقال ما لى فى النساء من حاجة فذكر عمر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله ألا تعجب من عثمان إنى عرضت عليه حفصة فأعرض عنى فقال رسول الله قد زوج الله عثمان خيراً من إبنتك وزوج الله ابنتك خيراً من عثمان فتزوج رسول الله حفصة وزوج أم كلثوم ابنته من عثمان

وكان رسول الله قد هم بطلاق حفصه فنزل جبريل فقال يا محمد لا تطلق حفصة فانها صوامة قوامة وأنها من نسائك فى الجنة

وعاشت حفصة بعد رسول الله حتى ماتت فى عهد معاوية سنة خمس وأربعين

أما الشفاء بنت عبد الله فاحدى ذوات الرأى الجزل والقول الفصل من بنى عدى بن كعب . وهى ممن سبقن الى بيعة النبي بمكة وهاجرت معه الى المدينة وكان صلى الله عليه وسلم يؤثرها بغشيان دارها والمقيل فيها وكانت قد اتخذت له فراشاً وازاراً ينام فيه اذا أوى اليها وقد بقى الفراش والازار مذخورين فى دارها بعد موت رسول الله حتى أخذه مروان حين ولايته على المدينة . وكان عمر يقدمها فى الرأى ويؤثرها بالجميل .

(٢) الاصابة ج ٧ ص ١٧٣

ومما حدثوا أن عائشة بنت طلحة وفدت على هشام بن عبد الملك فقال لها ما أوفدك ؟ قالت حبست السماء المطر، ومنع السلطان الحق قال انى سأعرفه حقك. ثم بعث إلى مشايخ بنى أمية فقال : أن عائشة عندى فاسمروا عندى الليلة لليلة ، لحضروا ، فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا أغار إلا سمته فقال لهـا هشام أما الأول فلا أنكره وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت أخذتها عن خالتى عائشة . فأمر لها بمائة ألف درهم وردها الى المدينة[1]

ودونك فاستمع حديث الحجاج عن نسائه ، قال :

عندى أربع نسوة : هند بنت المهلّب . وهند بنت أسماء بن خارجة ، وأم الجُلاَس بنت عبد الرحمن بن أَسِيد وأَمَة الرحمن بنت جرير بن عبد الله البُجَلى فأما ليلتى عند المهلب فليلة فتى بين فتيان ، يلعب ويلعبون ، وأما ليلتى عند هند بنت أسماء فليلة ملك بين الملوك ، وأما ليلتى عند أم الجلاس فليلة إعرابى مع إعراب فى حديثهم وأشعارهم ، وأما ليلتى عند أمة الرحمن بنت جرير فليلة عالم بين العلماء والفقهاء[2]

ومن الحديث الذى نورده الآن عليك تعلم إلى أى مدى بلغت المرأة من رواية الشعر، والوقوف على مراميه ، ونفاذ البديهة فى اجتلابه وقت الحاجة إليه

---

(١) الأغانى ج ١٠ ص ٥٧

عائشة بنت طلحة هى أم عمران عائشة بنت طلحة بن عبيد الله جميلة قريش وعقيلتها . وأمها أم كلثوم بنت أبى بكر . وكانت أشبه الناس بخالتها عائشة أم المؤمنين وأحبهم اليها وأطبعهم على علمها وأدبها ومن أجل ذلك زوجتها من ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر فولدت له عمران وعبد الرحمن وأبا بكر وطلحة ونفيسة . وكان ابنها طلحة أجود قرشى فى عهده . ولما مات عنها عبد الله تزوجها مصعب بن الزبير وساق اليها ألف ألف درهم حتى اذا قتل عنها حلف عليها عمر بن عبيد الله بن معمر وساق اليها ألف ألف درهم فأقامت معه ثمان سنين ثم مات عنها فتأيمت بعده ودفعت عنها كل خاطب . وكانت عائشة أجل نساء قريش وأدلهن على أزواجها وأحظاهن عندهم . أما علمها وأدبها وأجزال مثوبتها للشعراء والمغنين فما لا شبيه لها فيه إلا سكينة بنت الحسين

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨٣ — ٢٨٤

قالوا إن رجلاً من العرب نزل بامرأة من بنى عامر فأكرمته وأحسنت قِراه ، فلما هم بالرحيل أنشد ذلك البيت — وهو مما هجى به بنو عامر —

لعمرك ما تبلى سرابيل عامر   من اللؤم ما دامت عليها جلودها

حتى إذا سمعته قالت لجارتها قولى له ألم نحسن إليك ونفعل ونفعل ؟ هل رأيت تقصيراً ؟ قال لا . قالت فما حملك على البيت ؟ قال جرى على لسانى . فخرجت إليه جارية من بعض الأخبية فحدثته حتى أنس واطمأن ثم قالت له ممن أنت يا ابن عم قال رجل من تميم . قالت أتعرف الذى يقول

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا   ولو سلكت سبل المكارم ضَلّتِ
أرى الليل يجلوه النهار ولا أرى   خلال المخازى عن تميم تَجَلّتِ

قال والله ما أنا من تميم . ما أقبح هذا الكذب بأهله ! فمن أنت ؟ قال من بنى عِجل . قالت أفتعرف القائل ؟

أرى الناس يعطون الجزيل وإنما   عطاء بنى عجل ثلاث وأربع
إذا مات عجلىّ بأرض فانما   يخط له فيها ذراع وأصبع

قال لا والله ما أنا من بنى عجل ، قالت فمن ؟ قال من بنى عبس . قالت أفتعرف القائل ؟

اذا عبسية ولدت غلاماً   فبشرها بلؤم مستفاد

قال لا والله ، ما أنا من بنى عبس ، قالت فمن ؟ قال من بُجَيْلة ، قالت أفتعرف القائل ؟

سألنا عن بُجَيْلَةَ حين جاءت   لتخبر أين قَرَّ بها القرار
فما تدرى بجيلة إذ سألنا   أقحطان أبوها أم نذار
فقد وقعت بُجَيْلة بَيْنَ بَيْنٍ   وقد خُلِعت كما خلع العذار

قال لا والله ما أنا من بجيلة . قالت فمن ؟ قال من بنى نمير . قالت أفتعرف القائل ؟

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

قال لا والله ما أنا من بنى نمير ، قالت فمن ؟ قال من بنى باهلة . قالت أفتعرف القائل ؟

إذا نصّ الكرام إلى المعالى تنحى الباهلىّ عن الزحام
إذا ولدت حليلة باهلىّ غلاماً زيد فى عدد اللئام
ولو كان الخليفة باهلياً لقصرعن مساماة الكرام
وعرض الباهلىّ وإن توقّى عليه مثل منديل الطعام

قال لا والله ما أنا من باهله . قالت فمن؟ قال من خزاعة . قالت أفتعرف القائل؟

إذا فخرت خزاعة فى ندىّ وجدنا فخرها شرب الخمور
وباعت كعبة الرحمن جهلا بزقٍ بئس مفتخر الفخور

قال لا والله ما أنا من خزاعة . قالت فمن ؟ قال من بنى أمية . قالت أفتعرف القائل ؟

وَهى من أمية بنيانها فهان على الناس فِقدانها
وكانت أمية فيما مضى جَرِيًّا على الله سلطانها
فلاآل حرب أطاعوا الإله ولم يتق الله مروانها

قال لا والله ما أنا من بنى أمية . قالت فمن ؟ قال من هَمْدَان . قالت أفتعرف القائل ؟

إذا همدان دارت يوم حرب رحاها فوق هامات الرجال
رأيتهم يحثون المطايا سراعاً هاربين من القتال

قال لا والله ما أنا من همدان . قالت فمن ؟ قال من النَّخَع . قالت أفتعرف القائل ؟

إذا النخع اللئام عدوا جميعاً تدكدكت الجبال من الزحام
وما تغنى إذا صدقت فتيلا ولا هى فى الصميم من الكرام

قال لا والله ما أنا من النخع . قالت فمن ؟ قال من لَخْم . قالت أفتعرف القائل ؟

إذا ما اجتبى قوم لفضل قديمهم تباعد فخر الجود عن لخم أجمعا

قال لا والله ما أنا من لخم . قالت فمن ؟ قال من كلب . قالت أفتعرف القائل ؟

فلا تقربن كلباً ولا باب دارها ولا يطمعن سار يرى ضوء نارها

قال لا والله ما أنا من كلب . قالت فمن ؟ قال من سُلَيْم . قالت أفتعرف القائل ؟

إذا ما سُلَيْمٌ جئتها فى ملمة رجعت كما قد جئت خزيان نادماً

قال لا والله ما أنا من سليم . قالت فمن ؟ قال من الموالى . قالت أفتعرف القائل ؟

إلا من أراد اللؤم والفحش والخنا فعند الموالى الجيدُ والكتفانِ

قال لا والله ما أنا من الموالى . قالت فمن ؟ قال رجل من الشيطان الرجيم قالت أفتعرف القائل ؟

ألا ياعباد الله هذا عدوكم وذا ابن عدو الله ابليس خاسئاً

حتى إذا ضاقت بالرجل مناسبه ، وأعيت عليه مذاهبه ، قال لها اللهَ الله ! أقيلينى العثرة ، فوالله ما ابتليت بمثلك قط . ثم خرج خاسئاً وهو حسير[1] .

ذاك حديث الصبية العربية التى لم تَعْدُ بعد طور الحداثة ، وتلك قوة بديهتها ودقة فطنتها ، وحضور جوابها ، وأخذها المآخذ على خصمها . وفى الحديث كما رواه المسعودى هناتٌ للقبائل ومغامز ضربنا الذكر الصفح عنها .

(١) المسعودى ج ٢ ص ١٧٥ — ١١٨٠ وطبقات الشافعية ج ١ ص ١٤٢ — ١٤٦

ولقد أثمرت رواية الشعر فى تلك النفوس الصافية النقية ثمراً حلواً جَنِيًّا فكانت المرأة ناقدة لا تبارى، وشاعرة لا تجارى، وبنقدها وصوغها تبوأ الشعر العربى تلك المنزلة التى لا تطاول روعة وجمالاً.

ولئن أثار الخلائف من بنى أمية فى نفوس الشعراء روحاً خبيثة من التنابز والأحقاد فأثابوهم على المخزيات المنديات يترامون بها، ويتهالكون عليها — لقد دافع عقائل العرب تلك الروح بنفاذ نقدهن، ولطف مآخذهن، وإجمال مثوبتهن فكن ينظرن فى نقدهن إلى نبل الغرض، وشرف اللفظ، وجلال المعنى وكفى. وكانت سيدة الناقدين سُكينة بنت الحسين. فهى حَكَمُ الشعراء الذى لا يرد حكمه، ولا يَفيل رأيه، ولا تبدو مزلته، وكانوا يفدون على دارها من كل صوب وحدب وكلهم قد عقد يده على خير ما قال، وليس بينهم إلا من كان حديثه طوال طريقه عما عسى السيدة أن تقوله وتحكم به، لأنه سيكون بين المتأدبين وبغاة الشعر يقيناً لا شك فيه.

اجتمع إليها ذات مرة جرير والفرزْدَق وكُثَيِّر وجميل ونُصَيْب فنقدت لكل شعره وأخذت عليه مآخذه، ثم أثابت كلاًّ بألف دينار فخرجوا بخمسة آلاف دينار[1] وما كان الخليفة ليظفرهم بما دونها حتى يجمعوا فيه من الفضائل ما تفرق فى الأبرار والمقربين. والكرام الكاتبين، والقادة الفاتحين.

كذلك كانت مثوبتها للمغنين. وكان بصرها بمذاهب الغناء وضروب الايقاع كبصرها بأعطاف الشعر وقطاف الأدب.

وكانت عائشة بنت طلحة تتأثر خُطوات سُكَيْنَة فى نقد الشعر والغناء، والاجتماع بالمغنين والشعراء، والرواة والأدباء، وذوى الرأى والسناء، فتحدث كلا بما عنى به، وخلق له، حتى لا تدع له مجالاً يقول فيه.

(١) الأغانى ج ١٤ ص ١٦٧

وكانت عَمْرَة الجُمَحِيَّة — من سَرَاة بنى جُمَح — يجتمع اليها الشعراء والرواة فى دارها، فتستمع لكل، وتوازن بينهم جميعاً[1]

وكثير من غير هؤلاء خصصن بنقد الشعر ليثرن فيه قوة الخيال، وروعة الجمال ومن عيون هؤلاء أسماء وعُلَيَّة ابنتا المهدى واختا الرشيد فى الدولة العباسية، وحفصة بنت الحاج الركونية — من شريفات غرناطة وحسيباتها — وولّادة بنت الخليفة المستكفى فى الأندلس

ونحن أولئك مرسلو القول فى تبسط العقائل للشعراء وتأثير رأيهن وحكمهن فى أنفسهم

كان أبو مِحْجَن نُصيب بن رَباح مولًى أسود حالك السواد، فاضت به عاطفة الشعر فظهر له فيه أثر حَميد. وهو الذى نسوق عنه ذلك الحديث :

قال : أنه خرج هو وكُثَيِّر والاحوص غب يوم أمطرت فيه السماء، فقال هل لكم فى أن نركب جميعاً فنسير حتى نأتى العقيق فنمتع فيه أبصارنا ؟ فقالوا نعم. فركبوا أفضل ما يقدرون عليه من الدواب، ولبسوا أحسن ما يقدرون عليه من الثياب، وتنكروا. ثم ساروا حتى أتوا العقيق، فجعلوا يتصفحون ويرون بعض ما يشتهون، حتى رفع لهم سواد عظيم فأموه، حتى أتوه، فاذا وصائف ورجال من الموالى ونساء بارزات، فسألنهم أن ينزلوا فاستحيوا أن يجيبوهن من أول وهلة، فقالوا لا نستطيع أن نمضىَ فى حاجة لنا، فحلفنهم أن يرجعوا إليهن ففعلوا، وأتوا فسألنهم النزول فنزلوا، ودخلت امرأة من النساء فاستأذنت لهم فلم تلبث أن جاءت المرأة فقالت ادخلوا، فدخلنا على امرأة جميلة بَرْزة على فرش لها، فرحبت وحيت، وإذا كراسى موضوعة، فجلسنا جميعاً فى صف واحد كل انسان على كرسى، فقالت

(١) الأغانى ج ٦ ص ١٥٠

إن أحببتم أن ندعو بصبي لنا فنصيحه ونعرك اذنه فعلنا — كناية عن ضرب العود — وإن شئتم بدأنا بالغداء، فقلنا بل تدْعين بالصبي ولن يفوتنا الغداء، فأومأت بيدها إلى بعض الخدم فلم يكن إلا كلاَ ولا حتى جاءت جارية جميلة فرحبت بهم وحيتهم فقالت لها مولاتها خذى ويحك من قول نصيب عافى الله أبا محجن

ألا هل من البين المفرق من بُدّ   وهل مثل أيام بمنقطَع السعد

تمنيت أيامى أولئك والمنى   على عهد عاد ما تعيد ولا تبدى

قال نصيب فغنته فجاءت به كأحسن ما سمعته ، بأحلى لفظ وأشجى صوت ثم قالت لها خذى أيضاً من قول أبى محجن عافى الله أبا محجن

أرق المحب وعاده سُهُدُه   لطوارق الهم التى ترده

وذكرت من رقت له كبدى   وَأَبَى فليس ترق لى كبده

لا قومه قومى ولا بلدى   فنكون حيناً جيرة — بلده

ووجدت وجداً لم يكن أحد   من أجـله بصبابة يجده

قال فجاءت به أحسن من الأول فكدت أطير سروراً . ثم قالت لها خذى من قول أبى محجن عافى الله أبا محجن

فيالك من ليل تمتعت طوله   وهل طائف من نائم متمتع

نعم إن ذا شجو متى يلق شجوه   ولو نائماً مستعتب أو مودع

له حاجة قد طالما قد أسرها   من الناس فى صدر بها يتصدع

تحملها طول الزمان لعلها   يكون لها يوماً من الدهر منزع

قال فجاءنى والله شيء حيرنى وأذهانى طرباً لحسن الغناء وسروراً باختيارها الغناء فى شعرى وما سمعت فيه من حسن الصنعة وجودتها واحكامها ، ثم قالت لها خذى أيضاً من قول أبى محجن عافى الله أبا محجن

يأيها الركب إنى غير تابعكم　　حتى تلموا وأنتم بى ململونا
فما أرى مثلكم ركبا كشكلكم　　يدعوهمو ذو هوى الا يعوجونا
أم خبرونى عن داء بعلمكم　　وأعلم الناس بالداء الأطبونا

قال نصيب فوالله لقد زهوت بما سمعت زهواً خيل إلى أنى من قريش ، وأن الخلافة لى ، ثم قالت حسبك يا بنية . هات الطعام يا غلام . فوثب الأحوص وكُثَيِّرٌ وقالا : لا والله لا نطعم لك طعاماً ، ولا نجاس لك فى مجلس . فقد أسأت عشرتنا واستخففت بنا . وقدمت شعر هذا على أشعارنا ، وأسمعت الغناء فيه، وان فى أشعارنا لما يفضل شعره ، وفيها من الغناء ما هو أحسن من هذا فقالت : فأى شعركما أفضل من شعره ؟ ! أقولك يا أحوص كذا وكذا ، وقولك يا كثير كذا وكذا ، وذكرت لهما أبياتاً أساآ فيها إلى النساء نخرجا مغضبين ! واحتبستنى فتغديت عندها ، وأمرت لى بثلثمائة دينار وحُلتين وطيب ، ثم دفعت إلىَّ مائتى دينار ، وقالت ادفعها إلى صاحبيك فان قبلاها وإلا فهى لك . فأتيتهما منازلهما فأخبرتهما القصة . فأما الأحوص فقبلها وأما كثير فلم يقبلها ، فأخذتها وانصرفت . قال عبد الله بن اسماعيل فسألت نصيباً ممن المرأة ؟ فقال من بنى أمية ولا أذكر اسمها ما حييت[1]

وإذا نحن وازنا بين الثلاثة الشعراء وجدنا الأحوص وكُثَيِّراً قد ذهبا من رقة القول ، ودقة النسج كل مذهب . على أن الحق الذى لا يماريان فيه أن شاعر حديثنا أشرفهم غرضاً ، وأكرمهم خلقاً ، وأنباهم عن هجر الكلام ومن أجل ذلك آثرته المرأة وأثابته وأنبهت شعره وذكره .

(١) الأغانى ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٩

كل ذلك بينا تجـد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى يضع خمسمائة دينار بين يديه وعنده من الشعراء جرير والفرزدق والأخطل لتكون مثوبة لمن يكون أشد مدحاً لنفسه وهجواً فيمن سواه[١]

وعلى ذكر كثير ونقد شعره نقول أنه خرج ذات مرة إلى البادية فدفع به طريقه إلى خباء لقطام ابنة علقمة فنزل بها وعرفها بنفسه فقالت له أنت كثير؟ أنت الذى تقول؟

فما روضة بالحَزن با كرها الندى ... يمج النـدى جَثْجَاثُها وعَرارها[٢]
بأطيب من أردان عزة مَوْهِناً ... إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها[٣]

قال: نعم . قالت وهل أبقيت لعزة من الفضل فوق ما لهذه اللبنـة الملقاة؟ أولا تراها إذا أوقد المندل الرطب فوقها عبق منهـا ما يعبق من عزة؟ هلا قلت كما قال امرؤ القيس

ألم تريانى كلما جئت طارقاً ... وجدت بها طيباً وان لم تَطَيَّبِ[٤]

فخرج كثير واستحيا بعد أن ملأ فاه فخراً بنفسه

وأن من أعجب الأشياء أن تضع زوج أحـد الشاعرين المتكافئين قوة وشيعة رأيها فى كفة خصمه وتلك هى النوار بنت أعين زوج الفرزدق همام بن غالب. سألها زوجها رأيها فيه وفى جرير فقالت أن جريراً شاركك فى مره وانفرد دونك فى حلوه[٥]

---

(١) ديوان الأخطل ج ٤ طبع بيروت
(٢) الحزن الأرض الصلبة والجثجاث نبت أصفر طيب الرائحة نصبوا اليه العرب والعرار البهار
(٣) الاردان — جمع ردن بضم الراء — الاكمام وموهنا أى عند انتصاف الليل والمندل العود
(٤) الاغانى ج ١٤ ص ٥٧ والمحاسن والاضداد ص ١٣٩ — ١٤٠
(٥) تريد أن جريراً وزن الفرزدق فى الهجاء وانفرد دونه فيما رق من القول كالغزل والنسيج

وما ظنك بامرأة تستمع بيوتاً من الشعر فتهب نفسها لقائلها بعد أن تكون قد سخرت منه وامتنعت عليه ؟ ذلك ما كان من إحدى أديبات العرب وجميلاتهم مع نُصَيب بن رباح . فقد رامها نصيب فعزت عليه ، بل لقد سخرت منه حين كلمها ودلف اليها فقالت له ما أظرفك يا أسود ! وأغضب ذلك نصيباً فانصرف عنها، فقال

فان أك حالكاً فالمسك أحوى ... وما لسواد جلدى من دواء
ولى كرم عن الفحشاء ناء ... كبعد الأرض عن جو السماء
فان ترضى فردى قول راض ... وان تأبى فنحن على السواء

فلم تقرأ الأبيات حتى كانت هى التى طلبته فتزوجته[1]

تلك شواهد موجزة مجملة عما كان للمرأة العربيـة المسلمة فى الأدب من نفاذ وبراعة ، ورجاحة وسماحة ، وصفاء فطرة ، ومضاء بديهة ، وكرم مثوبة، وقوة عارضة، وصولة واستبسال ، فى حياطة مواطن الشرف والجمال من الشعر . وكان بودنا لو ملأنا للقارىء أيدينا من ذلك الثمر الحلو الجنى لولا خشية التياث القصد وترامى الطريق

ولئن نضرت جوانب الأدب العربى بموقف المرأة ، وضاءت مذاهبه ، ورقت مشاربه ، لقد فاضت مشارعه ، وتدفقت متالعه ، وزكت فنونه ، وتهدلت غصونه ، بما أثمرت قريحتها ، وانحسر عنه لبها من نثر الكلام وشعره

لقد وردت المرأة مناهل القول جميعاً . على أنها لم تجاوز الصافى الفرات منها ، فكان قولها قِطعاً من قلبها ومشاعرها . فهى إذا خطبت ، أو كتبت ، أو شافهت ، أو نظمت ، لم تَعْدُ ما تؤمن به ، وتهفو إليه . أما سفال القول من إغراق فى المدح ، وأقذاع فى الهجاء ، ومجون فى الغزل ، وذهاب فى الخمر ، وسخف فى الدين ، فذلك ما تركت الرجل يستأثر به ويتسكع فيه

(١) الأغانى ج ١ ص ١٣٦ — ١٣٧

لا نكذب الحق فقد ظهر من الشواعر جماعة أخذن بطرف من ذلك اللغو . على أن هؤلاء لسن فى شىء من موضوع كتابنا . فهن نوازح من الجوارى جىء بهن إلى مدن العراق والشام والأندلس مما والاهن من الأقطار فتصدين لرجال العرب بما شئن من دعابة وتأنق ، فظهر كثير من السرف والتهتك على مقالهن ، حتى لقد سترن بذلك الانحسار تلك الملاحة الروحية المعنوية فى المرأة العربية ، فتضاءلت وتراجعت وقذف بها ذلك السيل الأتىّ إلى مكان سحيق ، وسنفرد القول فى ذلك فى الجزء الثالث من كتابنا إن شاء الله

وإذا كانت المرأة العربية قد استمدت وحى البلاغة وسحر البيان من صبيب قلبها وخطرات سرائرها فان الرجل لم يستمد ذلك كله إلاّ من المرأة نفسها

وهل رأيت شاعراً ممن طار شعرهم كل مطار. وسار ذكرهم كل مسار يستمد خواطر شعره ، أو يصطفى الحر السنى من معناه وخياله إلاّ من المرأة ؟

وكم قصيدة من تلك التى قيلت فى العظائم وقدمت إلى العظماء لم تكن المرأة مطلع أمرها ومنبلج فجرها ؟

نقف الآن إلى ذلك الحد من منزلة المرأة فى الأدب العربى وأنا لعائدون إليه إن شاء الله فيما نختاره لها من شئون القول وفنونه ، ونأخذ ببقية القول فى أثرها العلمى فنقول

لم تقف بالمرأة العربية قريحتها عند حد النبوغ فى التشريع الاسلامى ، والأدب العربى . فقد أخذت بنصيب موفور من النهضة التى استحدثها المسلمون عمّن سواهم من الأمم ذوات التاريخ الحافل والمجد القديم

وأخص ما عنين به الطب، فهنّ فوق ما ورثته عن أمهاتهن من أسو الجراح ، وجبر العظام ، برعن إلى غير حد فى بقية فروع الطب مما نقلوه عن اليونان

والسريان والهند ، حتى كانت بغداد وقرطبة وما سواهما من مدن العراق والأندلس مسارح للكثيرات منهن ممن خصصن بعلاج الأجسام ما ظهر منها وما بطن

ومن هؤلاء أخت الحفيد بن زهر الأندلسي وابنتها . فقد حدث صاحب طبقات الأطباء عن نفاذهن في فروع الطب جميعاً وفي أمراض النساء خاصة وكان المنصور بن أبي عامر وارث الخلافة الأمويه بالأندلس لا يدعو لنسائه وعامة أهله غيرهما

ومنهن زينب طبيبة بني أود وكان أخص ما برعت علاج العين بالجراحة أو أجراء العمليات الجراحية للعين[1]

وغير أولئك كثيرات وسنختصهن ببحث طويل في الجزء الثالث من هذا الكتاب

ولا يفوتنا أن نختم حديثنا بشيء مما كتبه الكاتب الفيلسوف العظيم جوستاف لوبون ، في كتابه حضارة العرب La Civilisation des Arabes عن المرأة المسلمة وأثرها العلمي ، قال :

« أما نباهة شان المرأة وسمو مكانها في عصور العرب الزاهية فمما ينبئ عنه عدد اللواتي امتزن بنفاذهن في العلوم والآداب من نساء العرب

ولقد نبغ منهن عدد موفور في العهد الأموي بالاندلس والعباسي ببلاد المشرق . ولنذكر من بين أولئك « وَلَّادَة » بنت المستكفي بالله أمير المؤمنين بالاندلس

كتب « كوند » مجملاً عمن كتب من مؤرخي العرب عن الخليفة الاموي عبد الرحمن الناصر قال . كان هذا الخليفة وسط ما يحيط به من بدائع « الزهراء » وعجائبها يسره أن يستمع الغناء مما كانت تصوغه جاريته وصاحبة سره « مُزْنة » من الاناشيد العذبة الرقيقة . ومن أولئك الناهضات النابهات « عائشة » إحدى

---

(١) طبقات الأطباء

بنات السَّراة بقرطبة . وهى التى يقول ابن حيان عنها أنها أجمل وأعقل وأعلم نساء عصرها و « صفية » وكانت من أفتن النساء بجمالها وأدراهن بفنون الشعر

ومما قال بعض المؤرخين عن الحَكَم بن الناصر « فى ذلك العهد الذى أولع فيه أهل الأندلس بالشعر وجنوا قطاف الفنون والعلوم — كان النساء فى عزلتهن يقبلن على الدرس وينصرفن اليه وأكثرهن قد امتاز بمضاء الذكاء وانفساح مدى العلم . وكان فى قصر الخليفة بين نسائه « لُبنى » تلك التى جمعت إلى جمالها الساحر إحاطتها بالنحو والشعر والرياضة وما سوى ذلك من علوم وفنون . وكانت تكتب رسائل الخليفة بأسلوب يملأ النفس روعة وخط يملأ العين جمالاً ، فهى كاتبة قصره ، ومنشئة رسائله . ولم يكن بين نساء القصر من يساميها عقلاً وفطنة ورشاقة لفظ ، وسماحة قافية ، و « فاطمة » ومَثَلُها فى رجاحة العقل وسماحة القول مَثَل لبنى . وكان شعرها كفاء نثرها وفى كليهما أمعنت حتى بلغت غاية لا تنال ، وكان العلماء والشعراء يطربون لشعرها وما فيه من أنق وإبداع . ولها مكتبة جمعت أجل الكتب وأنفسها

ومنهن « خديجة » وهى التى جمعت إلى عذوبة المنطق وروعة الشعر ، رخامة الصوت والذهاب فى فنون الغناء و « مريم » التى كانت تغدو على بنات سادات اشبيلية فتعلمهن القريض . وكان لها فى التعليم ذكر نابه وشهرة ذائعة . وقد تخرج فى مدرستها طائفة عظيمة من شهيرات النساء . و « راضية » ويدعونها الكوكب الزاهى — وهى التى وهبها الناصر لابنه الحكم . وكانت آية ذلك العصر فى الأدب والتاريخ . وقد تنقلت فى بلاد المشرق أثر موت الحكم فكانت موطن الاجلال والاكبار من العلماء جميعاً »

أما بعد : فذاك حديث النهضة العلمية الاسلامية وتلك آثار المرأة فيها ومآثرها عليها ، فهل رأيت ما رأيت فى أمة من الأمم قديمها وحديثها ؟ اللهم إنها حكمة الله ملأ بها أحناء تلك الصدور ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً .

نِثَارٌ مِنَ النَّثْر

نثـار من النـثر

١ — حفيـدة رسول الله

﴿ تفحم أهل العراق ﴾

حدث ابن أبي طاهر عن خِذَام الأسدى ، قال :

قدمت الكوفة سنة إحدى وستين . وهى السنة التى قتل فيها الحسين بن على عليهما السلام — فرأيت نساء الكوفة قياماً يَلْتَدِمْنَ(١) ورأيت على بن الحسين عليهما السلام وهو يقول بصوت ضئيـل قد نحل من المرض : يا أهل الكوفة إنكم تبكون علينا فمن قتلنا غيركم ؟ وسمعت أم كلثوم(٢) بنت على عليهما السلام وهى تقول — فلم أر خَفِرَةً والله أنطق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين علىّ عليه السلام ، وأشارت إلى الناس أن أمسكوا ، فسكنت الأنفاس وهدأت ، فقالت : الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على جدى سيد المرسلين . أما بعد :

---

(١) التدمت المرأة ضربت صدرها حزناً ونوحاً

(٢) أم كلثوم : هى خطيبة قريش وفصيحتها أم كلثوم بنت على بن أبي طالب عليه السلام . وأمها سيدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولدت فى أخريات العهد النبوى وتزوجها عمر فى خلافته وهى حدثة دون البلوغ وما أراد إلا أن يصل نسبه وسببه برسول الله وكان رضى الله عنه قد كلم علياً عليه السلام فى أمرها فقال على انما حبست بناتى على بنى جعفر فقال عمر زوجنيها يا على فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحبتها ما أرصد فقال على قد فعلت ثم غدا على بيته وأمر ببرد فطواه وقال لأم كلثوم انطلق بهذا الى أمير المؤمنين فقولى له أرسلنى أبى يقرئك السلام ويقول إن رضيت البرد فأمسكه وان سخطته فرده فلما أتت عمر قال بارك الله فيك وفى أبيك قد رضينا قالوا فرجعت الى أبيها فقالت ما نشر البرد ولا نظر الا الىّ فزوجها إياه فأقامت عنده حتى قتل عنها وولدت منه زيداً ورقية ثم خلفته على ابن عمها عوف بن جعفر بن أبى طالب فمات عنها ثم أعقبته على أخيه محمد بن جعفر فمات عنها فخلفته على أخيه عبد الله بن جعفر — بعد أن ماتت عنه أختها زينب — فماتت عنده . وكان موتها هى وابنها زيد فى يوم واحد . رضى الله عنهما

يا أهل الكوفة ! يا أهل الْخَتْر[١] والْخذل ، لا ، فلا رَقأت العَبْرَة ، ولا هدأت الرَّنَّة . انما مثلكم كمثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنْكاثًا تتخذون أَيْمَانَكم دَخَلاً بينكم . أَلاَ وهل فيكم إلَّا الصَّلَفُ والشَّنَفُ[٢] ومَلَق الإماء ، وغمز الأعداء . وهل أنتم إلَّا كمرعًى على دِمْنَة[٣] ؟ وكفضة على ملحودة[٤] ؟ ألا ساء ما قدَّمَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْكم وفى العذاب أنتم خالدون . أتبكون ! ! إى وَاللهِ فأبكوا ! وانكم والله أَحْرِياء بالبكاء . فأبكوا كثيراً ، واضحكوا قليلًا ، فلقد فزتم بعارها وشَنارها ، ولن تَرْحَضُوهَا بغسل بعدها أبداً[٥] وأنَّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، وسيد شباب أهل الجنة ، ومنار محجتكم ، ومِدْرَهِ حُجَّتِكم[٦] ، ومُفْرِخ نازلتكم، فتعساً ونكساً ! لقد خاب السعى، وخسرت الصفقة ، وبؤتم بغضب من الله ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة، لقد جئتم شيئًا إدًّا ، تكاد السموات يَتَفَطَّرْنَ منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا . أتدرون أىّ كبد لرسول الله فريتم ؟ وأى كريمة له أبرزتم ؟ وأى دم له سفكتم ؟ لقد جئتم بها شوهاء خرقاء ، شَرُّها طَلَاع الأرض والسماء . أفعجبتم أن قطرت السماء دماً ! ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون، فلا يستخفنكم المهل، فإنه لا تحفزه المبادرة[٧] ولا يخاف عليه فوت الثار . كلاً إن ربك لنا ولهم لبالمرصاد ؛ ثم ولت عنهم . قال فرأيت الناس حيارى قد ردوا أيديهم إلى أفواههم . ورأيت شيخاً كبيراً من بنى جُعْفِىّ ، وقد أخضلت لحيته من دموع عينيه ، وهو يقول :

كهولهم خير الكهول ونسلهم إذا عد نسل لا يبور ولا يخزى[٨]

---

(١) الختر الغدر والخديعة (٢) الصلف التكبر والخيلاء والشنف التنكر عمن تعرفه
(٣) الدمنة أثر الديار أو فضلاتها ينبت عليها مرعى أنيق الشكل مر المذاق وقد شبهوا بها كل شىء مموه لاخير فيه (٤) الملحودة القبر ومثل الفضة على الملحودة كمثل مرعى الدمن وهما جميعاً مثل الرجل المنافق
(٥) رحض الثوب غسله (٦) المدره المقدم فى اللسان واليد عند الخصومة والقتال
(٧) حفزه أعجله وأزعجه (٨) بلاغات النساء ج ٢٧ — ٢٩

(٢)

بين الوفاء للرأى والمضاء فيه

صواحب على فى مجلس معاوية(١)

﴿ سودة بنت عمارة ﴾

استأذنت سودة بنت عِمارة بن الأسَكّ الهَمْدانية على معاوية بن أبى سفيان فأذن لها . فلما دخلت عليه قال هيه يا بنت الأَسَكّ ! ألست القائلة يوم صفين ؟

شَمِّرْ كفعل أبيك يا ابن عمارة ... يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر عليّا والحسين ورهطه ... واقصد لهند وابنها بهوان
ان الإمام أخو النبي محمد ... علم الهدى ومنارة الإيمان
فقِهِ الحتوف وسر أمام لوائه ... قُدُماً بأبيض صارم وسنان

قالت إى والله ، ما مثلى من رغب عن الحق ، أو اعتذر بالكذب ، قال لها : فما حملك على ذلك ؟ قالت حب على عليه السلام ، واتباع الحق ، قال فوالله ما أرى عليك من أثر على شيئاً ، قالت أنشدك الله يا أمير المؤمنين وإعادة ما مضى، وتذكار ما قد نسى ! قال هيهات ! ما مثل مقام أخيك يُنسى وما لقيت من أحد ما لقيت من قومك وقوم أخيك . قالت صدق فوك ! لم يكن أخى ذميم المقام ، ولا خفى المكان ، كان والله كقول الخنساء :

وان صخرا لتأتم الهداة به ... كأنه علم فى رأسه نار

قال صدقت لقد كان ذلك فقالت مات الرأس ، وبُتر الذنب . وبالله أسأل أمير المؤمنين أعفائى مما استعفيت منه . قال قد فعلت . فما حاجتك ؟ قالت : إنك أصبحت للناس سيداً ، ولأمرهم متقلداً ، والله سائلك عن أمرنا وما افترض عليك

(١) فصلت وقادة أولئك النساء فى طائفة من كتب الادب منها بلاغات النساء والعقد الفريد وأشباهها

من حقنا، ولا يزال يقدم علينا من يبوء بعزك، ويبطش بسلطانك، فيحصدنا حصد السنبل، ويدوسنا دوس البقر، ويسومنا الخسيسة، ويسلبنا الجليلة، هذا بُسر بن أَرْطاة قدم علينا من قبلك، فقتل رجالى، وأخذ مالى، يقول لى: فوهى بما أستعصم الله منه وألجأ إليه فيه[1] ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فإما عزلته عنا فشكرناك، وأما لا فعرّفناك. فقال معاوية أتهدديني بقومك؟ لقد هممت أن أحملك على قتب أشرس فأردك اليه ينفذ فيك حكمه. فأطرقت تبكى، ثم أنشأت تقول:

صلى الآله على جسم تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغى به بدلاً فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال لها ومن ذلك؟ قالت على بن أبى طالب عليه السلام. قال وما صنع بك حتى صار عندك كذلك؟ قالت قدمت عليه فى رجل ولاه صدقتنا، قدم علينا من قِبَله، فكان بينى وبينه ما بين الغث والسمين، فأتيت علياً عليه السلام لأشكو اليه ما صنع بنا، فوجدته قائماً يصلى، فلما نظر إلىّ انفتل من صلاته ثم قال لى برأفة وتعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته الخبر، فبكى، ثم قال: اللهم أنك أنت الشاهد علىّ وعليهم، انى لم آمرهم بظلم خلقك، ولا بترك حقك. ثم أخرج من جيبه قطعة جلد كهيئة طرف الجواب فكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم. قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ

إذا قرأت كتابى فاحتفظ بما فى يدك من عملنا حتى يقدم عليك من يقبضه منك والسلام. فأخذته منه والله ما ختمه بطين، ولا خزمه بخزام، فقرأته. فقال لها

(١) تريد بذلك أن يأمرها بسب على للزراية بأبنائه وشيعته

معاوية : لقد لمَّظكم ابن أبي طالب الجرأة على السلطان، فبطيئاً ما تُعَظِّمون، ثم قال: اكتبوا لها برد مالها والعدل عليها، قالت: أَلِيَ خاصة، أم لقومي عامة؟ قال: ما أنت وقومك؟ قالت هي والله إذن الفحشاء واللؤم! إن لم يكن عدلاً شاملاً وإلاّ والله فأنا كسائر قومي. قال: اكتبوا لها ولقومها

﴿ أم الخير بنت الحرِيش البارِقِيَّة ﴾

كتب معاوية إلى واليه بالكوفة: أن أوفد عليَّ أم الخير بنت الحريش بن سُرَاقة البارقية، رحلة محمودة الصحبة، غير مذمومة العاقبة، واعلم انى مجازيك بقولها فيك، بالخير خيراً، وبالشر شراً. فلما ورد عليه الكتاب ركب اليها فأقرأها إياه، فقالت أما أنا فغير زائغة عن طاعة، ولا معتلة بكذب. ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج في صدري، تجرى مجرى النَّفَس يغلى بها غلى المرجل بحب البُلْسُنِ[1] يوقد بجِذْل السَّمُر[2]. فلما حملها وأراد مفارقتها قال: يا أم الخير، أن معاوية قد ضمن لى عليه أن يقبل بقولك فيَّ، بالخير خيراً، وبالشر شراً، فانظرى كيف تكونين؟ قالت: يا هـذا لا يُطمِعْك والله برك بي في تزويق الباطل، ولا تؤيسك معرفتك إياى أن أقول فيك غير الحق، فسارت خير مسير. فلما قدمت على معاوية أنزلها مع الحرم ثلاثا، ثم أذن في اليوم الرابع وجمع لها الناس، فدخلت عليه، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال وعليك السلام، وبالرغم والله منك دعوتني بهذا الاسم! فقالت مه يا هذا! فان بديهة السلطان مُدْحِضَة لما يجب علمه[3]. فقال صدقت يا خالة وكيف رأيت مسيرك؟ قالت لم أزلْ في عافية وسلامة حتى أُوفِدْتُ الى مُلك جَزْل وعطاء

(١) البلسن العدس (٢) الجذل أصل الشجرة بعد ذهاب الفرع والسمر شجر من أشجار البادية
(٣) البديهة المفاجأة ومدحضة مبطلة

بَذل . فأنا فى عيش أنيق ، عند ملك رفيق . فقال معاوية : بحسن نيتى ظفرت بكم وأعنت عليكم ، قالت : مه يا هذا ! لك والله من دحض المقال ما تُرْدى عاقبته قال ليس لهذا أردناك . قالت : إنما أُجرى فى ميدانك ، إذا أجريت شيئاً أجريته فاسأل عما بدا لك . قال : كيف كان كلامك يوم قتل عمَّارُ بنُ يَاسِر ؟ قالت : لم أكن والله رَوَّيته قبل ، ولا زَوَّرْته بعد[١] وإنما كانت كلمات نفثهن لسانى حين الصدمة . فان شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت . قال لا أشاء ذلك .

ثم التفت إلى أصحابه فقال : أيكم حفظ كلام أم الخير ؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد ، قال هاتِه ! قال نعم ، كأنى بها ، يا أمير المؤمنين ، وعليها بُرْد زَبِيدِىّ كثيف الحاشية ، وهى على جمل أرمك[٢] وقد أحيط حولها حَوَاء[٣] وبيدها سوط مُنتشِرُ الضَّفْر ، وهى كالفحل يَهْدِرُ فى شِقْشِقَتِهِ[٤] تقول : يا أيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَىْءٌ عظيم ، ان الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ، ونور السبيل ، ورفع العَلَم ، فلم يَدَعكم فى عمياء مُبهمة ، ولا سوداء مُدْلَهِمَّة ، فالى أين تريدن رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين ؟ أم فراراً من المؤمنين ؟ أم فرار من الزحف؟ أم رغبة عن الاسلام ؟ أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُم والصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ . ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى تقول : اللهم قد عيلَ الصبر، وضعف اليقين ، وانتشر الرعب ، و بيدك يا رب أزِمَّةُ القلوب . فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى . وارددِ الحق إلى أهله . هلموا رحمكم الله إلى الامام العادل ، والوصى[٥] الوفى ، والصِّدِّيق الأكبر

---

(١) رويت فى الأمر فكرت فيه وزورت الكلام زينته (٢) الارمك الرمادى

(٣) الحواء ما يتخذ كالوسادة على الرحل (٤) الشقشقة شىء كالرئة يخرجه البعير من فيه اذا هاج

(٥) انما سمى علىّ عليه السلام بالوصى لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم له « أنت منى بمنزلة هرون من موسى الا أنه لا نبى بعدى » فهو بذلك كقول الشيعة — قد أوصاه بالمسلمين واستخلفه عليهم

أنها إحَنٌ بَدْرية[1] وأحقاد جاهلية، وضغائن أُحُدِية، وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس . ثم قالت : فَاتِلوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ . صبراً معشر الأنصار والمهاجرين . قاتلوا عن بصيرة من ربكم وثبات من دينكم . وكأني بكم غداً لقد لقيتم أهل الشام كَحُمُرٍ مستنفرة لا تدرى أين يسلك بها من فجاج الأرض . باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى ، عما قليل لَيُصْبِحُنَّ نادمين ، حتى تحل بهم الندامة فيطلبون الاقالة . انه والله من ضل عن الحق وقع فى الباطل ، ومن لم يسكن الجنة نزل النار أيها الناس ! ان الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها ، واستبطئوا مدة الآخرة فسعوا لها . والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود ، ويظهر الظالمون وتقوى كلمة الشيطان ، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه . فالى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته ، خلق من طينته ، وتفرع من نَبْعَتِهِ ، وخصه بسره ، وجعله باب مدينته ، وعَلَم المسلمين ، وأبان ببغضه المنافقين[2] فلم يزل كذلك يؤيده الله عز وجل بمعونته ، ويمضى على سَنَنَ استقامته لا يعرج لراحته الدَّأب . ها هو مفلق الهام ، ومكسر الأصنام ، إذ صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس مرتابون ، فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزى بدر ، وأفنى أهل أُحُد ، وفرق جمع هوازن[3] فيالها من وقائع زرعت فى قلوب قوم نفاقاً ، وردّة وشقاقاً . قد اجتهدت فى القول ، وبالغت فى النصيحة ، وبالله التوفيق وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

فقال معاوية : والله يا أم الخير ما أردت بهذا الكلام إلا قتلى ! والله لو قتلتك

---

(١) الأحن جمع أحنة — الاحقاد — وبدرية نسبة الى بدر وهى أولى الوقائع بين المسلمين والمشركين تريد أن معاوية بإثارته الحرب على علىّ انما ينتقم لمن قتل من آله يوم بدر (٢) تشير بذلك الى قول رسول الله فيه « لا يحبه الا مؤمن ولا يبغضه الا منافق » (٣) تريد بذلك يوم حنين

ما حَرِجْتُ فى ذلك . قالت والله ما يسوءنى يا ابن هند أن يجرى الله ذلك على يَدَىْ من يسعدنى الله بشقائه . قال هيهات يا كثيرة الفضول : ما تقولين فى عثمان ابن عفان ؟ قالت وما عسيت أن أقول فيه ؟ استخلفه الناس وهم عنه راضون ، وقتلوه وهم له كارهون . فقال معاوية إيهاً يا أم الخير ! هذا والله أصلك الذى تبنين عليه[١] قالت لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزَلَهُ بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً . ما أردت لعثمان نقصاً وإن كان لسباقاً إلى الخيرات ، وانه لرفيع الدرجة . قال : فما تقولين فى طلحة بن عبيد الله[٢] قالت وما عسى أن أقول فى طلحة ؟ اغتِيل فى مأمنه ، وأُتى من حيث لم يحذر ، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة . قال فما تقولين فى الزبير[٣] قالت يا هذا لا تدعنى كرجيع الصبيغ يُعْرَكُ فى الْمِرْكن[٤] قال حقاً لتقولِنَّ ذلك وقد عزمت عليك . قالت وما عسيت أن أقول فى الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوارِيُّه[٥] ، وقد شهد له رسول الله الجنة . ولقد كان سباقاً إلى كل مكرمة فى الاسلام ، وإنى أسألك بحق الله يا معاوية فان قريشاً تحدث أنك أحلمها ، وأسألك بأن تسعنى بفضل حلمك ، وأن تعفينى من هذه المسائل ، وخذ فيما شئت من غيرها . قال نعم وكرامة . قد أعفيتك ، وردها مكرمة إلى بلدها .

---

(١) يريد أن سوء رأيها فى عثمان هو الذى دفعها الى مناصرة على (٢) طلحة بن عبيد الله أحد السابقين الأولين والأبطال المعلمين وعاشر عشرة بشرهم رسول الله بالجنة وسادس ستة اختارهم عمر رضى الله عنه ليكون منهم الخليفة من بعده وأول صحابى بايع علياً عليه السلام ثم استحال رأيه فخرج عليه وانضم الى جند عائشة رضى الله عنه يوم الجمل وهنالك أصيب بسهم أودى به رضى الله عنه (٣) كان أمر الزبير حيال على شبيهاً بأمر طلحة وكان قد انضم أيضاً الى جند عائشة فأرسل اليه على يذكره بقول رسول الله له « لتقاتلنه — يريد تقاتل علياً — وأنت ظالم له » فانثنى عن الموقعة فراراً من الباطل وعودا الى الحق فلما انتهى الى واد يقال له وادى السباع أخذه النوم فاغتاله رجل من مجاشع يقال له عمرو بن جرموز

(٤) الصبيغ الثوب المصبوغ والعرك الدلك والحك والمركن الآنية أى لا تتركنى كالثوب المصبوغ يدلك فيغير الماء (٥) حوارى الرجل صفوته من الناس

﴿ الزرقاء بنت عدى ﴾

سهر معاوية ليلة فذكر الزرقاء بنت عدى بن غالب بن قيس — امرأة كانت من أهل الكوفة ، وكانت ممن يعين علياً عليه السلام يوم صفين . فقال لأصحابه أيكم يحفظ كلام الزرقاء ؟ فقال القوم كلنا نحفظه يا أمير المؤمنين : قال فما تشيرون عليّ فيها ؟ قالوا نشير عليك بقتلها ، قال بئس ما أشرتم عليّ به ! أيحسن بمثلى أن يتحدث الناس أنى قتلت امرأة بعد ما ملكت وصار الأمر لى ؟ ثم دعا كاتبه فى الليل فكتب إلى عامله فى الكوفة أن أوفد إليّ الزرقاء ابنة عدى فى ثقة من محارمها ، وعدة من فرسان قومها ، ومهدها وطاء لينا ، واسترها بستر حصيف[١] فلما ورد عليه الكتاب ركب اليها فأقرأها الكتاب ، فقالت : أما أنا فغير زائغة عن طائعة . وإن كان أمير المؤمنين جعل المشيئة إليّ لم أرِم[٢] من بلدى هذا ، وإن كان حكم الأمر فالطاعة له أولى بى ، فحملها فى هودج وجعل غشاءه حبراً مبطناً بعصب اليمن ، ثم أحسن صحبتها . فلما قدمت على معاوية قال لها مرحباً وأهلاً خير مقدم قدم وافد . كيف حالك يا خالة ؟ وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت خير مسير ، كأنى كنت ربيبة بيت أو طفلاً ممهداً . قال بذلك أمرتهم فهل تعلمين لِمَ بعثت إليك ؟ قالت سبحان الله أنّى لِى بعلم ما لم أعلم ؟ وهل يعلم ما فى القلوب إلاّ الله ؟ قال بعثت إليك أن أسألك: ألست راكبة الجمل الاحمر يوم صِفّين بين الصفين ، توقدين الحرب وتحضين على القتال ؟ فما حملك على ذلك ؟ قالت يا أمير المؤمنين أنه قد مات الرأس وُبتِرَ الذنب ، والدهر ذو غِيَر ، ومن تفكر أبصر ، والأمر يحدث بعده الأمر . قال لها صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ قالت . ما أحفظه . قال ولكنى والله أحفظه ! لله أبوك . لقد سمعتك تقولين : أيها الناس ! أنكم فى فتنة غشتكم جلابيبَ الظلم ، وجارت

---

(١) الوطاء الفراش اللين والحصيف المحكم النسج (٢) لم أرم أى لم أتحرك

بكم عن قصد المحجة . فيا لها من فتنة عمياء صماء ، يسمع لقائلها ولا ينظر لسائقها أيها الناس ! أن المصباح لا يضيء فى الشمس ، وان الكوكب لا ينفذ فى الفجر وإن البغل لا يسبق الفرس ، وإن الزِّفَّ[1] لا يوازن الحجر ، ولا يقطع الحديد إلاّ الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن استخبرنا أخبرناه ، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها. فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار ؛ فكأنْ قد اندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة العدل ، وغلب الحق باطله ، فلا يعجلن أحد فيقول كيف وأنّى ؟ لِيَقْضِيَ الله أمراً كان مفعولاً . ألا إنّ خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، «والصبر خير فى الأمور عواقبا» . إيهاً إلى الحرب قُدُماً غير ناكصين فهذا يوم له ما بعده . ثم قال معاوية والله يا زرقاء لقد شركت علياً عليه السلام فى كل دم سفكه . فقالت أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك . مثلك من بشر بخير ، وسر جليسه . قال لها وقد سرك ذلك ؟ قالت نعم لقد سرنى قولك فأنّى بتصديق الفعل ؟ قال معاوية : والله لوفاؤكم له بعد موته أحب إليَّ من حبكم له فى حياته . أذكرى حاجتك. قالت يا أمير المؤمنين انى قد آليت على نفسى ألاّ أسأل أميراً أعَنْتُ عليه شيئاً أبداً . ومثلك أعطى عن غير مسألة . وجاد عن غير طلب . قال صدقت . فاقطعها ضيعة أغَلّتها فى أول سنة عشرة آلاف درهم . وأحسن صفدها ، وردها والذين معها مكرمين .

﴿ بكارة الهلاليـــة ﴾

استأذنت بكارة الهلاليـة على معاوية فأذن لها ، فدخلت ، وكانت امرأة قد أسنت وعشى بصرها ، وضعفت قوتها . فهى ترعش بين خادمين لها ، فسلمت ثم جلست ، فقال معاوية كيف أنت يا خالة ! قالت بخير يا أمير المومنين . قال غيَّرك

(١) الزف صغير الجص

الدهر . قالت كذلك هو ذو غِيَر ، من عاش كبر ، ومن مات قبر . وكان هنالك مروان بن الحكم وعمرو بن العاص فابتدأ مروان فقال ألا تعرف هذه يا أمير المؤمنين؟ قال ومن هى ؟ قال هى التى كانت تعين علينا يوم صفين وهى القائلة :

يا زيد دونك فاستثر من دارنا ... سيفاً حساماً فى التراب دفينا
قد كان مذخوراً لكل عظيمة ... فاليوم أبرزه الزمان مصونا

قال عمرو بن العاص : وهى القائلة يا أمير المؤمنين

أترى ابن هند للخلافة مالكا ... هيهات ذاك وما أراد بعيد
مَنَّتْك نفسك فى الخلاء ضلالة ... اغراك عمرو للشقا وسعيد
فارجع بأنكد طائر بنحوسها ... لاقت علياً أسعد وسعود

فقال سعيد يا أمير المؤمنين وهى القائلة

قد كنت آمل أن أموت ولا أرى ... فوق المنابر من أمية خاطبا
فالله أخر مدتى فتطاولت ... حتى رأيت من الزمان عجائبا
فى كل يوم لا يزال خطيبهم ... وسط الجموع لآل أحمد عائبا

ثم سكت القوم ، فقالت بكارة نبحتنى كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتنى ، فقصر مِحْجَنِى[1] وكثر عجبى ، وعشى بصرى ، وأنا والله قائلة ما قالوا ، لا أدفع ذلك بتكذيب ، فامض لشأنك ، فلا خير فى العيش بعد أمير المؤمنين ، فقال معاوية أنه لا يضعك شىء . فاذكرى حاجتك تقض . فقضى حوائجها وردها الى بلدها

(١) اعتورتنى أى تناوبتنى من كل جانب . والمحجن العصا

﴿ عِكْرِشَةُ بنت الأُطْرُوش ﴾

حدث ابن أبى طاهر عن الشافعى ، قال :

دخلت عكرشة بنت الأطروش على معاوية وبيدها عكاز فى أسفله زجّ[١] مسق ، فسلمت عليه بالخلافة وجلست ؛ فقال لها معاوية يا عكرشة ! الآن صرت أمير المؤمنين ؟ قالت نعم إذ لا علىٌّ حى . قال ألست صاحبة الكور[٢] المسدول والوسط المشدود ، والمتقلدة بحمائل السيف ، وأنت واقفة بين الصَّفين يوم صِفِّين تقولين « يأيها الناس عليكم أنفُسَكمْ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . ان الجنة دار لا يرحل عنها من قطنها ، ولا يحزن من سكنها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها . كونوا قوماً مستبصرين . ان معاوية دَلَفَ اليكم بِعُجْم العرب ، غُلْفِ القلوب[٣] لا يفقهون الايمان ، ولا يدرون ما الحكمة ، دعاهم بالدنيا فأجابوه ، واستدعاهم الى الباطل فلبَّوْه . فاللهَ الله عباد الله فى دين الله ! واياكم والتواكل فان فى ذلك نقض عروة الاسلام ، وأطفاء نور الايمان ، وذهاب السُّنَّة ، واظهار الباطل . هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى . قاتلوا يا معشر الأنصار والمهاجرين على بصيرة من دينكم ، واصبروا على عزيمتكم ، فكأنى بكم غداً قد لقيتم أهل الشام كالحمر النهاقة والبغال الشَّحَّاجة ، تَضْفَعَ[٤] ضَفْعَ البقر ، وتَرُوث روث العَنَاق ثم قال معاوية : فوالله لولا قدر الله وما أحب أن يجعل لنا هذا الأمر لقد انكفأ على العسكران . فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ان اللبيب اذا كره أمراً لم يحب اعادته . قال صدقت ، اذكرى حاجتك . قالت يا أمير المؤمنين ان الله قد رد صدقاتنا علينا ، ورد أموالنا فينا الا بحقها . وانا قد فقدنا ذلك فما يُنْعَش لنا

---

(١) الزج الحديدة فى أسفل الرمح أو نحوه ويطعن به (٢) الكور الرحل
(٣) غلف جمع أغلف والقلب الأغلف الذى كأنما غشى غلافاً فهو لا يعى (٤) تضفع أى تفرط

فقير ، ولا يجبر لنا كسير فان كان ذلك عن رأيك فما مثلك من استعان بالخونة واستعمل الظالمين . قال معاوية : يا هذه انه تنوبنا أمور هي أولى بنا منكم ، من بحور تنبثق وثغور تنفتق . قالت : يا سبحان الله ! ما فرض الله لنا حقاً جعل لنا فيه ضرراً على غيرنا ما جعله لنا وهو علام الغيوب . قال معاوية هيهات يا أهل العراق فقهكم ابن أبي طالب فلن تطاقوا . ثم أمر لها برد صدقتها وانصافها وردها مكرمة .

﴿ جروة بنت غالب ﴾

احتجم معاوية بمكة ، فلما أمسى أرق أرقاً شديداً ، فأرسل إلى جروة بنت غالب التميمية — وكانت مجاورة لمكة ، وهي من بني أسيد بن عمرو بن تميم ، فلما دخلت قال لها مرحباً يا جروة ، أرعناك ! قالت : إي والله يا أمير المؤمنين ، لقد طرقت في ساعة لا يطرق فيها الطير في وكره ، فارعت قلبي ، وريع صبياني ، وأفزعت عشيرتي ، وتركت بعضهم يموج في بعض ، يراجعون القول ويديرون الكلام خشية منك وشفقة علي . فقال لها ليسكن روعك ، ولتطب نفسك ، فان الأمر على خلاف ما ظننت . اني احتجمت فاعقبني ذلك أرقاً ، فارسلت اليك تخبريني عن قومك .

قالت : عن أي قومي تسألني ؟ قال عن بني تميم . قالت يا أمير المؤمنين هم أكثر الناس عدداً ، وأوسعه بلداً ، وأبعده أمداً . هم الذهب الأحمر ، والحسب الأفخر . قال فَنَزّليهم لي[1] قالت : يا أمير المؤمنين أما بنو عمرو بن تميم فأصحاب بأس ونجدة ، وتحاشد وشدة ، لا يتخاذلون عن اللقاء ، ولا يطمع فيهم الأعداء ، سلمهم فيهم ، وسيفهم على عدوهم . قال صدقت ، ونعم القول لأنفسهم . قالت : وأما بنو سعد بن زيد مناة ففي العدد الأكثرون ، وفي النسب الأطيبون ، يضرون ان غضبوا

(١) يريد وضعى كل عشيرة فى موضعها

ويدركون ان طلبوا ، أصحاب سيوف وحَجَف[١] ونزال وزَلَف[٢] ، على أن بأسهم فيهم ، وسيفهم عليهم . وأما حنظلة فالبيت الرفيع، والحسب البديع ، والعز المنيع ، المكرمون للجار ، والطالبون بالثار ، والناقضون للأوتار . قال ان حنظلة شجرة تفرع ، قالت: صدقت يا أمير المؤمنين . وأما البراجم فأصابع مجتمعة ، وكف ممتنعة . وأما طُهَيَّة فقوم هُوج وقِرْنٌ لَجوج . وأما بنو ربيعة فصخرة صماء ، وحية رقشاء[٣] يغزون لغيرهم ، ويفخرون بقومهم ، وأما بنو يربوع ففرسان الرماح ، وأسود الصباح، يعتنقون الأقران ، ويقتلون الفرسان . وأما بنو مالك ، فجمع غير مفلول . وعز غير مجهول ، ليوث هرَّارة[٤] ، وخيول كرارة ، وأما بنو دارم ، فكرم لا يدانى ، وشرف لا يسامى ، وعز لا يوازى ، قال أنت أعلم الناس بتميم . فكيف ، علمك بقيس ؟ قالت كعلمى بنفسى . قال نخبرينى عنهم ، قالت : أما غطفان ، فأكثر سادة ، امنع قادة . وأما فزارة ، فبيتها المشهور، وحسبها المذكور. وأما ذبيان ، فخطباء شعراء ، أعزة أقوياء . وأما عبس ، فجمرة لا تطفا ، وعقبة لا تعلى ، وحية لا ترقى[٥] وأما هوازن ، فحلم ظاهر ، وعز قاهر . وأما سُليم ، ففرسان الملاحم ، وأسود ضراغم . وأما نمير ، فشوكة مسمومة ، وهامة مذمومة ، وراية ملمومة ، وأما هلال، فاسم فخم، وعز ضخم ، وأما بنو كلاب ، فمدد كثير ، ونخر أثير . قال لله أنت ! فما قولك فى قريش قالت يا أمير المؤمنين هم ذروة السَّنام ، وسادة الأنام ، والحسب القَمقام قال فما قولك فى على — عليه السلام — قالت حاز والله فى الشرف حداً لا يوصف ؛ وغاية لا تعرف ، وبالله أسأل أمير المؤمنين اعفائى مما أتخوف . قال قد فعلت ، وأمر لها بضيعة غلتها عشرة آلاف درهم .

---

(١) الحجف — جمع حجفة — التروس من جلد بلا خشب (٢) الزلف الاقدام (٣) الحية الرقشاء المنقطة بسواد وبياض (٤) هر الاسد زأر (٥) لا ترقى لا تنفع فيها الرقية

﴿ الـكلمات الخالدة ﴾

لمـا قُتل المفضل بن المهلب دخل ثابت قُطنةَ الْعَتَـكِىّ[١] على هند بنت المهلب ، والناس حولها جلوس يعزونها فأنشدها :

يا هند كيف بنُصب بات يبكينى	وعائر فى سواد الليل يؤذينى[٢]
لما حنى الدهر من قوسى وعذرنى	قاسيت منه أمَرّ الغلظ واللين[٤]
إذا ذكرت أبا غسـان أرقنى	هم إذا عرس السارون يشجينى[٥]
كان المفضل عزاً فى ذراعن	وعصمة وثمالا فى المساكين
ما زلت بعدك فى هم تجيش به	نفسى وفى نَصَب قد كان يَسلينى
انى تذكرت قَتلىَ لو شهدتم	فى حومة الموت لم يصلوا بها دونى
لا خير فى العيش إن لم أجن بعدهم	حربا تنىء بهـم قتلى فيشفونى

فقالت له هند ! اجلس يا ثابت ، فقد قضيت الحق ، وما من الْمَرْزِئَةِ[٦] بدّ ، وكم من ميتة ميت أشرف من حياة حى ، وليست المصيبة فى قتل من استُشْهد ذاباً عن دينه ، مطيعاً لربه ، وإنما المصيبة فيمن قلت بصيرته ، وخمل ذكره بعد موته ، وأرجو ألا يكون المفضل عند الله خاملا[٧]

---

(١) ثابت قطنة ! هو ثابت بن كعب العتكى الشاعر الـكاتب البطل الكريم . وانما لقب بقطنة لأن سهماً أصابه فى احدى عينيه فذهب بها فى بعض حروب الترك فكان يغشيها بقطنة . وكان فى صحابة يزيد بن المهلب وكان يوليه بعض الثغور فيحمد فيها لـكتابته وشجاعته

أما هند فابنة المهلب بن أبى صفرة أعظم نساء عصرها نفساً وأذكاهن قلباً وأشجعهن أباً . زوجت من الحجاج بن يوسف وكانت أكرم أزواجه عليه وأحبهن اليه

(٢) النصب الداء أو البلاء — والعائر كل ما أعل العين أو هو الرمد أو القذى يصيب العين

(٣) يريد بهجود الاصداء سكون الاصوات والسليم اللديغ (٤) عذر الدار طمس آثارها ومنه استعار سوء حاله وأدبار الدهر به (٥) أبو غسان كنية المفضل والسارون السائرون ليلا وعرسوا نزلوا فى آخر الليل (٦) المرزئة المصيبة (٧) الاغانى ج ١٣ طبع الساسى

﴿ قوة الحجة وحسن البيان ﴾

كانت أم جعفر بن يحيى — وهى فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قَحْطبة — أرضعت الرشيد مع جعفر، لأنه كان رَبى فى حَجْرها، وغَذِىَ برِسْلها، لأن أمه ماتت عن مهده، فكان الرشيد يشاورها مظهرا لاكرامها، والتبرك برأيها. وكان آلى وهو فى كفالتها أن لا يحجبها، ولا استشفعته لأحد الا شفَّعها، وآلت أم جعفر أن لا دخلت عليه إلا مأذونا لها، ولا شفعت لأحد مقترف ذنبا. قال سهل ابن هرون: فكم أسير فكت، ومبهم عنده فرجت، ومستغلق فتحت.

ولما فتك الرشيد بابنها جعفر، وقذف بزوجها وبقية أسرتها فى غياهب السجن بعد ايقاعه بالبرامكة — طلبت الاذن عليه فى دار البانوقة، ومتَّت بوسائلها اليه، فلم يأذن لها، ولا أمر بشىء فيها. فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها واضعة لثامها، محتفية[1] فى مشيها، حتى صارت بباب قصر الرشيد، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب فقال: ظِئْر[2] أمير المؤمنين بالباب فى حالة تقلب شماتة الحاسد الى شفقة أم الواحد. فقال الرشيد: ويحك يا عبد الملك، أوَ ساعية؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، حافية! قال: أدخلها يا عبد الملك، فرب كَبِدٍ غذتها، وكُرْبة فرجتها، وعورة سترتها، قال سهل: فما شككت يومئذ فى النجاة بِطِلاَبها، واسعافها بحاجتها، فدخلت؟ فلما نظر الرشيد اليها داخلة محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عَمَد المجلس، وأكب على تقبيل رأسها، ومواضع ثدييها، ثم أجلسها معه فقالت: يا أمير المؤمنين! أيعدو علينا الزمان، ويجفونا خوفا لك الأعوان، ويحردك بنا البهتان[3] وقد ربيتك فى حجرى، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى؟ فقال لها: وما ذلك يا أم الرشيد؟ قال سهل:

---

(١) محتفية أى حافية (٢) الظئر العاطفة على ولد غيرها المرضعة له (٣) الحرد الغضب والبهتان الزور

فآيسني من رأفته تركه لـكنيتها آخراً ما أطمعني من بره بها أولا[1] قالت : ظئرك يحي وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته ، وأشفاقه عليه ، وتعرضه للحتف فى شأن موسى أخيه[2] قال لها : يا أم الرشيد أمر سبق ، وقضاء حُمّ ، وغضب من الله نفذ . قالت : يا أمير المؤمنين يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ . قال : صدقت ! فهذا مما لم يمحه الله . فقالت : الغيب محجوب عن النبيين ، فكيف عنك يا أمير المؤمنين ؟ قال سهل : فأطرق الرشيد مليا ثم قال :

وإذا المنيـة أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمـة لا تنفع

فقالت بغير روية : ما أنا ليحي بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قال الأول :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل : وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . فأطرق هارون مليًا ، ثم قال يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تُقْبِـــلُ

فقالت يا أمير المؤمنين وأنا أقول :

ستقطع فى الدنيا إذا ما قطعتني يمينك فانظر أى كف تَبَدّل

قال هرون : رضيت . قالت فهبه لى ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ترك شيئاً لله لم يوجده الله فقده . فأكب هرون ملياً ، ثم رفع رأسه يقول : لِلّٰهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ . قالت يا أمير المؤمنين : وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . واذكر يا أمير المؤمنين أَلِيَّتَك ما استشفعت إلّا شفعتني . قال : واذكرى يا أم الرشيد أليتك أن لا شفعت

(١) يريد أن تركه نداءها بأم جعفر آيسه مما طمع فيه من العفو عن آلها (٢) راجع رواية «الهادى» للمؤلف

لمقترف ذنباً . قال سهل : فلما رآته صرح بمنعها، ولاذ عن طلبها، أخرجت حقاً من زمردة خضراء فوضعته بين يديها . قال الرشيد : ما هذا ؟ ففتحت عنه قفلاً من ذهب فأخرجت منه ذوائبه وثناياه فدغمست جميع ذلك فى المسك . فقالت : يا أمير المؤمنين أستشفع إليك ، وأستعين بالله عليك ، وبما صار معى من كريم جسدك ، وطيب جوارحك ، ليحي عبدك . فأخذ هارون ذلك فلثمه ثم استعبر وبكى بكاء شديداً ، وبكى أهل المجلس ، ومر البشير إلى يحيي وهو لايظن إلا أن البكاء رحمة له ، ورجوع عنه . فلما أفاق رمى جميع ذلك فى الحق وقال لها : لَحَسَنٌ ما حفظت الوديعة ، قالت : وأهل المكافأة أنت . فسكت وأقفل الحق ودفعه إليها . وقال : إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أَهْلِهَا . قالت : والله يقول : وإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ . ويقول : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ . ثم قال وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : ما أقسمت لى به أن لا تحجبنى ولا تمهنى . قال : يا أم الرشيد أنشريه مُحكَّمَة فيه ؟ قالت : أنصفت ، وقد فعلت غير مستقيلة لك ، ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عمن لايُسْخِطك . قال : يا أم الرشيد أما لى عليك من الحق مثل الذى لهم؟ قالت : بلى ! أنت أعز عَلَىّ ، وهم أحب إلىّ . قال : فتحكمى فى ثمنه بغيرهم . قالت : بلى قد وهبتكه وجعلتك فى حل منه وقامت عنه ، وبقى مبهوتاً ما يحير لفظة . قال سهل : وخرجت فلم تعد ولا والله ما رأيت لها عَبرة ، ولا سمعت لها أنّة[1] .

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨ — ٢٩

﴿ بين القبور ﴾

(١)

لما توفى أبو بكر رضى الله عنه قامت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها على قبره ، فقالت :

نَضَّر الله وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا مُذلًّا بأدبارك عنها ، وللآخرة معزاً بأقبالك عليها ، وان كان لَأَجَلُّ الأرزاء بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم رُزْؤُك ، وأكثر المصائب فقدك ، وان كتاب الله ليعد بجميل العزاء فيك ، وحسن العوض منك . فأتنَجَّزُ من الله موعده فيك ، بالصبر عنك ، واستخلصه بالاستغفار لك[1] .

(٢)

توفى الأحنف فى دار عبد الله بن أبى العُصَيْفِير بالكوفه ، وكان مُصْعَب بن الزُّبير إذ ذاك أميراً على الكوفة من قِبَل أخيه عبد الله بن الزبير ، فشيع مصعبِ جنازة الأحنف ، فخرج مُتَسَلِّباً[2] فى قميص بغير رداء — وكانت الأمراء تفعل ذلك بالسيد إذا مات — فلما دفن الأحنف أقبلت صَفِيَّة بنت هشام المِنْقريَّة على نجيب[3] لها متخصرة[4] وكانت بنت عم الاحنف — حتى وقفت على قبره فقالت :

لله دَرُّك من مُجَنّ فى جَنَن[5] ومدرج فى كفن . إنا للهِ وإنا إليهِ راجعون . جعل الله سبيل الخير سبيلك ، ودليل الرشد دليلك . أما والذى أسأله أن يفسح لك فى مدخلك ، وأن يبارك لك فى محشرك ، ووالذى كنت من أجَله فى عدّة ، ومن كتابه فى مدة ، ومن الأثرة إلى نهاية ، ومن المضمار إلى غاية، لقد كنت صحيح

---

(١) البيان والتبيين ج ٣ ص ١٦٧ (٢) تسلب لبث ثياب الحداد (٣) النجيب البعير أو الفرس الكريم العتيق (٤) متخصرة واضعة يدها فى خاصرتها (٥) مجن مدفون والجنن القبر

الأديم ، منيع[١] الحريم ، عظيم السلم ، فاضل الحلم ، وارى الزّناد ، رفيع العماد ، وان كنت لمُسَوَّدا ، وإلى الملوك لموفدا ، وفى المحافل شريفاً ، وعلى الأرامل عطوفاً وكانت الملوك لقولك مستمعين ، ولرأيك متبعين ، ولقد عشت حميداً ودوداً ، ومت شهيداً فقيداً .

ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت عباد الله : أن أولياء الله فى بلاده ، شُهود على عباده ، وانا لقائلون حقاً ، ومثنون صدقاً ، وهو أهل لطيب الثناء . فعليه رحمة الله وبركاته . وما مَثَلُهُ فى الناس الا كما قال الشاعر فى قيس بن عاصم .

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما
سلام امرئ أودعته منك نعمة اذا زار عن شحط بلادك سلّما
فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهدما

قال فتعجب الناس من كلامها وقال فصحاؤهم تالله ما رأينا كاليوم قط ، ولا سمعنا أفصح ولا أبلغ من هذه . قال فبعث اليها مصعب بن الزبير فخطبها على نفسه فأبت عليه . فما زال يتعهدها ببره حتى قتل[٢] .

(٣)

حدث الأصمعى قال :

دَفَعْتُ يوماً فى تَمشّى بالبادية إلى وادٍ خَلاءٍ لا أنيس به إلا بَيتٌ مُعْتَنِزٌ[٣] بفنائه أعْنُزٌ ، وقد ظَمِئْتُ ، فيمّمته ، فسلّمت ، فاذا عجوز قد برزت كأنها نعامة راخِم[٤] فقلت هل من ماء ؟ فقالت : أو لَبنَ ؟ فقلت ما كانت بغيتى إلا الماء فاذا يسر اللهُ اللبن فانى إليه فقير .

(١) تريد بالاديم العرض (٢) بلاغات النساء ص ٥٥ — ٥٦ (٣) المعتنز المنفرد
(٤) الراخم التى تحضن بيضها

فقامت الى قَعب[١] فأفرغت فيه ماء ، ونظفت غسله ، ثم جاءت الى الأعنز فَتَغَبَّرَتهن[٢] حتى احتلبت قُرَابَ مِلْءِ القَعْبِ ، ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا[٣] وطفت ثُمالته[٤] كأنها غمامة بيضاء ، ثم ناولتنى إياه فشربت حتى تَحَبَّبْتُ[٥] رِيًّا واطمأننت ، فقلت إنى أراكِ معتزة فى هذا الوادى الموحش والحِلَّة[٦] منكِ قريب! فلو انضممت إلى جَنابهم[٧] ، فأنست بهم ؟

فقالت يا ابن أخى : انى لآنس بالوَحشة ، وأستريح إلى الوحدة ، ويطمئن قلبي إلى هـذا الوادى الموحِشِ فأتَذَكَّر مَنْ عهدت ، فكأنى أخاطب أعيانهم ، وأتراءى أشباحهم ، وتَتَخَيَّل لى أندية رجالهم ، وملاعب وُلدانهم ، ومُنْدَّى[٨] أموالهم ، والله يا ابنَ أخى لقد رأيت هذا الوادى بَشع اللّدِيدين[٩] بأهل أدواح[١٠] وقباب، ونَعَم كالهضاب، وخيل كالذّئاب ، وفتيان كالرماح يبارون الرياح ، ويحمون الصّباح ، فأحال عليهم الجلاء قمًّا[١١] بغرفة، فأصبحت الآثار دارسة، والمحالُّ طامسة . كذلك سيرة الدهر فيمن وثق به . ثم قالت : ارم بعينك فى هذا الملا المتباطن[١٢] فنظرت، فاذا قبور نحو أربعين أوخمسين؛ فقالت : ألا ترى تلك الأجداث ؟ قلت نعم . قالت : ما انطوت إلا على أخ ، أو ابن أخ ، أو عم ، أو ابن عم ، فأصبحوا قد الْتَأَت[١٣] عليهم الأرض ، وأنا أترقب ما غالهم . انصرف راشداً رحمك الله[١٤]

---

(١) القعب قدح فوق الصغر ويشبه الحافر فى هيئته (٢) تغبرتهن احتلبت الغبر — بضم الغين وسكون الباء — وهى بقية اللبن فى الضرع (٣) رغا علت رغوته (٤) الثمالة الرغوة
(٥) تحببت أى امتلأت (٦) الحلال جماعات لناس وواحدها حلة (٧) الجناب فناء الدار
(٨) المندى المكان الذى يندى فيه المال أى يجمع (٩) بشع ملان واللديدان الجانبان
(١٠) الادواح جمع دوحة والدوحة الشجرة العظيمة (١١) قما أى كنسا (١٢) الملا الفضاء والمتباطن المتطامن (١٣) الْتأت عليهم احتوت عليهم (١٤) أمالى القالى ج ٢ ص ٧ طبع بولاق

﴿ بين الرجاء والدعاء ﴾

(١)

وقفت امرأة من هوازن على عبد الرحمن بن أبي بكرة فقالت : أصلحك الله ، أقبلت من أرض شاسعة ، ترفعني رافعة ، وتخفضني خافضة[١] بِمُلِحَّاتٍ[٢] من البلاد وملمَّات من الدهور ، برين عظمى ، وأذهبن لحمى ، وتركننى والهاً . وانزلننى إلى الحضيض ، وقد ضاق بى البلد العريض ، لا عشيرة تحمينى ، ولا حميم يكنفنى ، فسألت فى أحياء العرب مَنِ المرجو سيبه ، المأمون غيبه ، المكفى سائله ، الكريمة شمائله ، المأمول نائله ، فأرشدت إليك . وأنا امرأة من هوازن ، مات الوافد ، وغاب الرَّافد[٣] ومثلك من سد الخلة[٤] وفك الغلَّة ، فاصنع إحدى ثلاث . إما أن تقيم من أوَدِى[٥] أو تحسن صَفَدى[٦] أو تردنى إلى بلدى . قال : أجمعهن لك وحُبًّا .

(٢)

خرج المهدى يطوف بعد هدأة من الليل ، فسمع أعرابية من جانب المسجد وهى تقول : قوم مبطلون ، نَبَت عنهم العيون ، وفدحتهم الديون ، وعَضَّتهم السِّنون . بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، أبناء سبيل ، وأنضاء طريق[٧] وصية الله ووصية رسوله صلى الله عليه وسلم . فهل من امرىء يجبرهم ؟ كلأه الله فى سفره ، وخلفه فى أهله

فأمر نضيرا الخادم فدفع اليها خمسمائة درهم

---

(١) تريد بالرافعة المرتفع من الأرض وبالخافضة الوهاد منها (٢) يريد بالملحات الشديدة الضيق
(٣) الراقد المعطى (٤) الخلة الحاجة والفقر (٥) أصل الأود العوج وتريد به هنا الحاجة
(٦) الصفد العطاء (٧) النضو المهزول وجمعه أنضاء

(٣)

لما قدم ابراهيم بن محمد المدينة أتته عجوز من ولد الحارث بن عبد المطلب فشكت اليه ضنك المعيشة ، فقال : ما يحضرنى الكثير ، ولا أرضى لك بالقليل وأنا على ظهر سفر ، فاقبلى ما حضر ، وتفضلى بالعذر . ثم دعا مولى له فقال ادفع اليها ما بقى من نفقتنا ، وخذى هذا العبد والبعير . فقالت بأبى أنت وأمى ! أجزل الله فى الآخرة أجرك ، وأعلى فى الدنيا كعبك ، وغفر لك يوم الحساب ذنبك ، فأنت والله كما قالت أم جميل بنت أمية

زين العشـيرة كلها ... فى البدو منها والحضر
ورئيسها فى النائبـا ... ت وفى الرحال وفى السفر
ورث المكارم كلهـا ... وعلا على كل البشر
ضخم الدسيعة ماجد ... يعطى الجزيل بلا كدر

(٤)

خرجت اعرابية الى مِنى فقطع بها الطريق، فقالت : يارب أخذت وأعطيت ، وأنعمت وسلبت ، وكل ذلك منك عدل وفضل . والذى عَظَّمَ على الخلائق أمرك ، لابسطت لسانى بمسئلة أحد غيرك ، ولا بذلت رغبتى الا اليك ، ياقرة أعين السائلين ، اغننى بجود منك أتبحبح فى فراديس نعمته ، وأتقلب فى رواق نضرته ، واحملنى من الرّجلة ، وأغننى من العَيْلة، واسدل علىّ سترك الذى لا تمزقه الرماح ، ولا تزيله الرياح ، انك سميع الدعاء

﴿ الكلم القصـار ﴾

(١) دخلت امرأة من بنى أميـة على عبد الله بن علىّ بالشام فبكت فقال م تبكين ؟ أجزعا على أهلك على ما أصابهم ؟ قالت لا ، ولكنه ما كان يوم سرور ألا وهو رهن بيوم مكروه ، وما امتلأت دارٌ حَبْرَة الا امتلأت عَبرة

(٢) قيل لِحُبّى المدنية : ما الجرح الذى لا يندمل ؟ قالت : حاجة الكريم الى اللئيم ثم لا يجدى عليه . قيل لها فما الشرف . قالت : اعتقاد المنة فى أعناق الرجال تبق للأعقاب .

(٣) قيل لأعرابية مات ابنها : ما أحسن عزاءك ؟ قالت : إن فقدى إياه آمننى كل فقد سواه . وان مصيبتى به هونت علىّ المصائب بعده . ثم أنشأت تقول :

كنت السواد لناظرى فعمِى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر
ليت المنازل والديا ر حفائر ومقابر
إنى وغيرى لا محا لة حيث صرت لصائر

(٤) حدث اسحاق الموصلى عن رجل من أهل المدينة . قال : كنت فى جنازة عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وإذا امرأة تقول واحرّاه عليك ! فسألت عنها ، فقالوا هذه أمه . فدنوت منها ، فقلت يا أم عبد الله : إن عبدالله كان بعض البشر . فقالت : إن عبد الله كان ظهراً فانكسر ، وأصبح أجراً ينتظر وإن فى ثواب الله لعزاء عن القليل ، وجزاء على الكثير .

(٥) كانت هند بنت المهلب تقول : إذا رأيتم النعم مستدرّة فبادروا بالشكر قبل الزوال .

(٦) دعت أعرابية لابن لها وجهته إلى حاجة ، فقالت :

كان الله صاحبك فى أمرك ، وولى نجح طلبتك ، امْضِ مصاحباً مكلوأً ، لا أشمت الله بك عدواً ، ولا أرى محبيك فيك سوءا .

(٧) وقفت أعرابية فقالت : يا قوم سنة جردت ، وأيد جمدت ، وحال أجهدت ، فهل من فاعل لخير ، وآمر بِمَيْر . رحم الله من رحم فأقرض من لم يظلم.

(٨) رأت عائشة أم المؤمنين رجلاً متماوتاً فقالت : ما هذا ؟ فقالوا زاهد قالت : كان عمر بن الخطاب زاهداً . وكان إذا قال أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب فى ذات الله أوجع .

(٩) قال رجل لولادة العبدية : وكانت كأعقل النساء ، إنى أريد الحج فأوصينى . قالت : أ أوجز فأبلغ ، أم أطيل فأحكم ؟ فقال : بما شئت . قالت : جد تسد ، واصبر تفز . قال أيضاً . قالت : لا يتعد غضبك حلمك ، ولا هواك علمك ، وقِ دينك بدنياك ، ووفر عرضك بعَرَضك ، وتفضَّل تخدم ، واحلم تُقَدَّم . قلت : فمن أستعين ؟ قالت : إن قلت من الناس . قلت : الجلد النشيط ، والناصح الأمين . قال : فمن أستشير ؟ قالت : المجرب الكيس ، أو الأديب ولو الصغير . قال : فمن أستصحب ؟ قالت : الصديق المسلم ، أو المداجى المتكرم . ثم قالت : يا ابناه إنك تفد على ملك الملوك فانظر كيف يكون مقامك بين يديه .

(١٠) قالت أعرابية لابنها : أى بنى ! إن سؤالك الناس ما فى أيديهم ، من أشد الافتقار إليهم ، ومن افتقرت إليه هُنْتَ عليه ، ولا تزال تحفظ وتكرم حتى تسأل وترغب . فإذا ألحت عليك الحاجة ، ولزمك سوء الحال فاجعل سؤالك إلى من إليه حاجة السائل والمسئول .

(١١) مات لاعرابية ميت فغمضته وترحمت عليه ، ثم قالت : ما أحق من ألبس العافية . وأطيلت له النَّظِرَةُ ألا يعجز عن النظر لنفسه ، قبل الحلول بساحته والحيال بينه و بين نفسه .

(١٢) قالت هند بنت عتبة : المرأة غُل ، ولا بد للعنق منه ، فانظر من تضعه فى عنقك .

(١٣) نظرت إعرابية إلى امرأة حولها عشرة من بنيها كأنهم الصقور فقالت : لقد ولدت أمكم حزناً طويلاً .

(١٤) بلغ عائمة بنت عاثم[١] ثلب معاوية وعمرو بن العاص لبنى هاشم . فقالت لأهل مكة :

أيها الناس ! أن بنى هاشم سادت فجَادت ، وَمَلَكَتْ وَمُلِّكَتْ ، وَفَضَلَت وَفُضِّلَت ، واصطفت واصطفِيت ، ليس فيها كدر عيب ، ولا أفك ريب ، ولا خسروا طاغين ، ولا خازين ، ولا نادمين ، ولا هم من المغضوب عليهم ولا الضالين .

لما ذهب صالح بن على إلى الشام من قبل السَّفّاح سيق اليه نساء بنى أمية وبناتهم ، فلما دخلن عليه تكلمت بنت لمروان فسلمت عليه بالخلافة . فقال : لست بالخليفة ، ولكني عمه . فقالت يا عمَّ أمير أمير المؤمنين ! حفظ الله من أمْرِكَ ما تحب أن يحفظه ، وخصك فى الأمور كلها بخواص كرامته . وعمك بالعافية الْمُجَلِّلةِ فى الدنيا والآخرة ، نحن بناتك وبنات أخيك ، فَلْيَسَعْنا عدلك ، قال : إذ لا يستبقى منكم آلُ البيت أحداً ، رجلاً ولا امرأة . ألم يقتل أبوك بالأمس أخى الامام فى محبس حران ؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن على وصلبه وأمر بقتل امرأته فقتلها يوسف بن عمر صبراً ؟ ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد بخراسان وأحرق خشبته وجثته ؟ فما الذى استبقيتم منا أهل البيت ؟ قالت : قد ظفرتم فَلْيَسَعْنا عفوكم قال : أما هذا فنعم . قد عفونا عنكم

(١٧) دخلت ليلى الاخيلية على الحجاج بن يوسف فسألها عن نسبها فانتسبت اليه . فقال لها يا ليلى ما أتى بك ؟ فقالت : إخلاف النجوم ، وقلة الغيوم وَكَلَبَ البَرْدِ[٢] وشدة الجهد[٣] وكنت لنا بعد الله الرِّفد[٤] فقال لها : صِفِ الفجاج .

---

(١) هى إحدى حكيات العرب المعمرات روى الجاحظ أنها كانت تعد فى العهد النبوى أربعمائة عام

(٢) الكلب الشدة (٣) الجهد المشقة (٤) الرفد العطاء

فقالت : الفجاج[1] مُغْبَرَّة ، والأرض مُقْشعِرَّة[2] ، والمنزل معتل ، وذو العيال مختل ، والهالك المِقِل ، والناس مسنتون[3] رحمةَ الله يرجون ، وأصابتنا سنة مجحفة مبطلة[4] لم تدع لنا هيْماً[5] ولا ريْماً[6] ولا عافطة[7] ولا نافطة[8] أذهبت الأموال ، وفرقت الرجال ، وأهلكت العيال .

(١٨) أُسِرت أم علقمة الخارجية وأتى بهـا إلى الحجاج فقيل لها وافقيه فى المذهب فقد يظهر الشرك بالمكر . فقالت قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين . فقال لها قد خبطت الناس بسيفك يا عدوة الله خبط العشواء . فقالت : لقد خفت الله خوفاً صيرك فى عينى أصغر من ذباب — وكانت منكسة — فقال : ارفعى رأسك وانظرى إلى . فقالت أكره أن أنظر إلى من لا ينظر الله اليه ، فقتلها .

(١٩) كانت أسماء بنت أبى بكر تقول لبناتها ونساء آلها . أنفقن وتصدقن ولا تنتظرن الفضل ، فأنكن ان انتظرتن الفضل لم يفضلن شيئاً ، وان تصدقتن لم تجدن فقده .

(٢٠) وقدم اليها ولدها المنذر بن الزبير من العراق بثياب رقاق عتاق[9] بعد ما كف بصرها ، فلمستها بيدها ، ثم قالت : ردوا عليه كسوته فشق ذلك عليه وقالت يا امَّه أنها لا تَشِفُّ[10] فقالت إن لم تشف فانها تصف[11]

---

(١) الفجاج جمع فج — الطرق الواسعة بين الجبال (٢) مقشعرة مجدبة (٣) مسنتون مجدبون
(٤) مبطلة مضيعة (٥) الهيم الصوت وتريد به صوت الماشية (٦) الريع فضل كل شىء
(٧) العافطة العنز (٨) النافطة القدر يقال نفطت القدر إذا غلت (٩) العتاق جمع عتيق وهو الحسن من كل شىء (١٠) يريد لا يتم عن الجسم (١١) تريد أنها تفصل الجسم تفصيلاً

عيونٌ مِنَ الشّعْر

١ — قالت فتاة أعرابية احتملها زوجها الى مكان قصى :

ألا أيها الركب اليمانون عرّجوا ‏ ‏ ‏ علينا فقد أضحى هوانا يمانيا
نسائلكم هل سال نَعمانُ[١] بعدنا ‏ ‏ ‏ وحُبّ الينا بطن نعمان واديا
فان به ظلا ظليلاً ومشرباً ‏ ‏ ‏ به نُقِع القلب الذى كان صاديا[٢]

٢ — تزوج رجل من تِهامة امرأة من نجد، فلما نقلها اليه قالت ما فعلت ريح من نجد كانت تأتينا يقال لها الصَّبا ؟ ما رأيتها ههنا : فقال يحجزها عنا هذان الجبلان ، فأنشأت تقول :

أيا جَبَلَىْ نعمان بالله خليا ‏ ‏ ‏ نسيم الصَّبا يخلص إلىّ نسيمها
فان الصبا ريح اذا ما تنفست ‏ ‏ ‏ على قلب محزون تجلت همومها
أجد بَرْدها أو يشف منى حرارة ‏ ‏ ‏ على كبد لم يبق إلا صميمها[٣]

٣ — وقال حفص بن الأروع الطائى كنت أسيراً فى بلاد طىء فاذا بجارية تسوق أعنزاً ، فقلت يا جارية أى البلاد أحب إليك ؟ فقالت :

أَحَبُّ بِلَاد الله ما بين مَنْعِجٍ ‏ ‏ ‏ الىّ وسلمى أن يصوب حجابها[٤]
بلاد بها حل الشباب تمائمى ‏ ‏ ‏ وأول أرض مَسّ جلدى ترابها[٥]

---

(١) نعمان اسم لخمسة أودية أحدها وراء عرفة (٢) بلاغات النساء ص١٩٩ (٣) أخبار النساء ص ٩
(٤) منعج وسلمى موطنان من مواطن نجد وصاب السحاب العسب تريد أن أحب المواطن اليها ما بين هذين المسكانين وهى ترجو أن تعشب أرضها مما يصوب سحابها (٥) محاضرات الأدباء ج ٣ ص ٢٧٥

(٤) وتزوج رجل من حُجْر بامرأة من تميم ، فلما احتملها اليها قالت

لقد كنت عن حجر بعيداً فساقنى صروف النوى والسابقات الى حجر
يقولون فرش من حرير وانما أرى فرشهم عندى كحامية الجمر

(٥) وقالت اعرابية مرضت بعيداً عن بلدها

خليليّ ان حانت بحربة مِيتَتى وأزمعتما ان تجملا لى بها قبرا
الا فاقرآ منى السلام على قَنًا وحَرَّةِ ليلى لا قليلا ولا نزرا
سلام الذى قد ظن ان ليس رائياً رَماصا ولا من حَرَّتيْه ذُرَى خُضراً[١]

﴿ عهد الطفولة ﴾

قالت فتاة تتغنى بأيام طفولتها

ألا لا أبالى اليوم ما دمتُ جاريا[٢] وما دمت أسمى لا أبالى أزاريا
وما دمت أسمى بين أم عزيزة وبين أب بَرّ يحب تَجاليا
اذا عصبوا بُرْدِى بشُقَّةِ بردهم وقيل اقعدِنْ فى البيت يُخْلَط ذاليا
ومر جوارى الحى من كل وجهة لألعب إن اللعب كان شفائيا[٣]

﴿ فى البكاء ﴾

بكاء الأبناء

كان معاوية قد أرسل قائده الطاغية بُسْر بن أرطاة مغيراً على اليمن . وكانت فى حوزة علىّ عليه السلام — ففر من وجهه أميرها عبيد الله بن العباس فلم يجد السفاح غير طفلين له ، فعمد اليهما فذبحهما ، وترك أمهما ذاهلة

---

(١) حربة وقنا وحرة ليلى مواطن من نجد ورماس واد من أودبتها والحرة لأرض الصلبة السوداء بلاغات النساء ص ١٩٨ (٢) جاريا ترخيم جارية وهى الحدثة السن (٣) بلاغات النساء ص ١٩٨

اللب ، مخطوفة اللقب ، تهيم فى كل واد ، وتغشى كل مجتمع وناد ، وتتغنى بما يثير الحسرات ويسيل العبرات . ومن قولها فيهما

ألا يا من سي الأخوين أمهما هى الثكلى
تسائل من رأى ابنيها وتستسق فما تسْقَى
فلما استيأست رجعت بِعَبْرةٍ وَإلهٍ حَرَّى
تتابع بين وَلْوَلَةٍ وبين مدامع تَتْرى

وكذلك قالت

يا من أَحَسَّ بِإبْنَيَّ اللَّذيْن هما كالدُّرَّتين تَشظّى عنهما الصَّدَف[1]
يا من أَحَسَّ بابنى اللذين هما سمعى وقلبى فقلبى اليوم مُزْدَهَفُ
يا من أَحَسَّ بابنى اللذين هما مخ العظام فمخى اليوم مُخْتَطَفُ
نُبِّئْت بُسراً وما صدقت ما زعموا من قولهم ومن الأفك الذى اقترفوا
انحى على وَدَجَىْ[2] طِفْلَىَّ مُرْهَفَةً مشحوذة وكذاك الأفك يقترف
مَن دل والهـة حرى مُوَلَّهة على حبيبين ضَلاَّ إذ غدا السلف[3]

ووقفت اعرابية على قبر ابن لها يدعى عامراً فقالت :

أقمت أبكيه على قبره من لِىَ من بعدك يا عامر
تركتنى فى الدار ذا وحشة قد ذل من ليس له ناصر[4]

وقالت زبيدة ابنة جعفر ترثى ولدها الأمين

أودى بِإلفين من لم يترك الناسا فامنَحْ فؤادك عن مقتولك الياسا
لما رأيت المنايا قد قصدن له أصبن منه سواد القلب والراسا

(١) تشظى انكشف (٢) الودجان عرقا العنق (٣) الاغانى ج ١٥ ص ٤٣ — ٤٥
(٤) العقد الفريد ج ٢ ص

فبت مكتئباً أرعى النجوم له   أخال سنته بالليـل قرطاسا
رُزئته حين باهيت الرجال به   وقد بنيت به للدهر آساسا
فليس من مات مردوداً لنا أبداً   حتى يرد علينـا قبله ناسا

وقالت أعرابية تندب ابناً لها

أُبنيَّ غيبك المحـل الملحد   إمَّا بَعِدْتَ فأَيْنَ من لا يَبْعَدُ
أنت الذى فى كل ممسى ليـلة   تَبلى وحزنك فى الحشا يتجدد

وقالت فيه

لئن كنت لهواً للعيون وقرة   لقد صرت سقماً للقلوب الصحائح
وهون حزنى أن يومك مُدْرِكى   وأنى غداً من أهل تلك الضرائح[1]

﴿ بكاء الآباء ﴾

قالت امرأة من بنى شيبان قتل أبوها ورجال من أسرتها مع الضحاك الحَرُورِى

من لقلب شفه الحزن   ولنفس مالهـا سَكَنُ
ظعن الأبرار فانقلبوا   خيرهم من معشر ظعنوا
معشر قضوا نحوبهـم   كل ما قد قدموا حسن
صبروا عند السيوف فلم   يَنْكلوا عنها ولا جَبُنُوا
فتيـة باعوا نفوسـهم   لا ورب البيت ما غُبِنُوا
فأصاب القوم ما طلبوا   مِنَّـةٌ ما بعـدها منن

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ١٤

وقالت أروى بنت الْحُبَاب ترثى أباها

قل للأرامل واليتامى قد ثوى ... فلتبك أعينها لفقد حُبَاب

أودى ابن كل مخاطر بتلاده ... وبنفسه ُبقْيا على الاحساب

الراكبين من الأمور صدورها ... لا يركبون معاقد الأذناب[١]

وقالت فاطمة بنت رسول الله تبكى أباها صلى الله عليه وسلم

انا فقدناك فَقْد الأرض وَابِلَهَا ... وغاب مذ غبت عنا الوحى والكتب

فليت قبلك كان الموت صادفنا ... لما نعيت وحالت دونك الكُتُبُ

{ بكاء الاخوة }

قالت ليلى بنت طريف التغلبية ترثى أخاها الوليد بن طريف :

بتل نُبَاتَى[٢] رسم قبر كأنه ... على جبل فوق الجبال منيف

تضمن جوداً حاتمياً ونائلاً ... وسَوْرَة مقدام ورأى حصيف

إلا قاتل الله الْحَشَى كيف أضمرت ... فتى كان للمعروف غير عَيُوفِ[٣]

فَإلاّ تجبْنى دِمْنَةٌ هى دونه ... فقد طال تسليمى وطال وقوفى

وقد علمَت ان لا ضعيفاً تضمنت ... إذا عظم الَمرْزَى ولا ابنَ ضعيف[٤]

فتى لا يلوم السيف حين يهزه ... على ما اخْتلى من مِعصِم وصَلِيف[٥]

فتى لم يحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف

ولا الخيل إلا كل جَرْداء شَطْبَةٍ ... وأجود عالى المُنْسِجَيْنِ غَروفِ[٦]

---

(١) حماسة البحترى (٢) نباتى موطن بالبصرة (٣) الحشى موضع بقرب المدينة وآخر بالعراق وعيوف من عاف الشيء كرهه (٤) المرزى المصاب (٥) الصليف عرض العنق

(٦) الجرداء والاجرد من الخيل ما لاشعر فيه والشطبة الفرس الطويلة الحسنة ومنسجا الفرس جانباه والغروف السريع

فقــدناه فِقْدانَ الربيع وليتنـا ... فدينـاه من فتياننــــا بألوف
وما زال حتى أرهق الموتُ نفسه ... شجاً لعــــدو أو لَجَا لضَعيف
حليف النَّدى ان عاش يرضى به النَّدى ... وإن مات لا يرضى الندى بحليف
فإن يك أرداه يَزيدُ بن مِزْيَدٍ ... فرب زُحُوف فَضَّهــا بزحوف
فيـا شجر الخـابور مالك مورقاً ... كـأنك لم تحزن على ابن طريف
ألا يا لقومى للنـــوائب والردى ... ودهـر مُلِحّ بالكـرام عنيف
ولِلبدر من بين الكواكب إذ هوى ... وللشمس همت بعـده بكسوف
ولِلّيْث فوق النعش إذ يحمـلونه ... إلى حفـــرة ملحودة وسقوف
بكت تَغْلِبُ الغَلْبَاءِ يوم وفاته ... وأبرز منهـا كل ذات نصـيف
يقلن وقد أبرزن بعـدك للورى ... معاتِدَ حَلْيٍ من بُرى وشُـنوف[1]
كأنك لم تشهـد مصاعاً ولم تقم ... مقاماً على الأعداء غَدْوَ خَفيف[2]
ولم تشـتمل يوم الوغى بكتيبة ... ولم تبدُ فى خضراء ذات رفيف[3]
عليك ســــلام الله وقفـا فأننى ... أرى الموت وقاعاً بكل شريف[4]

وقالت كذلك تبكيه :

ذكـرت الوليـد وأيامـه ... إذا الأرض من شخصه بَلقعُ
فأقبلت أطلبه فى السـماء ... كما يبتغى انفَه الأجـدعُ
أضاعك قومــك فلينظروا ... إفادة مثـل الذى ضيعوا
لو ان السيوف التى حدُّها ... أصابك تعـلم ما تصــنع
نبت عنك أو جَعَلَتْ هيبة ... وخوفاً لِصـولك لا تقطع

---

(١) معاتد الشيء أنفه (٢) المصاع لوقعة من المصع وهو الضرب بالسيف (٣) الخضراء الدرع والرفيف اللمعان (٤) حماسة البحترى ص ٢٧٦

وقالت عَمْرَة بنت مرداس — وهى ابنة الخنساء — ترثى أخاها :

أعينىّ لم أختِلْكما بخيـــانة ... أبَى الدهر والأيام أن أتصبرا

وما كنت أخشى أن أكون كأننى ... بعـــير إذا يُنعى اخَىّ تحسرا

ترى الخصم زُوراً عن أخىّ مهابة ... وليس الجليس عن أخَىّ بأزورا[1]

وقالت امرأة ترثى أخوتها :

رَعَوْا من المجد إلى أكنافاً إلى بلد ... حتى إذا أكملت أظماؤهم وردوا

ميْت بمصر وميت بالعراق وميـــت ... بالحجاز منايا بينهم بَدَدُ

كانت لهم همم فرقن بينهم ... إذا القعادِ دُعن أمثالها قعدوا[2]

بذل الجميل وتفريج الجليل واعطـــاء ... الجزيل اذا لم يعطه أحد[3]

﴿ رثاء الأزواج ﴾

قال الأصمعى

دخلت بعض مقابر الأعراب ومعى صاحب لى ، فإذا جارية على قبر كأنها تمثال ، وعليها من الحلى والحلل ما لم أر مثله ، وهى تبكى بعين غزيرة وصوت شجى ، فالتفتُّ الى صاحبي ، فقلت : هل رأيت أعجب من هذه ؟ قال لا والله لا أحسبنى أراه ، ثم قلت لها يا هذه ! أنى أراك حزينة وما عليك زِىُّ الحزن ؟ فأنشأت تقول :

فإن تسألانى فيم حزنى فأننى ... رهينة هـــذا القبر يا فتيانِ

وأنى لأستحييه والترب بيننا ... كما كنت أستحييه حين يرانى

أهابك أجلالا وإن كنت فى الثرى ... مخافة يوماً أن يسوؤك لسانى

(١) زور جمع أزور أى منحرفين بلاغات النساء ص ١٩٦ (٢) القعادد جمع قعدد — بضم القاف والدال — الجبناء (٣) حماسة البحترى ص ٧٤

ثم اندفعت فى البكاء وجعلت تقول

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بى بالا ويكثر فى الدنيا مواساتى
قد زرت قبرك فى حَلْيٍ وفى حلل كأنني لست من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه أن قد تسربه فى بعض هيئاتى
فمن رآنى رأى عَبرَى مُوَلَّهَةً عجيبة الزى تبكى بين أموات[١]

وقالت عاتكة بنت زيد ترثى زوجها عمر بن الخطاب رضى الله عنه

مَن لنفس عادها أحزانها ولعين شفها طول السَّهَد
جَسدٌ لفِّف فى أكفانه رحمة الله على ذاك الجسد
فيه تفجيع لمــولى غارم لم يَدَعه اليوم يمشى بسَبَد[١]

وقالت فيه

وفَجَّعَنى فيروز لا در دره بأبيض تال للكتاب نجيب
رؤوف على الدانى غليظ على العدى أخى ثقــة فى النائبات مجيب
متى ما يقل لا يكذب القول فعله يريع الى الخيرات غير قطوب

وقال الأصمعى : رأيت بصحراء جارية قد ألصقت خدها بقبر وهى تبكى وتقول

خدِّى يقيك خشونة اللحد وقليلة لك سيدى خدى
يا ساكن القبر الذى بوفاته عميت علىَّ مسالك الرشد
اسمع أبثَّك غلتى ولعانى أطفى بذلك حرقة الوجد[٢]

وكان أمير المؤمنين الأمين قد عقد على لُبانة بنت رَيْطة بن على فقتل عنها قبل البناء بها ، فقالت تبكيه

أبــكيك لا للنعيم والأُنُسِ بل للمعالى والرمح والفرس

(١) مختار المراثى ص ١٦٥ طبع بيروت (٢) العقد الفريد ج ٢

أبكى على سيد فُجِعت به　　أرملنى قبـل ليلة العرُس
يا فارساً بالعـراء مطَّرحاً　　خانته قواده مع الحرس
من للحروب التى تكون بها　　ان أُضرمت نارها بلا قبس
من لليتــامى إذا هم سغبوا　　وكل عان وكـل محتبس
أمْ مَن لبر أم من لفـــائدة　　أم من لذكر الاله فى الْغَلَسِ[١]

وقال الأصمعى

خرجت إلى مقابر البصرة فاذا أنا بامرأة على قبر من أجمل النساء وهى تندب صاحبه وتقول :

هل أخبر القبر سائليه　　أم قر عيناً بزائريه
يا جبلا كان ذا امتناع　　وطود عز لآمليـه
يا نخلة طلعها نضيد　　يقرب من كف مُجْتنيه
يا موت ماذا أردت منى　　حققت ما كنت أتقيه
دهر رمانى بفقد إلفى　　أذم دهرى واشتكيه
آمنك الله كل خوف　　وكل ما كنت تتقيه
أسكنك الله فى جنان　　تكون أمناً لساكنيه

قال : فقلت لها يا أمة الله ما هذا منك ؟ قالت لو علمت مكانك ما انشدت حرفاً ! هذا زوجى وسرورى وأنبى . والله لا زلت هكذا أبداً أو الحق به[٢]

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٢　(٢) أخبار النساء ص ٦٩

﴿ فى التذمر من الأزواج ﴾

قالت امرأة تذكر ضيق صدرها وفرط عنائها من زوجها

يا من يلذذ نفسه بعذابى ... ويرى مقاربتى أشد عذاب
مهما يلاقى الصابرون فانهم ... يُؤْتَوْن أجرَهُمُ بغير حساب
لو كنت من أهل الوفاء وفيت لى ... إن الوفاء حلى أولى الألباب
مازلت فى استعطاف قلبك بالهوى ... كالمرتجى مطراً بغير سحاب
يا رحمتى لى فى يديك ورحمتى ... لى منك ياشينا من الأصحاب
ياليتنى من قبل ملكك عصمتى ... أمسيت ملكاً فى يد الأعراب
هل لى إليك إساءة جازيتها ... ألا لباسى حلة الآداب[1]

وحدث القالى قال :

كان رجل من أهل الشام مع الحجاج يحضر طعامه فكتب الى امرأته يعلمها لك فكتبت إليه

أيُهدى لى القرطاس والخبز حاجتى ... وأنت على باب الأمير بطين
اذا غبت لم تذكر صديقاً ولم تُقِمْ ... فأنت على ما فى يديك ضنين
فأنت ككلب السوء ضيّع أهله ... فَيُهزل أهل البيت وهو سمين

(١) بلاغات النساء ص ١٥٤

﴿ فى الأنفة والإباء ﴾

دخل عبد الملك بن مروان على زوجته عاتكة بنت يزيد فرأى امرأة بدوية أنكرها، فقال لها من أنت ؟ قالت أنا الوالهة الحرى ليلى الأخيليّة . قال من القائل :

أريقت جفان ابن الخليع فأصبحت	حياض النـدى زالت بهن المراتب
فعُفَّاؤُها لهفَى يطوفون حوله	كما انقض عرش البئر والورد عاصب

قالت أنا الذى أقول ذلك . قال : فما أبقيت لنا . قالت : ما أبقى الله لك : نسباً قُرَشِيًّا ، وعيشاً رخياً ، وإِمْرَة مطاعة . قال أفردته بالكرم ! قالت : أفردته بما انفرد به ، فقالت عاتكة لعبد الملك : قد جاءت تستعين بنا عليك فى عين تسقيها وتحميها لها ، ولست لِيَزِيد ان شفَّعتها فى شىء من حاجاتها لتقديمها اعرابيا جِلفاً جافياً على أمير المؤمنين ، فوثبت ليلى فجلست على راحلتها وقالت :

ستحملنى ورحلى ذات لَوْث[1]	عليها بنت آباء كرام
إذا جعلت سواد الشام دونى	وأغلق دونها باب اللئام
فليس بعائد أبداً اليهم	ذوو الحاجات فى غلس الظلام
أعاتك لو رأيت غداة بنَّا	سلو النفس عنكم واعتزامى
إذاً لعلمت واستيقنت أنى	مشيعة ولم ترعَىْ ذمامى
أأجعل مثل توبة فى نداه	أبا الذبّان فوه الدهر دامى[2]
معاذ الله ما وخدت برحلى	تغذ السير فى البلد التهامى
أقلت خليفة فسواه أحجى	بأمرته وأولى بالشآم
لئام الملك حين تُعد كَعْبٌ	ذووالأخطاروالخطَطِ الجسام[3]

(١) اللوث القوة (٢) توبة صاحب ليلى وأبو الذبان تريد به عبد الملك لانه كان أبخر دامى الفم فيسقط عليه الذباب أحياناً (٣) بلاغات النساء ص ١٤٧ والاغانى ج ١٠ ص ٨٢

آخر صفحة من كتاب العظائم

﴿ زبيدة بنت جعفر ﴾

هى كوكب السَّحَر فى سماء العظائم ، وآخر السُّوَر من كتاب العزائم ، هى زبيدة بنت جعفر، حفيدة المنصور، وزوج الرشيد ، وأم الأمين .

نشأت زبيدة فى مهد الدولة العباسية فكانت مهبط الحب وموطن الرعاية من قلوب بنى العباس ، وأخصُّهم لحل أجمتهم وركن دولتهم أبو جعفر المنصور ، فقد كان يؤثرها بقلبه، ويختصها بحبه، وهو الذى دعاها زبيدة لِما رأى من بَضاضتها ونعومتها ، وقد ظهر من إعزازها والمغالاة بها يوم زفها عمها المهدى إلى ابنه الرشيد ما لا يتسع له مجال الخيال .

فقد ألقى عيها من غوالى اللآلئ ما أثقلها وعاق سيرها . بل لقد نثر اللؤلؤ فى جنبات طريقها على البسط الموشية بأسلاك الذهب .

وكان لها من قلب الرشيـد حِمًى لا يرام . وبرغم من تصدين له من جوارى الفرس ، وما تأنقن فيـه من حسن مخضوب ، وجمال مجلوب ، وما ابتدعنه من ضروب اللهو ، وفنون الايقاع ، وما امتزن به من خلابة ودعابة — برغم ذلك كله لبثت زبيدة ربة القول الفصل فى قلبه وقصره ودولته .

أما وفور فضلها ، وسماح يدها ، وعظمة قلبها ، ونفـاذ لبها ، ونبل خليقتها ، وصفاء قريحتها فما سار مسار الأمثـال ، وذلك ميراث أمهاتها من عقائل قريش ، وسلائل بنى هاشم .

وحديث حجها ، وما ابْتَنَت فيه من عظائم ، وقدمت من مكارم ، حديث لا يدع لقائل قولا ولا لمفتخر سبيـلا . فقد بلغ ما بذلت فيما نَوَّلَتْ من بر وما

ابتنت فى طريق مكة من مساجد ومنازل ومشارب ألف ألفٍ وسبعمائة ألف دينار وما كان ذلك كله إذا قيس بعين زبيدة شيئاً مذكوراً .

وقبل أن نأخذ فى القول عن عين زبيدة نقول كلمتنا فى الأمين وما ذهب من مقالات السوء عنه، فرب قائل يقول وأى أثر تركته المرأة العظيمة فى ولدها الخليع ؟!

أستغفر الله ! ما كان الأمير خليعاً ، ولا مائقاً ، ولا مارقا ، ولا سرفا فى دينه ودنياه . بل كان شأنه كشأن أبناء النابهات من العرب ، كف نَدِيّة ، وهمة قصية ، وفطنة هاشمية وظل فى الفضل ممدود ، وأمد فى النبل غير محدود ، ولكنْ هُمُ المرجفون ، من شيعة المأمون . وقالة السوء من شعوبية الفرس ، ألحقوا به ما ألحقوا ظلماً وزوراً لانه اعتصم بالعرب ، وجعلهم حزبه وشيعته ، وترك ما سنه آباؤه من استدناء الفرس ، وابتغاء الوسيلة عندهم ، وتفويض الأمر كله اليهم ، فنزعوا الى المأمون ونزع اليهم لما بينه وبينهم من وشيج الرحم وفرط الهوى ، فأثاروها على الخليفة العربى حملة فارسية ، وأجلب بهم المأمون على أخيه فساروا اليه محدَّدى الاظافر ، مرهفى الأنياب ، حتى هتكوا عليه داره فذبحوه ، وحملوا رأسه الى صاحبهم ! فهل رأيت أشد وأشنع من ذلك ؟ ! أخ يقتل أخاه ، ويروى نفسه بدمه ، ويحمل رأسه من بغداد الى أعماق بلاد الفرس ، ليجعله مسلاة الأعاجم وملهاة الموالى ! !

يقولون أن الأمينَ أسرف فى الشراب ! فاللهم أنهم كذبوا . لقد علموا أن الرشيد حد ابنه المأمون فى الخمر أو ما هو شر منها ،[1] فأما الامين فلم يكد يلى أمر المسلمين حتى ارتهن أبا نواس فى سجنه وأطال فيه بلاءه وعناءه ، لأنه لج فى الخمر وأكثر من ذكرها[2] .

(١) الفخرى طبع (شالون ص٢٩٢) (٢) ديوان أبى نواس ص ٣٦١

لعمرى لقد ذل العرب بموت الأمين ذلة تصدع لها ركن الاسلام صدعا لم يجبره المأمون بما اجتلب من علم وأدب، حتى لقد قال قائلهم :

سألونا عن حالنا كيف أنتم مَنْ هَوَى نجمه فكيف يكون
نحن قوم أذلنا حادث الدهـ ـر فَظَلْنَا لريبه نستكين
نتمنى من الأمين أيابًا ليت شعرى وأَينَ منا الأمين

وان أعوزتك صفات الأمين، فاستمع لما قالته فيه لبانة ابنة ريطة « ونحن نعيد شيئاً منه لحاجتنا اليه ونعلم أن الشعراء وان أغرقوا فى الصفات فهم لا يخلقونها:

قالت لبانة

أبكيت لا للنعيم والانُس بل للمعالى والرمح والفرس

حتى قالت

من للحروب التى تكون بها ان اضرمت نارها بلا قبَس
من لليتامى اذا هم سغبوا وكل عان وكل محتبس
أم من لِبرٍّ أم من لفائدة أم من لذكر الإله فى الغلس

وقال أبو نواس فى رثائه :

أيا أمين الله من للندى وعصمة الضعفى وفك الأسير
خلفتنا بعدك نبكى على دنياك والدين بدمع غزير
يا وليتا بعدك ماذا بنا من ضنك صروف الدهور
لا خير للأحياء فى عيشهم بعدك والزلفى لأهل القبور

وعلى ذكر الامين وأمه زبيدة نذكر لها وصية أوصت بها على بن عيسى حين خرج للقاء جيش المأمون « يا على ! أن أمير المؤمنين وإن كان ولدى فانى على عبد الله « المأمون » متعطِّفة مشفقة، لما يحدث عليه من مكروه وأذى . وانما ولدى ملك

نافس أخاه فى سلطانه ، فاعرف لعبد الله حق ولادته وأُخوّته ولا تَجْبَهْهُ بالكلام فانك لست نظيراً له ، ولا تقتسره اقتسار العبيد ، ولا توهنه بقيد أو غل ، ولا تمنع عنه جارية أو خادماً ، ولا تُعْنِفْ عليه فى السير ، ولا تساوه فى المسير ، ولا تركب قبله ، وخذ بركابه إذا ركب ، وان شتمت فاحتمل منه[1] »

فهل عرف المأمون أو بطانته أن يوصوا طاهر بن الحسين بمثل هذا .

ونعود الى ما نوهنا بالقول عنه فى عين زبيدة فنقول :

إذا قيست الآثار بما تنال على الدهر من خلود ، وما ينال الناس منها من دفع غائلة ، وتنفيس ضائقة ، فكل عمل دون ذلك العمل الجليل ، مهين ضئيل

وليس جلال الاثر أن تذهب به فى أقطار السماء ، وتريق على جنباته دماء الضعفاء ، ثم لا يكون للناس منه إلا أنه جبل يسامى الجبل الأشم ، والغراب الأعصم ، فان ذلك سمة من سمات الظلم ، ونزعة من نزعات الاستبداد ، ولعمرى أن كوخا من هشيم الكلأ لامرأة ضعيفة معوزة ، أعظم وأفضل فى شرعة الانصاف منه

لذلك كانت عين زبيدة أثراً صالحاً تفنى دونه الآثار وتتحطم المعالم .

لم يكن لأهل مكة من المناهل إلاّ المَسَايل التى يجودها المطر أحياناً ، وبعض البثار التى تفيض آناً وتجف آناً . فإن جفاهم الغيث عاماً فالويل لهم ولكل راغية وثاغية عندهم .

أما الحجاج فكانوا يحتملون من قرب الماء ما يؤودهم ويوقر ظهورهم . ولقد أخذ بقلب زبيدة العظيم ما عامت فى حجها أن راوية الماء تباع بدينار[2] وأن الفقير إنما يَتَبَلّغ بما يتساقط من قطرات الْغَنِىّ فاعتزمت روّى الله بدنها أن تحفر

(١) الفخرى ص ٢٩٥ (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٢٣٧ والراوية القربة الصغيرة

لآل مكة ولقصاد البيت الحرام نهراً جارياً يتصل بمنابع الماء ومساقط المطر بالغة من بعد الشقة ووعورة الطريق ما بلغت .

ولم يَسنح بخاطر أحد منذ عهد اسماعيل صلوات الله عليه حتى عهد زبيدة رضي الله عنها مثل ذلك الخاطر الوثاب . خاطر اجراء نهر بين شعاب مكة ، بل ولم يتمنَّه تمنياً، لأنه أبعد من حد التمني . أما زبيدة التي تحتكم على خراج الدولة الاسلامية، والتي لها من مالها وجواهرها ما لا تفي به الأرقام ، ولا تحيط به الأوهام ، والتي فاض حنانها ، وثارت عاطفتها ، إلى حد لا يُدفع ولا يرد — فقد اعتزمت أن تجرى ذلك النهر ولو كان سبيله دجلة والفرات .

هنالك دَعَت خازن أموالها وأمرته أن يدعو العُرَفاء والمهندسين والعمال من أطراف الأرض وأقاصى البلاد ! فَعَظُم خازنها الأمر وما يُستَنفَدُ من المال فيه فقالت زبيدة تلك الكلمة الخالدة : « اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً » فلم يكن بعد ذلك إلا أن يراض العمل على اعتسافه ، فسيق إلى مكة أهل الكفاية من كل مهندس ناقد وعامل عتيد ، فأخذوا يصلون بين منابع الماء فى شَعفات الجبال ، ويظاهرون ذلك بما يحتفرون من الآبار ، وما يُعَمِّقُون من المسايل ، ثم يغلغلون ذلك كله بين أعطاف الصخور تارة وفى أعماق الأرض طوراً حتى ينتهى ذلك كله إلى النهر الذى احتفروه .

وأهم ما اعتمدوا عليه عين حُنين فى جبال طاد الى الشمال من (عرَفَة) وعلى مدى خمسة وثلاثين كيلومتراً من مكة أعزها الله ، وتجرى فى وادى حنين ثم ظاهروا ذلك بمجرى آخر من وادى النعمان من مسايل جبال كسرى الى الشرق والجنوب من عرفات وعلى مدى عشرة كيلومترات منها وعززوا الْمَجْرَيَيْن بعد ذلك بسبع أقنية تتبعوا فيها مساقط السيل فسار ذلك كله فى ممر عظيم بين الصخور حتى

ينتهى الى منى فينحدر فى خزان عميق نقروه لذلك فى الجبل وسموه الى اليوم بئر زبيدة . ومن هناك يسير الماء فى فرعين : يذهب أحدهما الى عرفات ، وينتهى الآخر الى مسجد نمرة

ولهذه العين بل لذلك النهر الفرات مَوَادِع فى أعماق أرض مكة يخزن الماء فيها

ولكيلا يأسَنَ الماء صرف ما فضل منه عن رى الظماء الى بركة ماجِن بالمسفلة فقام حولها الزهر الناضر والثمر الجَنىّ

تلك هى عين زبيدة التى احتملت ماء الحياة سائغة هنية الى أم القرى، الى مُتَّجه أبصار المسلمين ، ومعتصم أقطارهم ، ومناط وحدتهم ، وقبلة جماعتهم ، الى الوادى المقدس الذى يجتمع فيه ضيوف الله فى بيته ، ويصعدون فوق مرتقى رحمته ، تهفو مآزرهم على مناكبهم ، وتَجِفُ قلوبهم بين أعطافهم ، وتجول دموعهم فى مآقيهم . وهم يهتفون بصوت واحد ينبعث من قلب واحد « لبيك اللهم لبيك » فان أظمأتهم مواقفهم فمن ذلك المنهل الطاهر المطهر نُهلة ريقهم ، ونقيع زفراتهم وَبِلَال أكبادهم

ذلك أثر المرأة التى تركت هُجَنَاء الرجال فى أودية الضلال يجد بهم الدهر وهم عنه لاهون ، ويشتد بهم الأمر وهم فى غيهم يعمهون

تلك هى النفوس التى صاغها الله من روحه ، وروّاها من رحمته ، واصطنعها لاذاعة خُلُقه ، وهيأها لتزكية خَلْقه ، وابتعثها غُرَّةً فى جبين الزمان وَأَمَنَةً من كيد الحدثان

سلام على تلك الخلائق أنها مسلمة من كل عار ومأثم

الفهرس

شهيرات النساء في العالم الاسلامي

تأليف : قدرية حسين

السيرة أطرف الوان الأدب ، لأنها تجلو الاحداث من خلال الابطال، وتبرز التاريخ في اطار من القصة ، وتنهض بالمثل بطاقة من الواقع ، وتوشي الحقيقة بمسحة من الخيال .

وكم من سيرة فرد حركت شعباً ، وانطلقت بأمة ، وانعطفت بمجرى الاحداث ، فكانت مركز الثقل في تاريخ الامم ونهضات الشعوب .

وتاريخنا العربي زاهٍ بسيرة ابطاله مباهٍ بأعمال رجاله ، الذين كم كسفوا من نجوم وخسفوا من كواكب .

إلا ان التوفر على سيرة شهيرات نسائنا يكاد يكون يتيماً حتى انقطعت له الاديبة الكبيرة قدرية حسين .

وكان ميلاد هذا السفر واسطة العقد في سيرة البطولة ، عرضاً لخصال شهيرات نسائنا ، وخلال بطلاتنا ، وكل منهن في الادب والفن والحكمة والسياسة بيت القصيد بقول الشاعر :

ولو كان النساء كمن فقدنا   لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب   ولا التذكير فخر للهلال

ان سفر « شهيرات النساء في العالم الاسلامي » كتاب كل أم وبنت ومربية ، وكل راغب لابنته وأخته السيرة الفضلى والقدوة المثلى ، في السير على نهج الصالحات الفاضلات .

دار الكاتب العربي
للتأليف والترجمة والنشر
بيروت - بناية عمر الخيام - ص.ب ٣١٥٧
هاتف ٢٩١١١٨ - ٢٤٠٥٠٦ - ٢٤٠٥٠٧

من منشوراتها :

	ق.ل.
صلاح الدين الايوبي ، لقدري قلعجي	١٥٠٠
التعليم في المملكة العربية السعودية، لعبدالوهاب عبدالواسع	٥٠٠
تاريخ العرب العسكري ، لمحمود الدرة	٦٥٠
الاشتراكية الوافدة من الصقيع ، لجان بول سارتر	١٥٠
الاسلام اقوى ، لجهاد قلعجي	٥٠٠
نظرات اسلامية في الاشتراكية الثورية للدكتور معروف الدواليبي	٢٠٠
الخليج العربي ، لقدري قلعجي	١٥٠٠
تاريخ البلاد العربية السعودية، للدكتور منير العجلاني	١٤٠٠
التشريع الجنائي الاسلامي، لعبدالقادر عودة	٣٠٠٠
المثل الاعلى للحضارة العربية، للدكتور يحيي الهاشمي	٢٠٠
تاريخ العرب في اسبانيا ، للدكتور خالد الصوفي	٦٠٠
مذكرات توفيق السويدي	١٢٠٠
العدالة الاجتماعية ، للدكتور فؤاد العادل	٧٠٠
النكسة والخطأ ، للدكتور اديب نصور	٤٠٠
المؤامرة ومعركة المصير ، لسعد جمعة	٦٠٠
تجربة عربي في الحزب الشيوعي، لقدري قلعجي	٦٥٠
جيل الفداء ، لقدري قلعجي	١٥٠٠
تشيكوسلوفاكيا وازمة الاشتراكية المعاصرة ، لقدري قلعجي	٢٠٠